المشروع العربي في مواجهة المشروع الصهيوني

يقترح الدكتور جمال حمدان في دراسته المنشورة في هذا العدد من المعرفة تحت عنوان « اسرائيل محطة مرحلية على طريق هجرة اليهود إلى الغرب » ، أن تكون لدى العرب منذ الآن خطة تستهدف في نهاية المطاف تحقيق الفكرة التي تدعو إليها الدراسة ، وهي أن تكون اسرائيل ولاية أمريكية داخل الولايات المتحدة نفسها ، وليس خارجها كما هو الحال الآن . والدراسة برمتها تقوم على نوع الاستبصار القائم على متابعة معمقة لرحلة اليهود عبر التاريخ . فلقد كانت هذه الرحلة في معظم مراحلها تتجه باليهود نحو الغرب ، باستثناء حالات محدودة جداً حدث خلالها نزوح معاكس ، ولكن طارىء ومؤقت ، نحو الشرق . وتقول هذه الدراسة بلغة بالغة الاحكام والدقة، وبوعي عميق لحركة التاريخ، وبمعرفة شاملة لطبيعة النزوح اليهودي عبر العصور ، ان اقامة اليهود في فلسطين مجرد محطة مرحلية على طريق هجرتهم إلى الغرب ، والغرب هذه المرة ليس أوربا ، ولكنه الولايات المتحدة لاسباب متعددة تشرحها الدراسة بطريقة بالغة الاقناع .

قد تبدو هذه الافكار على قدر كبير من الغرابة ، لكن الدكتور جمال حمدان الذي يتوقع أن يكون لأفكاره هذه وقع المفاجأة، يرى أن المشروع اليهودي لأقامة وطن لهم في فلسطين كان أشبه ما يكون بالحلم الفاوستي . وحين دعا هرتزل للمرة الأولى إلى فكرة هذا الوطن القومي ، فان احداً لم يكن يتوقع أن تتحقق هذه الفكرة خلال نصف قرن فحسب . من هنا فان الدكتور حمدان يدعو العرب إلى العمل منذ منذ الآن على التبشير بهذه الفكرة التي إن بدت غريبة بعض الشيء ، فانها سوف تبلغ مداها من الاقناع بمرور الزمن ، خصوصاً وان ثمة ما يسندها من التاريخ الذي يشير إلى حركة متصلة يقوم بها اليهود نحو الغرب ، ليستقروا هناك في نهاية المطاف .

ان دراسة الدكتور جمال حمدان لا تكتفي بهذا الطرح ، وانما هي تعمد في الوقت نفسه إلى مناقشة مسائل تتصل بالصراع العربي الاسرائيلي، وبالحلول السياسية المقترحة لهذا الصراع، لتصل بعد ذلك إلى طرح المشروع العربي الذي يبدو خيالياً ، لكنه بالعمل الجاد يمكن أن يتحول إلى أمر واقع ، وهو مشروع يستحق أن يطرح للحوار ليصبح في وقت لاحق خطة عملية قابلة للتنفيذ .

رئيس التحرير

تنويــه

كان من المقدر لهذا العدد أن يكون « تشرينيا » ، غير ان الراي استقر في نهاية المطاف على أن تشرين ليس فقط ذلك الصراع المسلح الذي حقق فيه العرب ، ولاول مرة ، انتصارا مؤكدا على عدوهم ، وانما هو في الوقت نفسه ذلك الصراع الذي يخوض العرب غماره من أجل وحدتهم وحــل مشكلاتهم القومية وبلورة معالم ثقافتهم العربية الواحدة . فكان هذا العدد الذي يربط تشرين بالمسألة القومية ربطا محكما يظهر من خلاله أن تشرين ــ الحرب ، هو نفسه تشرين الوحدة العربية ، وتشرين الثقافة العربيــة وتشرين الشخصية القومية الواحدة .

« المعرفة »

قضايا قومية

شروط تحقيق الوحدة

جورج صدقني

نحن امة مجزأة تعيش وضعا شاذا ، نناضل من اجل ان نعود الى وضعنا الطبيعي . والتخلص من الوضع الشاذ ليس مشروطا بشيء الا بتوفير مقومات التخلص من هذا الوضع الشاذ . وبطبيعة الحال إذا لم نوفر مقومات التخلص من هذا الوضع الشاذ فلن نستطيع أن نتجاوزه اونتخلص منه .

عندما نقول لوحدة متاحة : لا ، نكون قد وضعناأنفسنا في خندق واحد مع أعداء امتنا العربية .

اننا عندما تتراءى امام ذهننا مثل هذه الاحتمالات (احتمالات الوحدة) نقفز دائما الى الشكل .

من اقوال الرئيس حافظ الأسد

انتهينا في مقالتنا السابقة (١) الى أن الوحدة العربية تقدمية ، بعد أن قمنا بتحليل نظري سريع لمفهوم الوحدة ، عدنا فيه الى البداهات المنسية، فقررنا من جهة أولى انالوحدة العربية حق طبيعي للعرب : بها يستكملون وجودهم الناقص ويستعيدون وضعهم الصحيح والسليم ،

---

(١) انظر الوحدة : رجعية ام تقدمية ؟ مجلة المعرفة : العدد (١٦٣) - ايلول (سبتمبر) ١٩٧٥ .

وبيّنا أن شأن العرب في طلب الوحدة شأن من أصيب بخلع في عظامه فأراد ان يجبر هذا الخلع ويعيد عظامه سيرتها الاولى . وقررنا من جهة ثانية ان القومية العربية ، التي تنشد الوحدة وتضعها هدفا اسمى تناضل من اجله ، هي حركة التحرر القومي العربية المعادية بطبيعتها للاستعمار والامبريالية ، وبالتالي فان اقامة الوحدة العربية هي في الوقت نفسه قضاء على التجزئة التي اصطنعتها المصالح الاستعمارية ، وانهاء لسيطرة الاستعمار والامبريالية في الوطن العربي ، وتحقيق للحرية والاستقلال القومي . كما قررنا من جهة ثالثة أن وحدة الوطن العربي هي وحدها التي تحقق افضل مناخ لبناء الاشتراكية بما توفره من طاقات بشرية عظيمة ومن موارد اقتصادية هائلة . وقررنا اخيرا ان الوحدة مطلب جماهيري وان الجماهير العربية لاترضى بديلا عن الوحدة .

لقد سقنا هذه الادلة على تقدمية الوحدة رغم اعتقادنا بأن هذه التقدمية صفة بدهية لاتحتاج الى دليل . لقد كان ذلك اشبه بالبرهان على أن الشمس ساطعة في رابعة النهار ، ولكن شعورنا بأن التباسات فكرية كثيرة قدتسللت الى اذهان الأجيال العربية الجديدة في هذاالشأن دفعنا الى ركوب هذا المركب الخشن .

مع هذا كله ، قد يقول قائل : « ما كان اغناك عن هذا كله ! ! صحيح ان الوحدة العربية تقدمية من حيث المبدأ ، اي على الصعيد النظري ، ولكن الامر ، على الصعيد العملي ، مختلف اختلافا اساسيا . ان تقدمية الوحدة رهن بالشكل الذي تتخذه وبالشروط التي تتحقق فيها . ان الوحدة العربية ، بالتالي ، يمكن ، من الناحية العملية ، ان تكون تقدمية ، ويمكن أن تكون رجعية ايضا » .

يذكرني هذا الطرح بمناقشة ودية حول هذا الموضوع ، دارت بيني وبين احد الاصدقاء الاجانب . كان ذلك في العام ١٩٧٢ ، وكنت في زيارة لبلاده ــ وهي دولة صديقة للعرب ــ وكنا في مأدبة تكريمية . وكالعادة، كانت تدور على المائدة احاديث ودية ثنائية في مختلف الشؤون ، يتخللها

احيانا ــ جريا على عادات تلك البلاد ــ تبادل بعض الانخاب تحية لصداقة بين شعبين ، او لنضال شعب ، او لانتصار فكرة او مبدأ .

كان هذا الصديق ــ وهو معلق صحفي كبير ــ يجلس بجانبي ، فكان طبيعيا ان ينتقل الحديث الى الصراع العربي ــ الصهيوني وتحرير الاراضي العربية المحتلة ، فتحدث عن تباين سياسات الدول العربية في هذا الشأن ، الى ان قال :

ــ اعتقد أن السلاح الاساسي الذي يمكن العرب من مواجهة العدوان ومن تحرير اراضيهم يكمن في اتباع سياسة عربية واضحة وموحدة . ان قوتكم الحقيقية هي في تضامنكم ، في اتحادكم .

قلت : ــ انا موافق تماما على هذا الرأي . وانتهز هذه الفرصة فاقترح ان نرفع نخبا تحية للوحدة العربية .

غير أنه استأنف حديثه بعد صمت قصير ، فقال : ــ ولكن ، اي وحدة ؟ الوحدة العربية ، هكذا ، دون قيد ولا شرط ؟ لو كان ذلك مناسبا ، لطلبت منك ان تسمح لي بتصحيح على ما اقترحت ، ولقلت تحية للوحدة العربية التقدمية .

قلت مبتسما : ــ لو انك فعلت ، لكنت اقترحت تصحيحا على التصحيح ، وقلت تحية للوحدة العربية التي لايمكن ان تكون الا تقدمية .

قال : ــ ماذا تعني ؟ هل تقصد أن كل وحدة عربية هي تقدمية ؟

اجبت : ــ اقصد ان الوحدة العربية تقدمية بطبيعتها ، تقدمية بالضرورة . ان الاستعمار هو الذي قسم الوطن العربي واصطنع التجزئة ، واقام دولة للصهاينة في فلسطين لكي تكون عائقا ماديا يحول دون قيام الوحدة . فالنضال من اجل الوحدة العربية هو نضال موجه في الوقت

نفسه ضد مصالح الاستعمار والامبريالية والصهيونية المتمثلة فيحماية التجزئة وتكريسها . من جهة اخرى ، لو حللنا بنية المجتمع العربي ، والطبقات التي يتالف منها ، وتساءلنا عن الطبقات التي لها مصلحة في قيام الوحدة ، وعن الطبقات التيتتعارض مصالحهامع قيامهذهالوحدة، لوجدنا بكل بساطة ان الحكام والاقطاعيين والرأسماليين وكل من يريد المحافظة على نظام الاستغلال الطبقي لا مصلحة لهم في الوحدة لانهاتعني وحدة نضال جماهير الكادحين ضدهم وتعاظم قوة هذه الجماهير ، ولوجدنا أن جماهير طبقات الكادحين من عمال وفلاحين وصغار كسبة وجنود ومثقفين ثوريين هي صاحبة المصلحة الحقيقية في قيام الوحدة العربية . إن أعداءالوحدة العربيةهم الاستعمار والامبريالية والصهيونية والرجعية المحلية . فالوحدة العربية تقدمية بالضرورة ، والمناضلونفي سبيلها تقدميون لانهم يناضلون حكما ضد هؤلاء الأعداء جميعا . ان موقعهم ــ اذا استخدمنا المصطلحات الشائعة عن اليمين واليسار ــ هو على يسار الجانب الأيسر من أقصى اليسار .

ضحك وقال : ــ لا أستطيع الا ان اشكرك ، لانك القيت ضوءاً على جوانب من هذا الموضوع كانت غامضة في ذهني . يجب أن توضحوا هذه الأمور للراي العام العالمي . هذه مسؤوليتكم . مع ذلك اسمح لي بأن أقول ان ما تقوله صحيح على الصعيد النظري فقط ، ولكن الامر مختلف على الصعيد العملي . انا استطيع ان اعطيك مثالا على وحدة رجعية تحققت بالفعل . ما رأيك في الاتحاد الاردني ــ العراقي الذي قام في العام ١٩٥٨ ؟ بكلمة أخرى هل توافق على قيام وحدة بين سوريا وبين .... الكويت مثلا ؟

قلت : ــ على الصعيد النظري انا موافق طبعا على الوحدة معالكويت. ولكن هذهالوحدة غير مطروحة علىالصعيد العملي، لان الشروط العملية لتحقيقها غير متوافرة ، وحبذا لو كانت متوافرة . لايستطيعالمرءأن يجيب عن سؤال غير مطروح علىالصعيد العملي. أما الاتحاد الاردني ــ العراقي الذي أشرت اليه ، فلم يكن وحدة حقيقية . ان اية نظرة اليهتتجاوز النظرة السريعة السطحية كفيلة بالكشف عن جوهره الحقيقي . لقد كان

مناورة سياسية مستعجلة تهدف اولاالى الوقوف فيوجه المدالوحدوي، الذي تعاظم آنذاك بسبب قيام الوحدة بين سوريا ومصر ، وتهدف ثانيا الى امتصاص طموح الجماهير الشعبية الى الوحدة بتقديم هذه الوحدة الخادعة التي لم يكن لها من الوحدة الا الاسم . لقد كانت وحدة على الورق ، وظلت حبرا على ورق .

انقطع حديثنا عند هذا الحد ، كما ينقطع اي حوار يجري على مائدة.

ولقد سردت ما اتذكر من هذا الحديث هنا لانه يطرح مشكلة تقدمية الوحدة على الصعيد العملي بجلاء . واذا كنا نستطيع ان نجد اعذاراكثيرة لاصدقائنا من غير العرب في عدم وضوح قضية الوحدة العربية فيإذهانهم — وفي طليعة هذه الأعذار ، كما قال صديقنا بحق ، اننا لم نبذل ما يكفي من الجهود لجلاء هذه القضية امام الراي العام العالمي — فإننا لا نستطيع ان نلتمس لانفسنا ، نحن المؤمنين بالوحدة العربية سبيلا لتحرير الأمة العربية ، عذرا واحدا في بقاء اي غموض حول تقدمية الوحدة .

★ ★ ★

والواقع ان التباسات فكرية كثيرة قدلحقت بقضية الوحدة العربية، ولا سيما على الصعيد العملي ، اي على صعيد تحقيق الوحدة . كثير من هؤلاء يسلمون بان الوحدة تقدمية ، وهؤلاء يقفون مع الوحدة موقفا نظريا ، فاذا تجاوزوا حدود هذا الموقف النظري ، وانتقلوا الى الصعيد العملي ، قفز ذهنهم فورا الى الشكل ، الى شكل الوحدة ، والى شروط تحقيق الوحدة ، وبدات تحفظاتهم ! !

هذه المواقف العملية من الوحدة ليست انموذجاً واحدا ، بل يمكن تلمح عدة نماذج منها ، اهمها التالية :

١ — الموقف الاول يحتمي اصحابه وراء « ظروف الواقع الموضوعية» في مختلف الأقطار العربية . ويرى هؤلاء ان هذه الظروف الموضوعية تقف حائلادون تحقيق الوحدة عمليا، فالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها مختلفة اختلافا عميقا بل هي متناقضة في كثير من الاحيان . ولذلك فان من العبث ، في رأيهم ، أن نقيم وحدة بين قطرين

تختلف ظروف واقعهما الموضوعية ، وهم يرون أن أية وحدة من هذا النوع محكوم عليها قبل ولادتها بالانهيار .

لانعتقد انهناك من ينكر ان واقع كل قطر منالاقطار العربية مختلف عن الآخر ، ولو لم تكن الظروف الموضوعية في كل قطر مختلفة عنظروف الاقطار الأخرى لما كانت التجزئة قائمة ، ولقامت الوحدة تلقائيا . ولكن هناك فرقا كبيرا بين أن نفهم الواقع كما هو ثم نناضل من اجل تغييره ، وبين ان نفهم هذا الواقع ونستسلم له استسلاما كاملا . ان هذهالظروف الموضوعية التي تقف حائلا دون قيام الوحدة العربية هي ظروف التجزئة بالذات ، أو هي ظروف ولّدتها التجزئة . ولذلك فان الذين يضعون الوحدة هدفا من أهداف النضال القومي ، يدخلون في حسابهم ان نضالهم في سبيل الوحدة لابد ان يشمل ضمنا النضال من اجل نسف هذه الظروف الموضوعية وتغييرها .

وإذا قال قائل من هؤلاء : « ما الضرر إذا انتظرنا حتى تصبح الظروف الموضوعية ناضجة لقيام الوحدة ، وحتى تصبحشروط الواقع متشابهة » ، اذا قال أحدهم هذا القول أجبنا : « الضرر كامن في أن التجزئة والظروف المتولدة عنها تتوطد وتترسخ مع الزمن ، فلا بد من النضال ضد ظروف التجزئة ، ولابد من فعل ثوري يغير مجرى الأمور وهذا الفعل الثوري هو الوحدة نفسها » .

ان بعض أصحاب هذا الموقف ينسبون أنفسهم ظلما الى الماركسية . ونقول (ظلما) ، لأن الماركسية ليست نظرية لفهم الواقع وحسب ، بل هي نظرية للثورة عليه وتغييره تغييرا شاملا .

٢ ـ الموقف الثاني موقف شكلي خيالي ، وأصحاب هذا الموقفيقفز تفكيرهم على الفور الى شكل الوحدة ، عندما يتراءى امام اذهانهم أي احتمال لها . ويتلخص موقف هؤلاء في انهم يتخيلون اشكالا مسبقة للوحدة ، من هذه الاشكال ما هو مقبول (وغالبا يكون شكل واحدفقط هو المقبول عند هؤلاء ! ومنها ما هو مرفوض ، ثم يسيرون خطوة اخرى فيضعون سلسلة من الشروط القَبْلية للوحدة المنشودة : فاذا جاءت الوحدة على الشكل المطلوب وملبية للشروط الموضوعة مسبقاً ، كان بها وعندئذ اهلا وسهلا بالوحدة ، واذا لم تلب الوحدة هذه الشروط (أو احدها) ، فهي مرفوضة رفضا قاطعا !

يعتقد أصحاب هذا الموقف اعتقادا جازما بأنهم يقفون الى جانب الوحدة ، ولكنهم ، في حقيقة الأمر ، يتخلون عنها من الناحية العملية . ان الأساس الذي يقوم عليه هذا الموقف هو تصور خاطيء ، بل خطأ قاتل: ذلك ان أصحاب هذا الموقف يتصورون ان الوحدة آتية من تلقاء نفسها على طبق من فضة اوذهب ، وما علينا نحن الان ننتظرها ، وننتقي الشكل الذي يلائمنا والشروط التي تناسبنا ، وماعدا ذلك نرفضه . ولكن اذا عرفنا ان الوحدة لايمكن ان تتحقق تلقائيا ، وان تحقيقها يحتاج الى نضال عنيد ودؤوب وشاق نظرا الى ضخامة القوى المعادية لها ، تبين لنا انه لا يبقى من هذا الموقف الا الكسل النضالي والقعود عن العمل في سبيل خلق الظروف المناسبة وتوفير المقومات اللازمة لقيام الوحدة .

ان انتظار الوحدة لا يأتي بها ، ولا يجعل المنتظر مناضلا في سبيل الوحدة . وبكلمة اخرى ان موقف الاكتفاء بانتظار الوحدة يعادل رفضها عمليا ، وبهذا يسقط هذا الموقف من حيث لا يحتسب في دائرة المنطق الانفصالي .

٣ ـ الموقف الثالث لا يقبل الوحدة الا اذا كانت خالية من كل عيب ولا تشوبها اية شائبة . فهو يريد الوحدة من اللحظة الاولى كاملة مثالية ليس فيها اي نقص .

ان اصحاب هذا الموقف « الطهري » اناس طيبون انقياء السريرة ، وهم نظيفون وحسنو النية . ولكن تبني موقفهم يعني في واقع الأمر تاجيل الوحدة الى أمد طويل ، او الى الأبد ، لأنه من رابع المستحيلات ان تتاح فرصة لقيام وحدة خالية من كل عيب . ان خطأ هذا الموقف كامن في ظنه ان تحقيق اية وحدة إنما هو خاتمة المطاف في نضال طويل . والحق انه إذا كان تحقيق اية خطوة وحدوية يحتاج الى مرحلة طويلة من النضال الشاق ، فإن تحقيق اية وحدة لا يمكن ان يكون خاتمة المطاف في النضال الوحدوي ، بل هو ، في الوقت نفسه نقطة انطلاق لمرحلة جديدة من النضال لامتداد الوحدة الى اقطار اخرى من جهة ، ولتلافي الشوائب والعيوب في داخل الوحدة من جهة اخرى .

٤ ـ هناك من يتوهم ان الوحدة لاتقوم، او لايجوز أن تقوم ، الا بين قطرين متماثلين . ومن هؤلاء من يصل بالأمر الى حده المنطقي فيرى ان الوحدة لاتقوم ، او لايجوز أن تقوم ، الا بين قطرين متماثلين تماثلا تاما .

ان الواقع العملي ينفي هذا التصور : ذلك ان الوحدة التي قامت بين سوريا ومصر في العام ١٩٥٨ ، كانت وحدة بين قطرين متماثلين فيبعض الجوانب ، ولكن الموضوعية تقتضي القول ان التماثل بينهما كان غائباعن كثير من الجوانب، ان لم يكن عن معظمها. ومع ذلك قامت تلك الوحدة. وما كان يجوز الا أن تقوم ، بغض النظر عن الأخطاء التي حدثتبعد قيامها، وبغض النظر عن انهيارها فيما بعد ، لأن هذا موضوع آخر .

٥ ــ انبعض من يعتقدون بحق انالوحدة العربية تقدمية يستنتجون من ذلك ان اية خطوة وحدوية بين قطرين غير تقدميين هي خطوة رجعية. من الواضح أن فيهذا الاستنتاج قفزة منطقية لايسوغها الحس السليم . وفي مثل هذا المنطق يكون قيام اتحاد الامارات العربية خطوة رجعية ، وبالتالي يكون من الأفضل لو انه لم يقم . واذا سرنا مع هذا التفكير في تسلسله المنطقي الى النهاية يصبح من واجب المناضلين التقدميين العمل على تقويض هذا الاتحاد والعودة الى الرضع الذيسبق قيامه ، اي العودة الى الأمارات المبعثرة !

اننا لانعرف سببا يمكن ان يدفع اي مواطن عربي ذي حس سليمالى قرع اجراس الحزن على قيام هذا الاتحاد . ولا نعرف ما هو الأذى الذي يمكن ان يلحقه بالأمة العربية ، وكيف يمكن أن يرجع بالنضال العربيالى الوراء . ان الواقع الاجتماعي والاقتصادي فيإمارات الخليجمعروف، واذا كان هناك ما يدعو الى الأسف ، فهو ان هذا الواقع لم يسمح بقيام علاقات اتحادية اقوى وأمتن من العلاقات التي قامت بالفعل .

قد يقول قائل من هؤلاء ان خطوات وحدوية من هذا النوع تلحق ضررا بالنضال العربي لانها تزيد من قوة الرجعية . ولكننا ، اذا اخذنا بهذا المنطق وسرنا معه الى حده الاقصى ، نصل الى غرائب لاتخطربيال. ان هذا المنطق ، لكي يظل منسجما مع نفسه ، يستتبع اذا وجدنا مملكة عربية غير تقدمية متسعة الرقعة نسبيا وعلى درجة ما من القوة ــ ان نناضل من اجل تقسيم هذه المملكة الى عدد من الدويلات الصغيرة ، ثم نناضل لمنع هذه الدويلات الصغيرة ــ باعتبارها رجعية ايضاً ــ من إقامة وحدة فيما بينها !!

٦ ــ واخيراً هناك من ينطلق من القول بأن النضال القومي والنضال الاشتراكي متلازمان (وهو قول صحيح) ، ويبني على ذلك موقفاً

خاطئا ، خلاصته ان الوحدة والاشتراكية متلازمتان بمعنى انالاشتراكية شرط لازم لقيام الوحدة ، وبالتالي فان الوحدة تكون مرفوضة قبل تحقيق الاشتراكية ، او على الاقل تكون مرفوضة اذا لم يكن قيامالوحدة مترافقاً مع بناء الاشتراكية .

لن اشرح هنا المعنى الصحيح للتلازم بين النضال القومي والنضال الاشتراكي شرحاً مفصلا (فهذا سيكون موضوع مقالتنا القادمة) . ساكتفي الآن بالقول ان النضال القومي لا يغنينا عن النضال الاشتراكي ولا يجوز ان يصرفنا عنه او ينسينا إياه . والعكس صحيح : اي ان النضال الاشتراكي لا يغنينا عن النضال القومي ولا يجوز ان يصرفنا عنه او ينسينا إياه .

وبكلام آخر ليست الوحدة بديـلاً عن الاشتراكية ، وليست الاشتراكية بديلا عن الوحدة . هذا هو المعنى الحقيقي للتلازم بينالنضال القومي والنضال الاشتراكي .

اما إذا قلنا ان الوحدة والاشتراكية متلازمتان بمعنى ان الاشتراكية شرط لازم لقيام الوحدة ، فانه يحق لنا ان نقول ايضاً : إن الوحدة والاشتراكية متلازمتان بمعنى ان الوحدة شرط لازم لبناء الاشتراكية . وبهذا نقع في مازق نظري ، ونصل الى طريق مسدودة تماماً ، فنمتنع عن اقامة الوحدة ، ونمتنع عن بناء الاشتراكية .

★ ★ ★

هذه المواقف التي استعرضتها موجودة كلها في الواقع . ولكنهاليست منفصلة عن بعضها على النحو الذي عرضت ، بل هي متداخلة بعضها مع بعضها الآخر تداخلا جزئياً احياناً ، وتداخلا كليا احيانا اخرى .

فليس من الغريب أن يكون هناك من يتبنى اكثر من موقف من هذه المواقف ، اويتبناها جميعاً . ثمانهذه المواقفالتي استعرضتها لاتستنفد المواقف الخاطئة من قضية الوحدة ، فقد تكـون هناك مواقف خاطئـة اخرى لم تخطر بالبال .

★ ★ ★

إنني اعلم علم اليقين ان ما قررته يخالف الفكر السياسي الوحدوي الشائع في نقطة او في اكثر من نقطة . ولذلك لن استغرب اذا اصطدم بأفكار شائعة بلغت مرتبة القناعات المفروغ منها . ولن اعجب اذا ولّد اسئلة استنكارية من هذا القبيل : « ما شروط الوحدة اذن ؟ الا نضع اي شرط للوحدة ؟ يا للهول ! هل نقبل الوحدة دون قيد ولا شرط ؟

يجب أن نضع للوحدة الشروط التي تحميها من الانهيار على الأقل . لقد كفانا تجارب ، فالامة العربية ليست حقلا للتجارب » .

في الإجابة عن مثل هذه الأسئلة نقول :

١ – إن اخفاق أية تجربة وحدوية ليس نهاية المطاف بالنسبة الى النضال القومي ، ولا يجوز أن يفت في عضد المناضلين أو يدفعهم الى اليأس ، بل يجب أن يدفعهم الى مزيد من النضال في سبيل الوحدة ، ومن اجل تلافي الاخطاء والثغرات التي ادت الى انهيارها . ان إخفاق اية تجربة وحدوية يجب الا يكون دافعاً الى النكوص والإحجام ، بل يجب أن يكون درساً مستفاداً لا يتجه نحو الماضي والبكاء عليه ، بل يتجه نحو مستقبل وحدوي أفضل .

٢ – إن المناضلين في سبيل الوحدة العربية لا « يضعون » شروطاً امامها تتحول الى عوائق تحول دون قيامها . إنهم يناضلون « لخلق » الشروط الملائمة و « ايجاد » الظروف المناسبة للتخلص من التجزئة . إن الموقف الوحدوي موقف ثوري ، وبالتالي فهو ليس موقفاً سلبياً متلقيا يكتفي برفض كل مالا يدخل في قوالب مسبقة الصنع . إنه « فعل » ثوري ايجابي يخلق الظروف المناسبة لغاياته ، ويوجد الصيغ العملية الجديدة الملائمة لأهدافه ، ويوفر مقومات بلوغ هذه الغايات والأهداف.

« نحن امة مجزاة تعيش وضعاً شاذاً ، نناضل من اجل ان نعود الى وضعنا الطبيعي . والتخلص من الوضع الشاذ ليس مشروطاً بشيء الا بتوفير مقومات التخلص من هذا الوضع الشاذ . وبطبيعة الحال اذا لم نوفر مقومات التخلص من هذا الوضع الشاذ فلن نستطيع ان نتجاوزه أو نتخلص منه » .

٣ – إن المناضلين في سبيل الوحدة العربية مطالبون في كل وقت بدراسة الظروف التاريخية المتجددة ، ومطالبون دائماً بابتكار صيغ وحدوية عملية جديدة تتناسب مع هذه الظروف التاريخية ، ومطالبون أيضاً وباستمرار بالنضال من اجل خلق الظروف التاريخية التي تسمح بإقامة الوحدة . واذا سنحت فرصة تاريخية لإقامة الوحدة ، كان على المناضلين في سبيلها أن يبذلوا كل غال للاستفادة من الفرصة السانحة .

أما اذا سنحت فرصة تاريخية لإقامةالوحدة ، ثم فتناالوحدة المتاحة: لا ، فاننا « نكون قد وضعنا انفسنا في خندق واحد مع اعداء امتنا العربية » .

ثقافتنا العربيّة أمام تحديات العصر

محمود المسعدي

اسمحوا لي ــ بادىء ذي بدء ــ بأن أتوجه اليكم والى الشعب السوري البطل ، بخالص التحية وصادق الاكبار . وأن أعبر عن سعادتي وسروري ، اذ تتاح لي فرصة زيارة هذا البلد الحبيب ، في نطاق الاسبوع الثقافي التونسي الذي أقيم بسوريا ، هذا البلد الذي تهفو اليه قلوبنا ، وتربط بينه وبيننا وشائج قربى ، ويهزّنا اليه حنين متواصل الوجيب ، منبعث من أعماق النفس التي تتوق الى ماضيها وتجوس خلال معابره ، تستلهم رؤاه وتستقرىء ملامحه وتستشف نبض حياتنا فيه ، فاذا عالم زاخر بالرؤى ، قائم على كل معاني الوجود ، جياش بالذكريات ، مدو بما كان ، مبشر بما سيكون . . واذا النفس البصيرة في غمرة أحلامها ، تقرب ماشط من أيامها ، وتستعرض ما كان من أمجادها ، واذا أنت في رحاب جامع دمشق تتأمل ما كان من عظمة الاسلام ، فتتداعى الى ذهنك صور أبي عبيدة الجراح وخالد بن الوليد وأمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وكل من أم هذا الجامع مصليا أومستغفرا أومستنجدا أومطمئنا ، وتتذكر ما كانت تزخر به نفوس الراحلين العرب من اعجاب واعتزاز في وصفهم لبلاد الشام ، وتمر بذهنك بعض الاسماء اللامعة للذين كانوا أثروا خيالك وأججوا عاطفتك وأهاجوا حنينك الى المشرق ، من أمثال عبد الله بن عبد العزيز القرطبي المعروف بالبكري (٤٨٧ هـ القرن الخامس) وابن

* نص المحاضرة التي ألقاها الاستاذ (محمود المسعدي) وزير الثقافة التونسي في القاعة الشامية بمتحف دمشق .

العربي والشريف الادريسي (٥٤٨ هـ القرن السادس) وابن السعيد الاندلسي (٦٧٥ هـ القرن السابع) وابن بطوطة الطنجي (٧٧٠ هـ القرن الثامن) وترى هذا الخيط بل الحبل الممدود على الدهر بين اجزاء العالم العربي وهذه الصلة المتينة بين اهل المشرق واهل المغرب ، ثم لا تلبث ان يعود بك ما استظهرت من محفوظات وانت صبي الى البحتري حين يقول:

اما دمشق فقد ابدت محاسنها
وقد وفى لك مطريها بما وعدا
اذا اردت ملأت العين من بلد
مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسي السحاب على اجبالها فرقا
ويصبح النور في صحرائها بددا
فلست تبصر الا واكفا خضلا
او يانعا خضرا او طائرا غردا
كأنما القيظ ولى بعد جيئته
او الربيع دنا من بعد ما بعدا

والى ابي الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسي الغرناطي الذي كأنما تاق هو ايضا الى مجاراة البحتري فاذا هو يقول :

اما دمشق فجنة
ينسى بها الوطن الغريب
انظر بعينيك هل ترى
الا محبا او حبيب

في موطن غنى الحمام
به على رقص القضيب
وغدت ازاهر روضه
تختال في فرح وطيب

ثم اذا انت بعد كل ذلك تستذكر صدى داويا آخر وتصيخ السمع فاذا أبو الطيب المتنبي في بلاط سيف الدولة في حلب « يملأ الدنيا ويشغل الناس » ويصف معارك المسلمين مع الروم ، فتتصور قعقعة السيوف والتحام الجيوش وعظمة البطولة ونخوة النصر .

وتتذكر انكانت ايضانتاج حضارة عريقة بلور الفتح العربي شخصيتها وسوى ملامحها وركز كيانها ، وانه كانت لبلادك في ماضي الزمان ، رباطات تدافع عن الثغور وتحمي الحمى ويصل صداها الى رباطات الشام فتدق انباضها بنفس الروح وتستجيب لنفس النداء .

تتذكر ماعرفت بلاد الشام منذ عهد بني أمية وحتى عهد بني حمدان من ملاحم القتال لصد عداء الروم كما واجهت بعد ذلك .. في حين غفلة العباسيين ببغداد عن أمرها ـ شر غارات الصليبيين . فشاركت هكذا على كر الدهور في الدفاع عن حوزة الاسلام والعرب وما أقاموا من مدنية وثقافة .

وان التاريخ ليسجل في نفس الوقت أن الغارات الصليبيةالتيابتدأت في آخر القرن الحادي عشر حين احتل جيش الحملة الصليبية الاولى انطاكية عاصمة سورية الشمالية قد انتهت في آخر القرن الثالث عشر بعد ان طاشت آخر حملة صليبية وتكسرت شوكتها على أسوار مدينة تونس العربية المسلمة . ولئن كان في المقارنة بين تلك البداية وهذه النهاية احد المظاهر الرائعة لذلك التضامن ولتلك الوحدة في المصير المركزة فيطبيعةكيان الامة العربية على وجه الدهر ، فان تلك المظاهر لاتزال تتجدد عصراً بعد عصر متنوّعة في ظروفها وملابساتها واحدة في معناها ورمزها . فقد واجهت تونس وكامل أقطار المغرب العربي موجة الطغيان المسيحي الاسباني الذي بدا بطرد المسلمين من الاندلس ثم رام بعد ذلك اكتساح دار الاسلام بشمال افريقيا حين احتل الامبراطور « شارل كان » تونس وعاث فيها افسد فساد . كما عرفت تونس في عهود أخرى اقرب الينا

ما عرفته سورية وسائر الاقطار العربية من اكتساح الاستعمار الاوروبي لها في موجة عارمة كانت اول تحدّ من سلسلة التحديات المصيرية التي عرفها العالم العربي في جملتـه منذ بداية القرن التاسع عشـر والتي ان اتخذت شكلا عسكريا في الغارات الصليبية قديما وفي العدوان الصهيوني حاضرا ـ ولن تكون نهاية هذا غير نهاية تلك طال الزمان ام قصر ـ فانها أخطر وأدهى حين تتخذ شكلا ثقافيا حضاريا .

وهل كان استعمار الغرب لبلداننا الا تحدياً من هذا النوع الاخير ؟ الم تشعروا هنا في سورية كما شعرنا وكما عشنا في تونس حقيقة الاستعمار على انه ليس مظهر تغلب دولة أقوى على دولة اضعف بل تغلب حضارة و ثقافة أحيى فاقوى على ثقافة نسيت ان تجاري التاريخ، ولم يكن الاستعمار مهدداً بالزوال الذاتية السياسية الوطنية فقط بل ساعياً ايضا الى محو الذاتية الثقافية والشخصية الحضارية القومية للبلد المستعمر حسب خطة سياسية ترمي الى تحقيق ذلك المحو بالاندماج او المسخ او التعطيل. فكم حاول الاستعمار الفرنسي الذي عرفتموه كما عرفناه ـ كم حاول فرنجتنا سياسيا وثقافيا ولغويا وصرفنا عـن الوفاء لذاتيتنا الثقافية الموروثة عن ماضينا العربي الاسلامي والمركزة في حاضرنا العربي الاسلامي . لذلك كانت الجذور العميقة لكفاحنا الوطني التحرري ـ عندنا في تونس كما عندكم في سورية ـ جذورا ثقافية حضارية قبل ان تكون سياسية خالصـة . ولذلك لانزال نشعر ـ كما لا تزالون تشعرون أيضا ـ أن كفاحنا المصيري لم ينته بفوزنا بالاستقلال السياسي بل انه قد تحرر من الضوابط الظرفية التي لونته باللون السياسي الوطني ايام معارك التحرير واتخذ بعد الاستقلال أبعاده الجوهرية وانكشف لأعيننا في وجهه الحقيقي كفاحا في سبيل بعث حضارتنا وثقافتنا العربية الاسلامية بعثاً لا يضمن لهـا فقط المناعة ازاء غارات الثقافات الاخرى بل والقدرة ايضاً على مزاحمتها والتغلب عليها في « معترك الحياة بين الحضارات » ذلك المعترك الذي هو التاريخ والذي يسيطر عليه في هذا الميدان كما في عالم الحيوان والنبات قانون الصراع من أجل الوجود . . .

واذا اخترت ان اتحـدث اليكم في هـذا اللقاء الأخوي المحبب للنفس المثلج للفؤاد ، حول موضوع « ثقافتنا العربية امام تحديات العصر » فان اول ماتقتضيه الامانة الفكرية والمنطق السليم ان نبدأ فنضع لنا ــ بحسب التحديد العلمي او على وجه التواضع والاتفاق ــ تعريفا للثقافة وماهيتها يصح ان ننطلق منه انطلاقاً صالحاً في جولتنا الفكرية حول القضايا المتشعبة التي ينطوي عليها مثل هذا الموضوع ــ ومع اني لاادعي الا انالقي بين ايديكم بعض خواطر ارسلها على علاتها بشأن هذه القضايا بين ايديكم في دون تكلف ولا تصنع فلا مناص لي من اخذ النفس بشيء من التدقيق للمفاهيم وان اقول ان من اول ما تواجهه ثقافتنا من التحديات مسألة التعريف بما ينبغي ان نفهم من الثقافة بصفة عامة قبل ان نتساءل عما ينبغي أن تكون ثقافتنا اليوم بصفة خاصة . فمن قبل ان نصطلح على استعمال لفظ الثقافة المشتق معناه من الحذق والفطنة والمهارة كان جاء علينا وعلى الناس حين من الدهر كانت فيه الثقافة هي الادب او هي تهذيب العقل او هي الاخذ من كل شيء بطرف او هي المعارف او المعرفة . وما ابعد هذا كله عن صميم الحقيقة والواقع الحي . ومن منا لا يعلم ان مفهوم الثقافة عندنا كما عند غيرنا من الشعوب قد تطور في العصر الحديث تطوراً سريعاً وجذرياً أصبح معه تصورنا للثقافة ورؤيتنا لما يسمى « الحدث الثقافي » مخالفين مخالفة جوهرية لما كان عليه قبل ، سواء بالنظر الى المفهوم المنطقي او الى الابعاد او الى المقومات .

فالثقافة لم تبق محصورة في المعارف والمعلومات والنشاط الفكري والانتاج العقلي والاستيعاب لكل ذلك رواية ودراية . واذا صح قول بعضهم بأن ذلك شرط من شروطها اللازمة فهو ليس شرطا كافيا . ومع أن الفكر الحديث قد عرف الثقافة بتعريفات مختلفة ومتعددة فان مرد تلك التعريفات جميعها هو في نظري التحديد « الانتروبولوجي » القائل بأن الثقافة بالنسبة للفرد وللمجموعة هي من حيث حقيقتها جملة القيم والرؤى والمفاهيم والمبادىء والاختيارات التي يستند عليها اي فرد او اي مجتمع بشري في سعيه الصانع الخلاّق المبدع .

وهي من حيث ظواهرها جماع ما يتخيله ويريده ويصنعه ويكسبه البشر بالجهد الفردي أو الجماعي ويصوغون به حياتهم المادية والفكرية والروحية في ظرف معين من الزمان والمكان . وهل زادت الانتروبلوجيا « الحديثة في قولها وتحليلها هذا على مايحلل به ابن خلدوننا العبقري منذ قرون « العمران البشري » حين عرفه بانه جملة مايعرض للاجتماع الانساني » من الاحوال مثل التوحش والتانس والعصبيات واصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض ومايتشأعن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من النسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر مايحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال » .

فالثقافة هي اذن وفي آن واحد : القيم الاساسية اولا ، والجهد الانساني الكادح القائم على اساس تلك القيم ثانيا، والمصنوع الناتج عن ذلك الجهد ثالثا ، تجمع بينها جميعا علاقة جدلية على حد مايفهم الفيلسوف الالماني «هيجل» من الجدل الذي هو مشروع وشرعة معا واتجاه نحو المستقبل ودفق من الارادة الحيوية والفعل الخلاق الناتجين لكيان الانسان ومعاشه ومصيره فردا وجماعات .

ونحن اذا اتفقنا على ان ننطلق من هذا التعريف للثقافة واقررنا على هذا الاساس شمول ظواهرها للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والصناعية والفنية لمجتمع ما فقد ادركنا خطورة ماتواجهه ثقافتنا العربية في العالم الحاضر من تحديات مصيرية لاتحصى.

فقد داهمت مقتضيات الحياة العصرية مجتمعاتنا العربية في موجة عارمة غمرت جميع مقوماتها وادخلت عليها طوعا او كرها تغييرات جوهرية بعضها بعث جذري وتجديد ثوري حقيقي وبعضها في الظاهر ثورة وهو في الحقيقة انتكاس تاريخي رأساً على عقب . بل تأمل ذلك مثلا في ميدان الاقتصاد واوضاعه ومؤسساته وانظمته وانشطته وحركاته ومسالكه وحرفه وصناعته كيف كانت في بلداننا وكيف اصبحت مجاراة للاقتصاد العالمي وتفاعلامعه ، وتأمل في ميدان الاجتماع والطبقات الاجتماعية

ونوعيتها وجنس الروابط بينها وكيفية تراكبها وتفاعلها وفعل التيارات الحياتية المؤثرة فيها وما طرأ مثلا على نظام الاسرة وعلى الضوابط والروابط الاخلاقية والعاطفية والقانونية والاقتصادية التي ينبني عليها هيكل الاسرة كالذي حدث عندنا في تونس فيما يتعلق بتعدد الزوجات وبالطلاق . واعتبر ايضا مدى الانقلابات الجوهرية الحاصلة في مفهوم الحكم والسلطان واصوله وقواعده ومؤسساته كيف كانت في ماضينا من قبل أن يكتب الماوردي « احكامه السلطانية » وبعده وكيف تطورت مع الزمان حتى ذهبنا الى التفريق بين السلط التشريعية والتنفيذية والقضائية على غرار مجتمعات مبناها غير ديني مع محافظتنا على المقوم الديني لمجتمعاتنا ، وحتى رمنا في العصر الحديث ممارسة الديموقراطية وهي اشكال للحكم استنبطها غيرنا واختلفوا في صياغتها اختلافا يبلغ أحيانا درجة التناقض وقد زدنا نحن عليها ان صغناها في كثيرمن الاحيان في قالب الامارة والملوكية دون تحرج . وعلى هذا النسق ظننا قد جددنا تجديدا متصلا بصميم كياننا الثقافي ، نظامنا الاقتصادي والاجتماعي حين اقتبسنا من حضارة الغرب التصنيع والتكنولوجيا والاشتراكية ، وجددنا كذلك اوضاعنا ومناهجنا الفكرية حين اخذنا عن تلك الحضارة طرق البحث العلمي التي ابتكرتها ، ونقلنا عنها تصورها للمنزلة البشرية كما بأدبها أحستها ووصفتها ، وبفلسفتها محصتها . فتلك الحضارة تبتكر وتصنع ونحن نستورد ونستهلك .

انكم لتلمسون بدون شك من خلال هذه الامثلة البسيطة الموجزة ماهي الانقلابات الخطيرة والتحولات الاساسية التي لاتزال تعتور هكذا يوميا وتحت أعيننا نوعية الثقافة والحضارة العربية الاسلامية التي ننتسب اليها بالقلب والارادة والفكر ولكننا قد نكون بسبب الانسياق في بعضها واحيائها مع اتجاه قد ينال من ملامح الطرافة وخصائص الشخصية التي ينبغي أن تتميز بها بين الثقافات والحضارات الاخرى .

فهل نحن الذين قررنا ما حدث عن اختيار حر وارادة واعية ؟

أم هل فرضت ذلك كله علينا فروض الزمان ، فكنــا في تطورنا ذلك منســاقين حسب مشيئة « قضاء وقدر »تاريخي لاالهي ولكنــه محتــوم قاهر كقضاء الآلهة ؟ أما آن لنا أن نسعى الى السيطرة على هذه الظروف التاريخية والتحكم فيها (عوض أن تتحكم هي فينا) بالتعــرف عليهــا والتمحيص لماهيتها مادامت لاتتحقق لأحد السيطرة بالفعل دون السيطرة بالفكر والتحليل الواعي ؟ تلك وحدها هي السبيل الـى السيطرة علـى مصيرنا والصنع لثقافتنا وحضارتنا العصـرية بحسب ارادتنا ورؤيتنــا واختيارنا والى خلق مستقبلنا بابداع ايدينا وعقولنا وخيالنا ، عوض ان نترك احداث الزمان وتأثيرات المحيط العالمي المحدق بنا تكيفهما وتلعـ ب بهما كما تفعل يد الخزاف بالطين المطواع . وذلك مابه تحصل« تشيئة » الانسان وليس أقسى منها لعنة من التاريخ على البشر .

وعلى انني لااخالكم تترقبون مني ان اتصفح معكم جميع هذه التحديات أو الضغوط التاريخية التي لها على مسيرتنا الحضارية في هــذا العصر بعض سيطرة او تأثير ما ، فلا بد لنا أن نستعرض أهمها على الاقــل ، في حدود مايسمح به حديث كهذا .

ولعل اول مانشعر به جميعا بأن العصــر يتحدانا فيه هي حقيقــة ذاتيتنا أو هويتنا . فالعالم يسألنا : من أنتم ؟ ماأنتم ؟ ماهي رسالتكـم التي تريدون أن تبلغوها الى العالم ؟ ما هــو الانسان الذي تريدون أن تنحتوه ووفقا لأي مثل اعلى او اي مثال ؟ ماهي اسس ثقافتكم ومقوماتها؟ أهي روحانية أم عقلانية ؟ ايمانية ام علمانية ؟ قائمة على القيم المعنوية أم القيم المادية ؟ ماهو المصير الذي ترومون صنعه لمجتمعاتكم ماوظيفتكـم وما معناكم ؟...

وتتعدد الاسئلة وتختلف الفاظها ومعناها واحد .

ولا شك اننا قد خلقنا في الماضي ثقافة وحضارة عظيمتين اثرينا بهما تراث البشرية ونحتنا بهما نوعا من الانسان وانموذجا من الكيان الانساني

يمكن البشر اذا رام ذلك أن يرتفع الى درجة من الروحانية يشرف منهـا على الفتوحات الالهية وبستحق بها ماكرم الله به آدم حين جعله خليفتـه في الارض .

وتلك ـ في اشارة خاطفة ـ الناحية الروحية من الثقافة والحضارة التي صنعنا في ماضينا .

ولا شك اننا في عالم الآداب والفكر لم يكن لنـا في البداية الا تـراث شعري جاهلي ضيق الحدود والآفاق منه انطلقنا ولـم يزل الآلاف مـن ادبائنا ومفكرينا وشعرائنا يغنون تاريخنا وتاريخ الثقافة الانسـانيـة بآثار ادبية وآيات فنية لاتزال نباهي الامم ببلاغتها ورواء شعرها وأنغامأوزانها وخصب خيالها ، ولا يزال يعيش معنا العالم في احلام الالـف ليلة وليلة من لياليهـا .

وفي ميدان التنظيمات القانونية لحياة المجتمع السياسية والعلاقات المدنية والمعاملات الاقتصادية والاجتماعية بين الافراد والطبقـات ألـم يكن لنا طبقا بعد طبقات من الفقهاء الاجلة الذين تركوا لنا مذاهبومدارس في الحقوق وفلسفة القانون لاتزال موضع اعجاب صادق حتى عند علماء القانون الحديث ؟

وفي تاريخ العلوم ألم يكن منا ومنا وحدنا ائمة الفكر الانسـاني وأهل الفتوح العقلية والاكتشافات العلمية طيلة القـرون التي توسطت بـين الحضارات الانسانية القديمة وبين بوادر الحضارة الحديثة الغربيـة ؟ وفي تاريخ الفنون الجميلة والفن المعماري والتخطيط للمـدن والصناعات والنظم الاقتصادية ؟

وبعد فما فائدة التعداد وذلك كله معروف ثابت في سجل الزمانقائم المعالم والاثر في تاريخ الحضـارة الانسانية .

ولكن كل ذلك هو الماضي . . .

أما الآن فمن هو المتصوف كالحلاج أو ابن العربي أو جـلال الـدين الرومي ؟ ومن هو الفيلسـوف الديني كالغزالي أو ابن تيمية ؟ ومن هـو الاديب والمفكر كابن المقفـع والجـاحظ ؟ ومـن هو العـالم كابن الهيثم أو كالبيروني ، ومن هـو الطبيب كابن سينـا وابن الجـزار ؟ ومـن هـو الفليسـوف كابن رشـد وابـن سينـا ؟ ومـن هـو الجغـرافي كالادريسي ؟ ومن هو المؤرخ المكتشف لعلم جديد كابن خلدون ؟ من هـم امثال هؤلاء من يؤخذ عنهم اختصاصهم أو يستحقون ان يسجل العالـم اسمهم في سجل النشاط الثقافي العالمي اليوم ، كما سجل اسماء اولئك في تاريخ الفكر الانسـاني في القرون الوسطى ؟

وذلك مالا يزال يترقبه العالم المعاصر منا وفيـه تكمن عقـد المعضلات التي لاتزال الدنيا بها تجدد يوميا تحدينا في هويتنا اي في صميم كيانـنـا الحضاري وذاتيتنا الثقافية .

فنحن اذا اجبنا عن سؤال : من انتم ؟ وما انتم ؟ وما رسالتكم الـى الدنيا ؟ بترديد انشودة امجاد ماضينا ، او اجبنا عن سؤال : ماالمصير الذي ترومون ؟ وما مشروعكم للكيان المستقبل ؟ باننا منسـاقون مع العالم في مسـيرته العصرية آخذون معه بالعلوم الصحيحة والتكنولوجيا وجميع اعلاق الحضارة الالكترونية ، اذا بقي هذا موقفنا فمعنى ذلك اننا لانزال متشبثين بطريقتين كلتاهما خاطئة فاشلة احداهما طريقة الرجعـة الى الوراء والاتجاه الى الماضي الجامد اليابس وثانيتهما طريقة الاندماج في الغير والاكتسـاء بالمستعار من لباسه والتنفس بانفاسه والحياة عالة عليه كحياة طفيليات النبات وفي كلتا الحالتين تعطيل للكيـان الذاتي ومنع للحضرة في التاريخ .

ذلك اننا لانزال نردد الفاظ الاصالة والمعاصرة والتجديد ، فنجعـل الاصالة عودة الى الماضي وحفاظا على التراث واحتمالا لما تبقى من كتبـه واسفاره وتبركا بآثاره ، فكاننا نريد ان نجعل علامة اتصال الثقافة العربية بذاتها في امتدادها الى اعماق الماضي واحتفاظها بما تبقى من اشلائه فاذا

هي اشبه ماتكون ـ او تكاد ـ بمجموعة من التحف الاثرية او متحف من المتاحف وليس في هذا من الاصالة شيء لأن الاصالة التي تقرها سنة الوجود ويحتملها ويضمن بقاءها الامتداد التاريخي هي الوفاء في النوعية والطرافة والطاقة الخلاقة للذاتية القومية الثقافية التي تنتسب اليها وتروم السعي الى بعثها وتجديدها . الاصالة هي ان تقيم الدليل على انك قادر على اضافة حلقة جديدة قيّمة طريفة لسابق حلقات ثقافتك وحضارتك وعلى ان عبقريتك او عبقرية امتك لاتزال قادرة على انجاب غزالي حديث او ابن‌خلدون جديد يفتح فتحا علميا آخر او شعراء محدثين يستنبطون انغاما شعرية جديدة كالذين استنبطوا قبلهم الموشحات ولا يكتفون بنقل طريقة الشعر الحر عن الغير . . .

اما قضية المعاصرة وما نأخذ به انفسنا منها فميدان « متاه » يضل فيه الكثيرون . واود ان اتوقف عند جوانب هذه المشكلة بعض التوقف وان استنجد في تفهمها معكم بابن خلدوننا العظيم وبسليله الفكري المؤرخ الفيلسوف الانكليزي « ارنولد توين بي » .

فأما ابن خلدون فمن منكم لايذكر ذلك الفصل الذي عقده في مقدمته تحت عنوان « في ان المغلوب مولع ابدا بالاقتداء بالغالب » والذي يحلل فيه هذه الظاهرة البشرية ويعللها بقوله : « والسبب في ذلك ان النفس ابدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه ، اما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه او لما تغالط به (نفسها) من ان انقيادها ليس لغلب طبيعي انما هو لكمال الغالب . . أو ان غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس وانما هو بما انتحله من العوائد والمذاهب . . . فاذا غالطت بذلك (نفسها) واتصل لها حصل اعتقادا ، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به ، وذلك هو الاقتداء .

واما « توين بي » فانه قد اتخذ تركيا الكمالية مثالاً حيا لتحليل السبيل التي اتبعتها هذه الدولة سعيا وراء الانبعاث وتحقيق وسائل

نجاتها ومناعتها ازاء عالم غربي قوي بحضارته العصرية كان اذ ذاك مهددا لاستقلالها وكيانها .

وقد لخص « توين بي » السلوك الذي سلكته تركيا في ذلك بقوله : « ان ثورة تركيا الكمالية كانت ترمي في كلمة موجزة الى ان تجعل او ان تصنع في البلاد التركية نسخة او صورة مقلدة لامة غربية ودولة غربية بكيفية لاتدع المجال للتمييز بين الامة والدولة التركية وبين الامم والدول الغربية التي تجاورها .

ولا ارى في الحكم بصفة عادلة موضوعية على كلتا الطريقتين : طريقة الرجوع الى الماضي توهما للاصالة ، وطريقة التقليد للغير الاقوى حضارة توهما للمعاصرة ، لا ارى احسن من حكم « توين بي » حيث يكتب في كتبه « الحضارة في امتحان » : « ان الطريقتين اللتين يمكن ان يستعملهما في الدفاع عن نفسه مجتمع صدمته قوة أجنبية اي ضغط حضارة أجنبية اقوى منه ، تتلخصان في طريقة الذي يحاول ان يجد ملاذا وملجأ في الماضي كما تصنع الزرافة حين تدس راسها في التراب حتى لاترى الصياد اللاحق لها ، وطريقة الذي يجرؤ ويقدم فيتقبل ويتلبس بالدخيل الهاجم عليه .

وعيب الطريقتين واضح وحتمية فشلهما اوضح. فالاولى انلم تفض بصاحبها الى دفن كيانه في مقبرة الماضي فهي تتركه في حالة الاحفور Fossile او المستيقظ من رقدة اصحاب الكهف . اما الثانية فان مآل صاحبها ان يصير قرادا يحكي مسخا الحضارة الحية التي يروم الدخول اليها فتدفعه الى سطحها دفعا ويبقى ازاءها متلبسا بعجز التقليد الذي هو عقيم معقم قاتل لروح الاستنباط والخلق . الاقل : اي هول يكون الويل لقوم ، يقضي التاريخ بأن يكونوا ، اشباح اموات لماض ، او قرود مسخ حديث !

سيداتي سادتي ،

وبعد فلو لم يكن في معطيات واقعنا الحي الا هذه التحديات الغائصة جذورها الى اعماق مشاكل الاصالة والمعاصرة وطرق الانبعاث والتجديد

لكان الامر اهون ولكنه في الواقع اشد تعقيدا وخطورة .

لأن العالم المعاصر في نفس الوقت الذي يهجم فيه على مصير ثقافتنا بكل هذه المعضلات يتحدانا ايضا بالسرعة المدهشة التي اصبحت تدور بها عجلة التاريخ وحركة التطور من ناحية وباضطرار كل ثقافة وحضارة حية الى ان تتسع الى ابعاد العالمية الشاملة من ناحية ثانية .

ففي الحين الذي يكتب فيه « توين بي » في كتابه المذكور آنفا : « ان الحضارة الوحيدة التي اتسعت في اي عصر من التاريخ كله الى اقصى آفاق العالم هي مدنيتنا الحاضرة » ينشر مدير اليونسكو السابق « روني ما هو » كتابه المعنون بعنوان « الحضارة الكونية » . ذلك أن التصنيع والعلوم والتكنولوجيا وكل القوى التي تعمل في تكييف مصير المجتمع الانساني أصبح ينتشر مفعولها على قدر أوساع العالم ويمتد الى مجموع سكان المعمورة بلا استثناء . واي غرابة في ذلك في عالم اختصرت فيه المسافات او محتها سرعة الاتصالات والمواصلات وآلية الاخبار والاعلام ؛ بينأية رقعة من الكرة الارضية واية رقعة اخرى ؟

ومعنى ذلك انه سوف لايتاح من الآن فصاعدا لأية ثقافة او حضارة — الا ان تكون تكون معطلة عاطلة — ان تنحصر رؤية وفعلا في حدود الوطنية او الاقليمية الضيقة ولا تتسع الى آفاق العالمية الشاملة . وكل ذلكتحت ضغوط سرعة التطورات وتقلب الملابسات ومقتضيات حضارة التحولات الآنية وما سماه بعض علماء الاجتماع المعاصر في تحليله المجتمع الامريكي « بحضارة الزائل العابر » (Civilisation De L'éphémère)

فكيف يمكن مع هـذا نحت وترسيخ واثبات ملامح الثقافة والحضـارة الخاصة بنا العاكسة لعبقريتنا المتأرجة بطيب ارومتنـا في دون قطيعـة بل في انسجام وتآلف مع سرعة ونوعية مدنية عالمية زاخرة ؟

سـيداتي سادتي ؛

اليس من الواضح بعد هذا كله ان العالم المعاصر يتحـدى ثقافتنـا

بالاصالة والطرافة مع العالمية والشمول الانساني وبالسرعة في الابتكار والصنع للقيم ويهددنا بتقلص الظل او التبعية الدائمة ان لم نرتفع الى درجة الخلق ولم نتطور . وان التطور لكسب ونحت الكيان الانساني ولا كسب باق الا ان يكون افرازا من صميم الطاقة الوجودية التي هي منبع الكيان الذاتي للفرد او للجماعة . وان في هذا لخلاصة القول :

نحن مطالبون بعبقرية جديدة .

مطالبون بانبعاث حيوي على صعيد التاريخ ، بان ننشىء الحياة ، بان نخلق الانسان الجديد فينا ليقوم داعية ومثالا لبعث انسان جديد في العالم، مطالبون بان نجدد معجزة حضارتنا التي كان مبدؤها المعجزة المحمدية . . .

تلك هي في الختام ، سيداتي سادتي ، الابعاد القصوى لمسؤوليتنا اليوم امام التاريخ. واي شرف اسمى من ذلك واحري بعبقرية امتنا العربية الخالدة ، وبتوثبها المظفر نحو الاضطلاع بصنع مصيرها الافضل « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

★ ★ ★

ثقافتنا العربية

بين تشرين الذي كان
وتشرين الذي يكون

الدكتور شكري فيصل

مدخل :

قد يبدو هذا العنوان غريباً للوهلة الاولى ، فماذا تكون الصلة بين الثقافة وبين تشرين ؟ ــ اي شيء يربط بينهما إلا هذا الخيط الغائب الغائم الذي يربط مثله بين كثير من الاشياء المتباعدة ؟ .. الم يكن رمضان « تشرين » معركة بالحديد والنار على طرفي سيناء والجولان .. فما مكان الثقافة في ذلك ؟ .. وكيف نتحدث في ذكرى رمضان العبور ورمضان التحرير عن حركة الثقافة العربية ؟ .. اهو امر محمول على هذه الذكرى حملاً ، ام هو جزء منها وركيزة من ركائزها ؟

وليس الامر مستغلقاً ولا عسيراً على الفهم إذا نحن ذكرنا ان لرمضان جانبيه : هناك رمضان ــ الحدث ورمضان المعنى .. هناك رمضان ــ الواقعة ورمضان ــ الفكرة .

ولقد مضى رمضان المعركة .. إنه سجل انتصارات ضخمة .. ولكن تمجيدنا لهذه الانتصارات يجب ان يتوقف عند حدود لا نعدوها .. ان روح الفخر تبدو شديدة الوطأة في بعض المرات .. وذلك حين لا ينبع هذا الفخر من انتصار مطلق .. اي حين يكون خطوة اولى على الطريق .. انك تتقبل

هذا الفخر ، من نحو نفسي ، قبولاً أحلى حين يكـون الحـدث ّمتلوّاً بالحدث الذي يليه .. حين يكون الانتصار انتصاراً عريضاً .. أما حين يكون مطلاً على الانتصار العريض ، حين لايخرج عن أن يكون ثأراً للمعارك السوداء ، فإن روح الفخر فيه يجب ان لاتتجاوز حدود الاثارة إلى حدود القناعة ، ومرحلة الدفع إلى مرحلة الرضا .. يجب أن تكون في حدود ما يكون الملح في الطعام ، مساعداً على استساغته ، لا على عيافته .

ونحن الـذين ندّرس آثارنا الادبية وتركبنا روح شياطين السفر حين نقف عند بعض قصائد الفخر التي كانت معالم من معالم الخلـود ، نحس احيانا ، في خلال الدراسة ، ان نزعة الفخر هذه توشك ان تستبد بنا وبالطلاب من حولنا .. ولذلك لا نني ننبه على هذا الغرور أن يصيبنا ، ونضع النصّ في نطاق التغذية القومية في مكانه ، تسجيلاً وأثارة ودفعاً ، لا غرورا وقناعة وارتضاء .

ومن هنا أوثر أن يكون رمضان ــ المعنى هو موضع وقفتنا .. ولعله شعور هذا الجيل كله الذي يعرف أنه لا يزال يرزح تحت المأساة على اضواء الأمل التي تراقصت لعينيه في رمضان ٧٣ .. ومن هنا أحب ان يرافق ايماننا برمضان شيء كثير من الحذر .. ليس هو حذر الشك فيما مضى ، ولكنه حذر الخوف من أن لانتابع الطريق الى غاياته ، والخشية ان يكون ما نفعله أو نسير عليه ــ عنيت جملة الاقطار العربية ــ هو الطريق إلـى تحقيق ما يجب تحقيقه .

من هذه الرغبة عن رمضان الحدث ، وهذه الرغبة في رمضان ــ المعنى ، أجد ــ ويجد معي القارىء ــ ان الصلة بين الثقافة وبين رمضان هي هذه الصلة المشتبكة .. صلة متلاحمة تنعقد فيها الأواصر أشد ما تكون مـن معنى رمضان وبين استمرار هذا المعنى في الحركة الثقافية .

في البداية ، احبّ ان اقول إن عاملاً هاماً من العوامل التي شاركت في صنع رمضان انما كان عاملاً ثقافياً .

ذلك ان روح رمضان انما تتركز في ان قوى عربية كانت تسير (او كانت تسير) على محاور مختلفة يندر ان تتلاقى .. إنها تبدو للناظر وكأنها تسير في فلك واحد .. ولكن الحق انها كانت متوجهة (او كان مطلوباً منها ان تتوجه) لكي لا تتلاقى .. فاذا تلاقت فانما هو المس الخفيف الذي يثير من الخوف اكثر مما يثير من المحبة وشوق اللقاء .

هذه القوى العربية كان لابد لها ان تفهم فهم يقين وفهم ايمان أن هذا السير عبث ضائع .. وان دورانها لا يحقق شيئاً .. لايحقق لها ولا لاخواتها حركة مستسقة في سبيل هدف معين . وانما هي هذه الحركة العابثة التي لايمكن قط ان تمد تقدما .. وانما هي ــ في حساب الزمن السائر ، وفي طريق المقارنة مع الانسانية المتفتحة ــ تقهقر مستمر .

روح رمضان تتركز في أن هذه القوى التقت على مسار واحد، وحققت في هذا الالتقاء محصلة من القوى دفعت بها خطى فساحاً نحو اهدافها .

ولم يكن ذلك ــ في اصوله الاولى وجذوره التي نبت منها ــ عملاً من عمل السياسة ولا من عمل القواد فحسب .. عبقرية الساسة انهم مهدوا للحدث ، وعبقرية القادة انهم حققوه .. ولكن لابد لعبقرية الثقافة من ان تحقق المعنى .. والثقافة المشتركة هي التي فرضت هذا المعنى ؛ وهي التي دعت اليه ، وهي مكنت له في الضمائر .

● ● ●

هذه الثقافة المشتركة هي التي خلقت الضمير الموحد .. والضمير الموحد هو الذي الف بين جناحي الوطن العربي ، وهو الذي حفظ على النبض في وادي النيل ان يكون هذا النبض العربي المتساوق مع نبض الاقطار الاخرى .. عواصمها وقراها وبواديها وجماهير الناس فيها .

واحسبني في غنى عن ان ادل على عناصر هذا الضمير المشترك ، هذه الثقافة الموحدة .. في غنى عن ان اتحدث عن كل حرف في هذه الثقافة ،

في لغتها .. عن كل آية وعن كل حديث وعن كل قصيدة : وعن كل لفظة في معجم ، وكل كلمة في قصيدة شاعر وخطبة قائد .. عن كل مسلك تفكير ، ومنهج بحث ، ونتاج حضارة ..

ان الذين يمارسون عملية التربية يدركون ماذا كان من أثر هذه الثقافة المشتركة .. انهم لا يدركون عملها فحسب . ولكنهم يدركون كذلك صمودها . ولقد بت بعد الذي مارست وعرفت ، في غيابي عن وطني الصغير وفي حضوري في الوطن الاكبر .. بت حين أقف على أطلال مدرسة قديمة انحني الثم كل حجر منها ، وامرغ جبهتي سجوداً على كل تربة منها .. لأني اصبحت أدرك ، بوضوح ، انه لم يكن هنالك شيء استطاع أن يقاوم كل ضروب الغزو والطغيان ، كما استطاعت هذه الثقافة المشتركة وهذا الضمير الموحد .. وان الذي سلط على التاريخ العربي ، منذ بداياته الأولى ، من التهجين والتزييف ، ثم من الشرك الخفي ، ثم من الغزو الخارجي ، ثم من الحرب المتصلة : حرب اللسان وحرب السنان وحرب التشكيك .. الذي سلط على التاريخ العربي من ذلك كله ، على مدى هذه القرون المتطاولة ، لو سلط بعضه ، أقله ، على أيّ من شعوب الأرض ، لتركه حديث السامرين ..

وانك لتنظر في هذا الصمود الذي لايضارعه صمود في التاريخ ــ أقول ذلك بمعزل عن كل مشاعر الفخر ، وفي حرص على تجاوز كلّ حماس ــ فلا تجد وراءه إلا هذه الاصالة التي حفظتها علينا معاهدنا وكتبنا ومساجدنا ومؤسساتنا الثقافية .. منطلقة كلها من ايماننا بالرسالة الخالدة .

هذه الثقافة ، هذا الضمير .. حجر الاساس في الذي كان .. وأريد أن أقول الآن وفيما استأنف من حديث انها حجر الأساس في الذي يكون . وإن كل تمهّل في إعطاء هذا الحجر مكانه من البناء انما هو تأخير في تنامي هذا البناء وتعويق له وهدّ من مقاومته .

دعوني من الماضي .. بعض الناس لايستطيع ان ينظر إلى بعيد ، او الى البعيد .. وبعضهم لا يريد أن ينظر إليه .. حسناً .. لنبق في حدود

هذه السنوات او العقود الأخيرة .. ماذا كان يكون الحال لولا الثقافة المشتركة ، ولولا الجامعات المتماثلة .. لولا الأصالة التي كانت وراء كل صوت .. في المدارس والكتاتيب والثانويات والمعاهد والجامعات .. لولا صوت الحياة المشتركة .. ماذا كان يكون الحال لولاصيحات المصلحين من (ابن تيمية) إلى (محمد عبده) و (رشيد رضا) ؟ ماذا كان يكون الامر لولا العمل الثقافي العميق الذي حققه (ساطع الحصري) ومؤتمرات الثقافة التي كان وراء عقدها لتحقيق الحدود الدنيا من البرامج المشتركة التي نسفتها بعد ذلك السياسات التعليمية المتنابذة في بعض الأقطار ؟

بل ماذا كانت تكون ثورة الجزائر لولا الاصالة التي اعتصمت بها .. ماذا كان يكون شأن الظهير البربري . وماذا كانت تكون محاولات التذويب والابتلاع المادي والمعنوي ؟

في كل ذلك لم يكن وراء الانتصار إلا هذه الثقافة المشتركة وهذا الضمير الموحد .. وتلك هي العناصر الخصبة التي صنعت رمضان .. ورمضان انما هو رمز من رموزها .

● ● ●

هذه الثقافة الأصيلة ماذا كان يمكن ان يكون من شأنها بعد رمضان ؟.. كيف كان يجب أن ينظر إليها على طريق المتابعة ؟ وماذا كانت حظوظها من العناية ؟

لو كان الذين عادوا بعد رمضان يفكرون في استئناف الطريق ويدركون العوامل البعيدة التي لاتتخلف والتي لاتتفتت والتي لا تنقضي بانقضاء الظروف التي تعمل فيها .. لو كان هؤلاء نظروا إلى قضايا الثقافة المشتركة نظرتهم إلى الأمور الأخرى لكان من المؤكد أن مسيرتهم ستستطيع أن تفوّت الطريق على كل عوامل الضعف الداخلي أو عوامل التضعيف الخارجي .. ولكان من المحقق أن تجديد المنطلق من هذه الثقافة تأكيد على استشراف آفاق أخرى جديدة ، أياً كانت العوائق والعقبات .

ولكن ما الذي حدث بالضبط ؟ . .

كلّ الذي حدث كان على النقيض . . على النقيض تماما . . وكأن النقائض عندنا ، إنما توجد لتعوق الحركة . . لا لتكون طريقا للقفز فوقها.

الذي حدث خلال هذه السنوات أننا لم نستطع ان نسجّل ايّ تقدم على طريق لقاء هذه الجماهير العريضة . حسبنا أن الجماهير العريضة تتكوّن من خلال الصيغ ، وأوشكنا ان نؤمن بذلك ، ومضينا نركزعليه . . غير ان الجماهير العريضة العاملة ، الكاسبة لقضيتها لا المكتسبة بها ، لا تتكوّن على هذه القواعد الضيقة . . لابدّ لها من قواعد عريقة ، اصيلة ، راسخة ، ذاهبة في الأبعاد ، ترتكز اليها هذه الجماهير . . اولنقل : تتكون بها وتتكوّن معها .

ولهذا فليس غريباً اننا ، خلال هذه السنوات ، لم نشهد مؤتمراً من المؤتمرات التي تسمل في خطوط الاساس . . . وانما شهدنا مؤتمرات من مؤتمرات السطح التي تريد ان تنفذ إلى أفئدةالناس ولكنها لاتنبع منها . . وإذا استثنينا مؤتمر التعريب للجزائر في أواخر (٧٣) ــ وهو ثمرةجهود سابقة تطاولت عشر سنوات على الأقل ــ وهو المؤتمر الذي اقر ستة معاجم علمية للتعليم الثانوي لمواد الحيوان والنبات والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والرياضيات . . اذا استثنينا هذا المؤتمر فاننا لا نكاد نجد اي عمل ثقافي اصيل على المدى العربي المشترك يكون استمراراً لرمضان وتجديداً له وسيراً تحت راياته (١) .

---

(١) على ان هذا لايحول دون ان نقول ان هذا المؤتمر ، وهو ابرز ظاهرة صحية في نطاق الاصالة والثقافة المشتركة ، لم يستطع ان يضع مقرراته موضع التنفيذ . . معاجمه الستة التي اقرها لم تطبع حتى اليوم . . وقد مر على انتهاء المؤتمر نحو من ثلاث سنوات ولاتزال المذاكرات تدور حول طباعته : متى ؟ واين ؟ وإبان ؟ وكيف . . ولولا ان نفراً من ذوي الغيرة بينهم بعض وزرائنا في القطر السوري يتابعون الامر بكل قواهم لمات الامل . . وليتصور القارىء كيف يحدث هذا في وطن يردد على الصحف والجدران وفي هتافات الصباح والمساء انه وطن واحد . . ولكن هذا الوطن ليس فيه كتاب واحد مشترك . . ويسالونك بعد ذلك لماذا . . لماذا ؟ . .

ماذا ؟ .. هل هي غلبة « الفكر المادي » ؟. أبداً .. ليس هنالك شيء تضمه هذه الصيغة التي زرعت في عقول اجيالنا ... ليس هنالك هذا التناقض الذي اكرهونا عليه اكراها .. اوقعونا في هاتين النقيضتين على انهما نقيضتان ، واستنزفوا جهدنا في محاولة الانتصار لهذه او تلك ؛ وفي التخاصم مع اولئك وهؤلاء .. ولم يكن الأمر في الواقع إلا ليوا من اللهو الجادّ ــ اذ صح هذا التعبير ــ أو عبثا من العبث الذي يصطنع المذاهب اصطناعاً . إن ظروفاً معينة املت فكراً معينا على شعب معين او خلقت فلسفة معينة .. ومن المؤكد أن اصحاب هذه الفلسفة لم يستوعبوا تجارب الشعوب كلها ولا أفكارها كلها ولا ممارساتها الحضارية .

وايّاً كان الأمر فإن تشتيت خمسين سنة في هذا التيه الفكري كان كافيا ليؤكد انه ما من خصومة حقيقية بين العناصر المادية والعناصر الروحية .. والثقافة القادرة هي الثقافة التي تستطيع ان تجمع بينهما في سهم واحد ، تطلقه وتنطلق به .

وإذن فما الذي يصرفنا عن الدعوة لأصالتنا والعمل لها .. ما الذي يحول بين ان نفهم رمضان على هذا النحو ، وان يفهم أن رمضان جديداً لا سبيل اليه إلا من هذا النحو ؟

لست ادري من هو الذي يصرفنا عن ذلك ..

وانا أوثر ان اتجاوز هذا الأمر الآن .. لاتابع ملاحظة ما كان من ملامح رمضان الذي مضى ؛ ورمضان الذي يكون .

إني لا ادّعي ان الذي ساقوله هو رصدٌ دقيق.. إنه ملاحظات سريعة ارجو أن يتعاون المفكرون والمثقفون على متابعتها .

وفي ذهني الآن ، مما يتسع له هذا المقال ، هذه الظواهر التالية :

أولا ــ غياب ما كان يسمى بالادارة الثقافية في جامعة الدول العربية عن العمل الثقافي المشترك .

في تاريخ الحركة الثقافية العربية لا يمكن ان يهمل ما كان من أثر الادارة الثقافيــة .. مــا كــان من عملهــا في مؤتمراتهــا ... ما كــان من برامجها المشتركة التي عملت لها بين الاقطار العربية المختلفة .. مـا استطاعت ان تجمع عليه هذه الاقطار في المادة والكتاب والمنهج .. وفي المواد التي تؤلف الضمير المشترك : العربية والتاريخ والجغرافية والمعلومـات الوطنيـة .

فلماذا ماتت الإدارة الثقافية ؟ .. هل هنالك من يستطيع أن يسأل من الذي أطلق عليها رصاصات الرحمة !

وحين جاءت مكانها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ما هي الساحات التي مضت اليها هذه المنظمة ، هل هي الساحات التي تلبي حاجات السطح أم هي الأحجار التي ينهض عليها البناء ؟

ودعونا من المنظمة لأنها لن تكون على خير حالاتها وعلى شدة معاناة المخلصين من العاملين فيها ــ إلا محصلة لاتجاهات الدول العربية أو مندوبيها .. ولو وضعت المنظمة علم العلماء كلهم ؛ وتنظير المنظرين كلهم ، وعقول العقلاء جميعاً ، ثم رفضت الدول العربية ذلك لما استطاع احد في داخل المنظمة (وفي خارجها ايضاً) ان يقول لماذا ؟

فمن الذي خرج من نطاق القرارات الثقافية المشتركة ؟ من الذي حطم هذه الجسور ؟ كيف جاءت هذه الهرطقة التي تنتهي (أو ستنتهي) إلى الكفر بكل القيم المشتركة ؟ . وإذا كنـا نموت وفي نفوسنا شيء مـن القرارات السياسية التي لا تنفذ ، فكيف لا نموت ــ قبل أن يدركنـا الموت ــ من القرارات الثقافية التي تهدر ؟

● ● ●

ثانياً ــ ظهور النزعات الاقليمية في مختلف الاقطار العربية :

لو أراد إنسان أن يعرف أبرز الكلمات التي ظهرت على وجه الثقافة

العربية وهي تحمل أخطر المضامين ، لما ترددت ان اقول له إنها هذه الكلمات: في لبنان : اللبننة .. في ليبيا : التلييب (احب ان احترس في ذلك في فترة ما بعد الفاتح من سبتمبر « ايلول ») ؛ في الجزائر : الجزارة (واحب كذلك أن احترس في مفهوم هذا اللفظ في عقول النخبة من الجزائريين اذ انها تعنى العودة عن كل مخلفات الاستعمار الى الاصالة) ؛ وفي تونس : التونسة ؛ وفي المغرب : المغربة .. ونستطيع ان نمضي دون كبير حذر في هذه السلسلة ؛ لأني لا أعرف الصيغ التي تقال في الاقطار العربية الأخرى .

من المؤكد أن « المتسامحين ، الذين يصفون انفسهم بأنهم : المتفتحون » سيقولون : تلك كلمات لا تحمل وراءها مفاهيم خطرة .. إنهم سينطلقون من الاحتراس الذي ابديته .. ومع ذلك فاجدني أذهب الى ابعد الحدود في إنكار أن توضع هذه التعابير على هذا النحو . وضعها هذا ، من البداية ، يبدو سلاحا ذا حدين .. انني افهم التلييب مثلا على انه التعفية على كل آثار الاستعمار .. ولذلك يعمل العاملون .. ولكن من الذي يضمن لي أن يظل الاستعمال سليما على هذا النحو .. ؟

وفي الواقع ، الا ينساء استعمال هذه المصطلحات اليوم عمداً ؟ .. الا يستخدم التاريخ ، والآثار ، والمأثورات الشعبية « الفولكلور » ، واللهجات ، والحفريات ، وأساليب دغدغة الشعور المحلي ، في سبيل تأصيل المفاهيم المضادة لهذه الالفاظ ... المفاهيم التي تضاد — لاشك في ذلك — المسيرة العربية المشتركة ؟

● ● ●

ثالثا — تأريخ مستقل لكل من هذه الاقطار العربية :

لماذا يبدو هذا الحرص الشديد — في مؤسسات كثيرة ، تنتشر في طول البلاد العربية وعرضها — على كتابة تأريخ مستقل لكل بلد بذاته ؟

البدء المنكر الذي يتستر خلف المنهج والنظرية هو قولهم : إن سكان كل منطقة أقدر على كتابة تاريخها .

كأن هذا التاريخ اجزاء منفصمة ، وكأن كل جزء منه ملك لمنطقة بعينها .. ومتى كان ذلك . ؟

وفي تجاربنا الثقافية خلال اربعة عشر قرنا على امتداد حركة التأليف، هل ألف العراقيون في تاريخ العراق ، والشاميون في تاريخ الشام ؟ .. أم كان العالم — أياً كان — يؤلف في هذه الخطوط المشتركة .. وحقه في ذلك حق اي عالم آخر .. لايتفاضلان بانتسابهما إلى هذا القطر او ذاك، وانما يتفاضلان بما يكون من علمهما ؟

وفي تجارب الشعوب الاخرى : الم يكن أبرز الذين تحدثوا عن الثورة الفرنسية من غير الفرنسيين ؟ .. وعن بعض اعلام التاريخ ناس من شعوب اخرى ؟

ومن الخطير أن الأمر بدا بالكتاب المدرسي .. ثم مضى يغزو كل كتاب آخر : الكتب الجامعية والكتب العامة .

وسامح الله الأخ الجار : لبنان ، ولا عفا عن الذين بدؤوا ذلك من اخوتنا اللبنانيين .. فقدأوشك الحبل أن يلف عنق الاوطان العربية كلها .. ولنتصور كيف يستطيع قطر من أقطار الشمال العربي الافريقي ان يكتب تاريخه وحده .. وما أحلى أن ينتهي الأمر الى ذلك .. وهل هنالك ما يمنع من هذه النهاية الأليمة (إذا استمر هذا التخالف) الى أن نكتب في سورية تاريخنا وحده . وان يكتب العراقيون تاريخهم وحده .. ومن يدري فقد يكتب الاردنيون غداً كذلك تاريخهم وحدهم .. ثم ماذا بعد .. للقارىء أن يتابع السلسلة حتى أصغر حلقاتها دون ان ينسى انها حلقات قابلة للتفتت دائماً وتوليد حلقات صغيرة لا متناهية .

● ● ●

خامساً — الموقف من اللغة العربية :

ولكني لا اريد ان امضي .. إن ذلك حديث آخر .

إني لا اقصد ـ كما قلت ـ الى الاستقصاء .. وانما اقصد هنا ـ وأنا احيا نفحات رمضان الجولان ورمضان السويس ـ إلى أن أحذر من أن يكون العمل نحو رمضان آخر ـ أياً كان السبيل الى ذلك ـ غافلاً عن الاصول الأولى .. متجاوزاً ـ بحكم الظروف الملحة او الطارئة ـ عن الثقافة المشتركة .. مهملا لهذه الأصالة التي منها نبعتنا ، وإليها قبلتنا ، وعليها تقوم عناصر وجودنا المتصل ، اذا اردنا هذا الوجود متصلا .

إن رمضان ـ على دروبنا الطويلة ـ سيضحي كما قلت ، معنى ورمزاً .. رمزاً يجسد الإرادة المشتركة .

وقد خلق هذه الارادة المشتركة ثقافة مشتركة ، بكل ما تقود اليه الثقافة على الصعيد المادي والصعيد المعنوي .

ولن يخلق إرادة مشتركة إلا استمرار الثقافة المشتركة .

ومن المؤسف أن كل شيء خلال هذه السنوات الأخيرة يمضي في غير طريق الغاية .. إنه يمضي في طرق أخشى أن تكون خانقة .

إن الكثرة الكاثرة من عوامل اللقاء المشترك تستحيل الآن ، على نحو او آخر ، إلى بذور تباعد مشترك ـ إن صح هذا التعبير ـ ، توشك أن تنشقق عنها الأرض .

واجدني في خاتمة الحديث ، أناشد مثقفينا في كل أقطار العربية دراسة هذه الظواهر والظواهر المماثلة التي سكتُّ عنها .

وحين تكون السياسة أحيانا في أيد معينة ، فإن ذلك لايعني أن يظن المثقفون انهم في معزل .. إنه تظل لهم ـ حتى لمصلحة السياسيين ـ ان يقولوا كلمتهم في قضاياهم .

أما الصمت فهو نوع من الكفران برمضان .
وذلك لا يتلاقى بحال مع تمجيده .

مستقبل

فلسطين / إسرائيل

إسرائيل محطة مرحلية على طريق هجرة اليهود إلى الغرب

الدكتور جمال حمدان

من حق الفكر السياسي الذي تؤرقه قضية المصير ومصير القضية، بل من واجبه، أن ينتزع نفسه بين الحين والحين من دوامة الأحداث الجارية بتفاصيلها وجزئياتها اللامتناهية، يرفع ببصره عنها ليرنوا بعيدا الى أفق المستقبل غير المرئي مهما نأى ومهما بدا ضبابيا أو سديميا باهتا. ليس ذلك فقط لكي لايضيع تحت ثقل ووقر اللحظة الراهنة وفي زحمة الساحة المباشرة بكل ملابساتها وضغوطها التكتيكية، ولا كذلك لكي لاتختلط عليه الرؤية وتضيع منه «الغابة في الأشجار» والبصيرة في البصر والكليات في الجزئيات والاستراتيجية في التكتيك، ولكن ايضا لكي يصحح مسار الطريق نفسه وانكسار الرؤية «وحيود» الحركة المرحلية ذاتها.

الامر اذن ليس ترفا فكريا أو عقليا، بل هو ضرورة نضالية لازمة لحسن ادارة الصراع وتوجيه بوصلته. ومن الواضح اليوم تماما اننا ما زلنا نفتقر الى استراتيجية عظمى للصراع لاتغطي المستقبل المنظور فحسب وإنما كذلك غير المنظور حتى نقطة النهاية بل والى ما لا نهاية. وما نظن النظرة المستقبلية هذه كانت أشد إلزاما وأشد الحاحا مما هي اليوم، حيث

يقف الوطن العربي، لأول مرةمنذ ربع قرن فيما يبدو، على مفترق طرق، ولا نقول كما يقول البعض على منزلق طرق ، مفعم كما هو ملبد ، قد يحدد مصير الصراع ويغلق ملف القضية نهائيا .

فالمحاولات الدولية الجارية الآن من اجل ايجاد تسوية سياسية تحقق حلا سلميا نهائيا ودائما لأزمة الشرق الاوسط تطرح احتمالات (واخطارا ايضا) لم تكن واردة قط من قبل ، من قبل اكتوبر على وجـه التحديد . بل لقد بـدا بعض المثقفين العـرب ينظرون بالفعل « لدور » اسرائيل في مستقبل المنطقة كجزء لايتجزأ منها (كذا) ، وذلك باسم شجاعـة الرأي وواقعية الفكر (كذا) .

واذا كانت شروط اتفاقية السلام العربيةمعروفة ومحددة (ولونسـبيا او نظريا على الأقل) وهي الانسحاب الاسرائيلي الشامل من جميع الأراضي العربية المحتلة في يونيو واستعادة حقوق الشعب الفلسطيني بما في ذلك حقه في اقامة سلطته الوطنية في الدولة الفلسطينية المستقلة ، فانما ليس معروفا ومحددا بالضبط هو الشروط الاسرائيلية والثمن الذي سيتقاضاه العدو . هناك حديث عن أنهاء حالة الحرب ، وحديث آخـر أشد ابهامـا وايلاما عن القبول بالوجود الإسرائيلي وعن الاعتراف الواقعي De Facto (تميزا له عن الاعتراف القانوني De jure) على اساس ان ذلك هـو اقصى مايستطيع الجيل الحالي ان يصل اليه وقصارى دوره على ان يترك مستقبل الصراع لتقرره الأجيال القادمة بحسب سلوك الطرف الآخر . . . الـــخ .

وهنا تثور أسئلة اكثر من خطيرة ، بل فائقة الخطر والخطورة : من سيعترف بمن ؟ ولمصلحة وحساب من ؟ ولماذا الاعتراف على الاطلاق ؟ ثم مـن مـن العرب سيعترف : دول المواجهة وحدهـا أم دول المواجهـة والفلسطينيون؟ وعلى اساس اي حدود : خطوط٤ يونيو ١٩٦٧ ام خطوط تقسيم الامم المتحدة ١٩٤٧ ؟ ان كانت الاولى ، افلا يعني هذا أن التسـوية النهائية برمتها لاتعدو ان تكون ازالة لآثار عدوان ١٩٦٧ وانها في مقابـل

تنازل مصيري أبدي لاتعدو مجرد العودة الى اوضاع ما قبل ١٩٦٧ حين كانت الضفة الغربية وغزة والقدس في أيدي العرب وكان يمكنهم ـ نظريا ـ أن يقيموا فيها دولة فلسطينية مستقلة ؟ وان تكن الثانية ، فانها قد تقلص جسم العدو بدرجة معقولة ولكنها لاتحرمه من النقب ، الأمر الذي يظل يبقي على الوجود الاسرائيلي كاسفين مدفون في جسم العرب يفصل بين المشرق والمغرب ويحبط الى الأبد وحدة العمل العربي العسكري أمام الأجيال المقبلة .

ثم هناك السؤال الفاصل : لحساب من سيعترف الفلسطينيون بالذات : لحساب الدول الفلسطينية الاقليمية ام الدولة الديموقراطية العلمانية على كامل التراث الفلسطيني؟ اي قيمة للدولة الفلسطينية المستقلة اذا كان ثمنها الاعتراف الابدي بالوجود الاسرائيلي ؟ وهل ثمة على الاطلاق بعد ذلك شيء يمكن ان يقال له الدولة العلمانية الديموقراطية على كامل التراب والوطن ؟ وبعبارة أخرى ، ماذا يتبقى من القضية ومن فلسطين ومن أمل العودة بعد الاعتراف ؟ وماذا يتبقى للأجيال القادمة من الصراع المفترض واستكمال التحرير المقول ؟ وكيف تستقيم كل هذه المتناقضات المتقاطعة والمتعامدة والمتبادلة ؟

الموقف الراهن

ولسنا نعتزم هنا ان نتصدى للإجابة على هذه الأسئلة الشائكة والفائقة الحساسية . فقط نود أن نسجل اننا نشك كل الشك في امكانية تحقيق مثل هذه التسوية ، بل نكاد نقطع باستحالتها . لماذا ؟ ـ ليس فقط لأن لعبة السلام الإسرائيلي لعبة مخادعة وكاذبة تحت الجلد وحتى النخاع ، ولكن أيضا لأن السلام العربي والسلام الإسرائيلي نقيضان مطلقان يستحيل أن يجتمعا مهما امتد بنا الخيال أو جمح ، وكلا الوجودين المتضادين نفي للآخر . وقد عبر الجنرال هاركابي عن هذا تعبيرا مكشوفا ولكنه كاشف جدا فقال « ان التسليم بأن القومية العربية ستكيف نفسها مع بقاء إسرائيل يمكن مقارنته بتسليم الصهيونية بالتخلي عن دولة إسرائيل » !

هل من المتصور مثلا أن يقبل الوجود الإسرائيلي ، فضلا عن تقليص

حجمه ، بفرض حدود دائمة عليه تضع الى الأبد حدا لاحلامــه التوسعية من النيل الى الفرات ؟ وهل لغير هذه الأهداف البعيدة عاشت إسرائيل عن عمد وبإصرار دولة بلا حدود ؟ والقدس ؟ ــ التي تري العــدو معنى لإسرائيل الصغرى بدون إسرائيل الكبرى . ومشروعــات تهجير وحشــد ملايين اليهودية العالمية في«ارض الآباء والاجداد، ارض إسرائيل Erets Israel » ، هل يتصور ان يتخلى عنها في الوقت الذي طالب العــرب بايقاف الهجرة الصهيونية الى اسرائيــل لمدة ٥٠ سنــة على الأقــل ؟ ايعقل ان تقبل اسرائيل بوجود مقلم مبتور كجيب هزيل محصور بينمــا المشروع الاسرائيلي اصلا واساسا يفكــر بعقلية الدولــة الاولى الســائدة والمسيطرة في المنطقة وبأن يكون الدولة العظمى إقليميــا ، سوبر بــاور) المعترف بها في الشرق الأوسط ؟

ان العدو لم يتخل عن اوهام ما قبل اكتوبر كما يتضح من كل اقواله وافعاله ، وهو مازال حتى هذه اللحظة يعلن انه لن يعود الى خطوط ماقبل ١٩٦٧ في اي تسوية سلمية قد يتم التوصل اليها ، والئن بدا العدو اليوم مشاركا في محادثات سلام دائم في المنطقة ، فما ذاك الا تكتيك لكسب الوقت والحليف والرأي العام العالمي ، ولكنه وهو يلعب هذه اللعبة الخطرة المحسوبة بدقة يقيم عامداً كل العراقيل ويتفنن في مناورات التسويف ويضع الشروط التعجيزية الكفيلة بأن تحبط كل امكانية للاتفاق .

ومجرد الاشارة الى تجربة مشروع الفصل الثاني بين القوات في سيناء هو مؤشر كاف الى مصير مؤتمر جنيف ، كما أن هذا بدوره مؤشر حاسم نحو مستقبل محاولات السلام برمتها . فالواضح والحاصل ان العدو لا يريد السلام الآن لأنه يعتبر الظروف السياسية الراهنة في غير صالحه : ولهذا يسعى الى تغييرها بكل وسيلة حتى يفرض سلامه هو ، ان كان لامفر ولا بد يوما من الســلام . وباختصــار فانه لايريد الا الســلام الإسرائيلي ، ولكن لأن هذا مســتحيل حاليا فانه لا يريد السلام اطلاقــا ويرفــض الســـلام جميعا .

غير ان من الواضح أيضا على الجانب العربي، ان حقائق القوة الجديدة التي خلقتها حرب أكتوبر وما بعدها لاتقدم هي الأخرى الظروف السياسية المثلى لصالح القضية والسلام العربيين . ولهذا تبدو التسوية السلمية وأمل العرب فيهما سابقين لأوانهما ، وأن عليهم أن ينتظروا حتى يوفروا ظروفا انسب وحقائق اقدر على فرض السلام العادل حقا .

والواقع ان هناك شعورا عاما بأن « السلام العادل الدائم » متناقضة لفظية ان لم يكن مغالطة منطقية ، لأن السلام العادل لايمكن في ظل استعمار استيطاني ان يكون دائما ، بينما ان السلام الدائم لايمكن ان يكون عادلا . ذلك ان الاختيار المطروح الآن عربيا بين الدولة الفلسطينية المستقلة الجزئية وبين الدولة العلمانية الديموقراطية على كامل التراب يمثل معادلة مستحيلة وليس مجرد معادلة صعبة . فالأولى مستحيلة عربيا اذا كان ثمنها الاعتراف باسرائيل، وهو الشرط الذي يجمع عليه العالم كله أعداء وأصدقاء، أما الثانية فمستحيلة إسرائيليا لأنهم ببساطة يعتبرونها نهاية للدولة اليهودية الخالصة . الأولى، يعني ، تصفية لقضية فلسطين ، والثانية تصفية لاسرائيل . الأولى مقتل عربيا وخرافة إسرائيليا ، والثانية خرافة عربيا ومقتل إسرائيليا . باختصار مطلق ، الأولى انتحار للعرب ، والثانية انتحار لإسرائيل . أي أن الاختيار المطروح هو بين الانتحار والانتحار لأحد الطرفين أو كليهما ، اذا استعرنا واحدة من قاموس مفردات بيجين الأثيرة . . .

والواقع ، استطرادا من هذا التشبيه الأخير ، ان البعض يصور الدعوة الى التسوية السلمية للصراع كله ، اي دعوة الحل السياسي، على انها دعوة متبادلة من كلا الغريمين المتناحرين للآخر بأن يتطوع بأن ينتحر مادام كلاهما قد عجز عن قتل الآخر ، وبذلك يتم الحل « السعيد » للمشكلة التعسة التي لاحل لها : ولكن لما كان احد من الطرفين غير مستعد لهذا التبرع المروع السفيه ، فلم يعد مفر من أن يأخذ الصراع بينهما مداه الطبيعي وطبيعته المنطقية ومنطقة الحتمي وهو العودة الى القتال والاحتكام الى السلاح الى أن يبقى من ينتصر ـ « والرجل الأفضل ينتصر » و« البقاء للأصلح » . .

الخ . اي ان النظرة الواقعية لحقائق الصراع ستفرض نفسها على كل افكار التمني ومحاولات الهروب أو الخداع ...

اما اللعبة السياسية التي تدور حاليا ، والتي تأخذ أمريكا فيها دور الوسيط الأساسي ان لم نقل الشريك الأكبر ، فهي ـ استكمالا للمنطق ـ ليست بديلا عن الطبيعة المسلحة للصراع وانما مجرد غطاء وكاموفلاج أو مسكن مؤقت ريثما تلتقط الأنفاس ـ والأسلحة ايضا . بل يذهب بعض المراقبين الى حد تشبيه هذه اللعبة التي تمارسها الأطراف الثلاثة « بلعبة الورقات الثلاث » ، كل طرف فيها (ربما باستثناء الطرف العربي حسن النية) يحاول بمزيج من الدبلوماسية والضغط ان يخدع الطرفين الآخرين لتحقيق كل اهدافه دون ان يخسر هو او يتنازل . هذا دون ان نذكر احتمالات التواطؤ في اللعب (اقرأ: في الغش) بين طرفين من الثلاثية. لذا يرى الكثيرون ان اللعبة السياسية قد تكون اخطر من لعبة الحرب ذاتها دون أن تكون في النهاية بديلا عنها او حاجبا لها . وفي رأي آخر ، فعلى احسن الفروض فان هذه اللعبة السياسية قد لا تكون الا قطعة ضخمة من خطة الخداع الاستراتيجي للحرب القادمة يمارسها الجميع على انفراد وعلى السواء ...

لهذا كله يبدو للمفكرين الواقعيين ، بالنسبة لمجمل الصراع العربي ـ الاسرائيلي من بدايته الى نهايته ، أن الحل السياسي لا العسكري هو المستحيل الوحيد . (حتى كيسينجر لا يؤمن به: « ان اقصى طموحي » ، اعترف هو في العام الماضي « ان انجح في اعادة ازمة الشرق الاوسط» الى حجمها المحلي ، بعد أن تضخمت واخذت ابعادا اقليمية وعالمية . ولست اعتقد ان هناك حلا نهائيا .) اما الممكن الوحيد فهو ، على عكس النظرة السطحية الساذجة والشائعة، الحل العسكري. واذا كان الحل العسكري المطلق والشامل يبدو بالفعل مستحيلا في اي لحظة زمنية معطاة، فحقيقة الأمر ببساطة ان المقصود ، كما هو المطلوب، هو الحل العسكري المجزأ على جرعات ودفعات، اي بالقطاعي لا بالجملة. واذا كانت الحلول السياسية «الجزئية»

مرفوضة جملة وتفصيلا ، فان الحلول العسكرية « الجزئية » هي المفتوحة والمطلوبة . بل هي الحادث فعلا ، وأول امثلتها انما هـي بالدقة معركـة أكتوبر المنتصرة .

وبعبارة اخرى ، فاذا كانت سياسة « الخطوة خطوة » قـد فشلت سياسيا (كيسينجر) ، فانها قد نجحت عسكريا (أكتوبر) ، ولا بديل عن تكرارها وتطويرها وتصعيدها اذاأريداي تحريك للأزمة او منع تجميدها . اي اننا بالفعل نمارس الحل العسكري خطوة خطوة ، وعلينا ان نستأنف المسير ونستكمل الطريق الى منتهاه . واذا كانت الحرب بحـق امتدادا للسياسة بشكـل آخر ، فلنحدد بدقة أكثر فنقول انهـا « أعلى مراحـل السياسة » . ومعنى هذا كلـه أن ليس هنـاك حـل سهـل للصـراع ، ليس هنا كحل بلا دم .

ونصل من هذا الى أن الحل السياسي ، كما يتمثل في محاولات التسوية السلمية الراهنة او في ايـة محاولات قـد تحدث في المستقبل القريب او البعيد ، هي سلاح مفلول في نهاية المطاف . غير انها ، كاي سلاح ، ذات حدين : حد موجب يتمثل في الاسفين او الفجوة او الجفوة التي تدقها بين أمريكا واسرائيل ، وحد سالب يتمثل في الاتهامات والظنون غير المبررة التي يوجهها البعض الى القيادة العربية . وإذا كان من الضروري توسيع واستثمار الجانب الأول ودفعه الى أقصى حد عزلا وخنقا لإسرائيل ، فان الجانب الثاني لاردعليه إلا الالتزام الواعي بالأهداف الاستراتيجية القومية العظمى بعيدا عن كل خدع ومناورات الأطراف الاخرى .

ولهذا ، ورغم الاخطار الدفينة التي تحف باللعبة السياسية ، فلاحرج ولاجناح على القيادة العربية المسؤولة ان تمارس محاولات التسوية السلمية ، ما دامت لاتبيع المستقبل في سبيل الحاضر ولا « تقايض جزءا من الارض العربية المحتلة بالقضية كلها » وما دام المحذور والمحظور الوحيد هو اي حل يغلق باب الكفاح مستقبلا او يصادر المستقبل وامل العودة الكاملة الى فلسطين الأم برمتها . فاذا كان اي شكل من أشكال الاعتراف السياسي

باسرائيل يؤدي الى هذه المصادرة ، فلا محل له من الاعتبار أو الحساب .

ويقينا فاذا كانت السياسة العربية بعد الهزيمة مباشرة قد تمسكت في الخرطوم « باللاءات » الاربعة الشهيرة ، فليس من المتصور أن تندفع الى « النعمات » الاربع بعد الانتصار . واذا صح ان المزايدة في العمل القومي خطأ كبير فلا جدال ان المناقصة شر واسوأ ، بل خطيئة لا تغتفر . والملاحظ حتى الآن اننا كلما زادت حروبنا مع العدو سواء منتصرة او منهزمة ، كلما بعدنا عن لب القضية وأصل الصراع وهو قلب فلسطين ، وذلك بفعل مناورات والاعيب الأعداء في التسوية السلمية . اننا مثل « اليس » في بلاد العجائب ، « نجري بكل سرعة ولكننا نجدنا متخلفين الى الوراء أكثر » ! ولا رد على ذلك الا باعادة تأكيد جوهر الصراع ورفض كل تحريف له .

وحتى اذا كان البديل الوحيد للتسوية السلمية المتاحة اليوم بشروطها المطروحة هو تجميد الموقف الصراعي الراهن لبعض الوقت ، فان السؤال الذي ينبغي ان نسأله لانفسنا كمبدأ ثابت نسترشد به في الاختيار دائما هو : ايهما اصلح للصراع وللعرب على المدى الاستراتيجي الطويل : ان نفقد بعض الوقت حاليا في سبيل كل الارض في النهاية او ان نفقد كل الارض في النهاية في سبيل بعض الوقت حاليا ؟ الجزء اليوم خير ام الكل غداً ؟ ان تكسب الآن بعض « الحق السياسي » في فلسطين على حساب « الحق التاريخي » مستقبلا ، أو ان نتمسك بالحق التاريخي الآجل على حساب الحق السياسي العاجل ؟

ولحسن الحظ (او لسوئه !) ، فان العدو هو الذي سيتولى لنا وعنا الاجابة عن هذه الاسئلة . فالعدو ، نحن نخلص ، هو وحده الذي سيتكفل في الوقت المناسب بنسف مشروع السلام الدائم ، سواء قبل العرب به او لم يقبلوه ، وسواء كان لصالحهم اولغير صالحهم . بعبارة اخرى ، العدو أساسا ، أطماعه ، أحقاده ، نواياه الدفينة ، هو الذي « سيحمي » العرب

من أن ينزلقوا في لعبة السلام ايا كان اغراؤها وثمنها ، والذي قد يكون أفدح من الحرب بل ونهاية كل شيء ...

رؤيا مستقبلية

هذا كله من ناحية مشروعات التسوية الراهنة. ولكن من الناحية الأخرى وعلى المدى الاستراتيجي البعيد فنحن من أولئك الذين يعتقدون مع توينبي أن « الوجود الإسرائيلي على الارض العربيــة لا يمكن الا ان يكون وجــودا عارضا ومؤقتا ، وان الصراع العربي — الإسرائيلي سوف يحسم في نهاية المطاف لصالح العرب ، حتى ولو استمر هذا الصراع مئات السنين » .
فتوينبي لم يتردد ان يعلن ، ولـم يفتأ يردد على أسماع الإسرائيليين وفي وجوههم ، أنه مازال على اعتقاده القديم من أن انشاء اسرائيل كان خطأ كبيراً بل خطيئة فادحة ، وان هذا الخطأ لا يمكن اصلاحــه الا بعــودة الإسرائيليين الى الدول التي قدموا منها . وهو بعد لا يشك في ان العدالة سوف تتحقــق في النهاية ، وسوف يضطر اليهود عند ذلـك الى مغادرة اسرائيل ، وبذلك يعود الحق الى أصحابه الشرعييــن والوطن الى ابنائــه الطبيعيين .

كذلك فلعل المفيد هنا ان نذكر القارىء بنبوءة مماثلة بل سابقة وأكثر ابعاداً وأبعد مدى واسقاطا . ففي الأربعينات ، بعد الحرب الثانية وقبل قيام اسرائيل ، وفي دراسة مستقبلية رائدة ومبكرة لمحاولة تصور شكل العالم القادم حينذاك ، غامرت مجموعة مــن الكتــاب والعلماء والمفكرين الانجليز بنبوءتين محددتين بصفة قاطعة فيما يخص منطقتنا : الاولى قيام دولة اسرائيل في المدى القصير ، والثانية زوالها على المدى البعيد . ولــنا بحاجة الى أن نقول ان النبوءة قد تحققت ، ولكن لنا ان نضيف أن تحققها يضفي قيمة علمية لا نقول يقينية ولكنها اكثر من ظنيه على النبوءة الثانية. فالأسـاس العلمي في الحسابات والتقديرات واحد ، وليس هناك ما يدعو منطقيا الى الشك في النتائج ما دامت المقدمات قد صدقت أو في النتيجة الأخيرة ما دامت الأولى قد وقعت .

وغير توينبي وهؤلاء المستقبليين ، هناك كثيرون في الغرب والشرق، دعاة وساسة، مسيحيين وحتى يهودا، دعوا بصراحة الى حل دولة إسرائيل كالحل الوحيد ، العادل والعاقل، والواجب والممكن، للصراع المنذر والمدمر. والمكتبة العالمية حافلة في هذا الصدد . ثمة مثلا كتاب مشهور لكاتبة اوربية عنوانه « هذا هو الحل : ازيلوا إسرائيل ! » . ومعظم هؤلاء الكتاب يعتقدون ان الدولة اليهودية المصطنعة المغتصبة تحمل معها جرثومة فنائها وان مصيرها الى مقبرة التاريخ . والواقع ان تلك حتمية التاريخ ، اذا كنا حقا نؤمن بأن إسرائيل كيان مضاد للتطور وطفرة ضد حركة التاريخ ومنطقه . وعلينا اذن ان نحتفظ بهذه النبوءات المصيرية كأكثر من مجرد أمل عاطفي او قومي لاهب او ملتهب ، وانما كقدر علمي حتمي بارد هادىء .

ولكن من الناحية الأخرى اذا كنا نؤمن حقا أن في هذه الرؤيا ــ النبوءة اكثر من مجرد تهويمات هلامية من قبيل افكار التمني او احلام اليقظة ، فان علينا يقينا ان نستقصي الميكانيزم العملي الواقعي الذي يمكن لها ان تتحقق من خلاله وإذا كنا نؤمن في اعماق قلوبنا بأن دولة اسرائيل ستنتهي إلى المصير نفسه الذي انتهت إليه دولة الصليبيين في المنطقة من قبل ، فما بالنا نتحرج في تصور التسلسل الفعلي ، اي السيناريو المحتمل أو المحتم لمثل هذه النهاية ونخشى الحديث عن مستقبل اسرائيل ؟ . وذلك بالدقة مايطرحه هذا البحث .

وابتداء نقول انه ليس سوى الحس التاريخي العميق والثاقب اساسا واطارا لمثل هذا الموضوع الفادح الخطورة . فحيث يعني الأمر مصير الملايين من الفرقاء المتصارعين ، وكما في كل صراع الاجناس وصراعات الأمم والشعوب، لا بد ان ننظر الى المستقبل كتاريخ ، والى التاريخ كدراما . والى الدراما كاستراتيجية .

والنظرية المحورية التي نقدم من هذا المنظور هي باختصار شديد ان دولة اسرائيل الحالية في فلسطين المحتلة ليست الا محطة مرحلية، وليست محطة الوصول او الانتهاء ، على طريق رحلة اليهود التاريخية عبر العالم المعمور ، تلك الرحلة التي سنرى أنها تأخذ بانتظام اتجاها أحاديا محددا

نحو الغرب باستمرار . واذا كان لنا كذلك ان نستبق الحدث والحديث ، فاننا نضيف أن محطة الوصول النهائية تلك ، بكل منطق الماضي والحاضر والمستقبل، وبكل قوانين الهجرة البشرية والاستعمار الاستيطاني وصراعات المجتمعات ، انما هي وليست سواها الولايات المتحدة ؛ نعم الولايات المتحدة الأمريكية ، على وجه التحديد والعالم الجديد على وجه العموم .

اسرائيل ، باختصار اكثر ، محطة استراحة مؤقتة على طريق رحلة اليهود الألفية والدموية من العالم القديم الى العالم الجديد، وبتحديد أكثر من الروسيا الاوربية بالتخصيص الى الولايات المتحدة بالذات . انها آخر ، كما هي أخطر وأكبر ، « جيتو » في التاريخ ، لأنها وان تكن أبشع معسكر احتشاد عنصري مسلح على وجه الارض فانها في صميمها آخر احتشاد احتفالي في طقوس وداع العالم القديم قبل رحلة « الذوبان » في العالم الجديد . . .

معنى هذا ، وهو خلاصة القول ، اننا اذا صمدنا وصبرنا في الصراع ورفضنا كل عروض المساواة والحلول الوسطى وجميع اشكال الاعتراف، ثم نجحنا في أن نفرض على اسرائيل سلسلة متعاقبة من الانكسارات العسكرية من النمط الاكتوبري على الاقل ، يتقلص بها كيانها ورقعتها خطوة خطوة على العقود القليلة القادمة ، فسوف تتآكل هي أكثر وأكثر وتتفتت من الداخل وسوف تصفي نفسها بنفسها بالتدريج الوئيد من خلال موجات متلاحقة من الهجرة الجماعية الخارجة التي ستصب جزئيا في أوربا ولكن اساسا في الولايات المتحدة . الى ان يأتي اليوم الذي يصبح فيه « فك » الدولة Dismantling امرا واقعا ومجرد تحصيل حاصل . وبذلك يتم « الخروج الجديد » ، جنبا الى جنب مع « العودة الجديدة »، وتتم عملية الاحلال والابدال والعودة الى الطبيعة ، الى الجغرافيا ، الى التاريخ ، بل والى العقل البحت . .

وواضح من هذه الوصفة انه ان يكن العمل المسلح هو شرطها الموجب فان شرطها السالب هو عدم الاعتراف . الاول ، لانه يخدع نفسه وحده ، دون ان يقنع احدا ، من يتصور امكان عودة الاراضي المحتلة فضلا عن الاراضي الفلسطينية بأى قدر من العمل السياسي أو الدهاء أو الصبر

او الديبلوماسية ، الى آخر كل مايمكن أن يندرج من صفات ووصفات تحت اسم الحل السياسي . انك ، الآن وغدا والى النهاية ، لن تجد بديلا عن الحل العسكري المجزأ او المرحلي او القطاعي او الخطوة خطوة ، سمه ما تشاء .

اما الشرط الثاني ، فلأنه يخطىء في الحساب خطأ فاحشا بل قاتلا ومهلكا من يتوهم أن في الامكان العودة الى العمل الجاد من اجل تحرير بقية الوطن السليب بعد الاعتراف باسرائيل ، ايا كان شكل هذا الاعتراف . ان مثل هذه اللعبة السياسية ، المفرطة في الذكاء (او في حسن الطوية) ، لن يدعها العالم تمر او تتم ، ودعك من العدو الاسرائيلي نفسه . انك تغلق الباب على نفسك بنفسك ، وانها نقطة اللا عودة . انك حين تعترف فانما تتنازل عن حقك التاريخي في الوطن وعن حقك السياسي في العودة الى المطالبة به وعن حقك الادبي في العودة الى القتال من اجله ، لتصبح مجرد غاز « أجنبي » معتد مدان دوليا . . ان العالم سيهب عندئذ بالسلاح والحديد والنار ليقول لك : قف ! وسيكون عليك إما ان تجابه العالم كله بالقوة المسلحة ولكن من وضع سياسي وعسكري اسوا بكثير جدا مما لو فعلت بغير اعتراف ، وإما ان تتراجع فتقبل الى الابد بالوجود العدو . وعلى الجميع أن يدركوا بلا اوهام ان اصدقاءنا الحقيقيين في العالم خارج الدائرة العربية والاسلامية هم حيث يعني الامر امن ووجود اسرائيل اقل من القليل ، ولا نقول الصفر المطلق .

ثم نبادر بعد هذا فنقول ان هذا البرنامج ليس دعوة ، ولا عودة الى دعوة ، « القاء الاسرائيليين في البحر » ، تلك التي نجرؤ على أن نقول انها دعوة سخيفة بقدر ماهي دعوى مفترى عليها . فما نظن احدا قال حقا بها ، أو أن من قالها عناها بصدق نصا وحرفا (كيف ؟!) . فهذا شيء غير متصور لاانسانيا ولا فيزيقيا ، ومثله لم يحدث قط في التاريخ ، التاريخ العربي على اية حال وعلى وجه اليقين . وقديما قذف العرب بالصليبية ، ولكن ليس بالصليبيين ، في البحر . بل الاصح في الحالين ان نقول ، الى ماوراء البحر Over sea . فانما المقصود عودتهم الى حيث جاءوا من

وراء البحار أو الى حيث ينتمون وراء البحار . وحين دعا من دعا مــن كتاب الغرب الى ازالة الدولة المصطنعة ، لم يقصد بصفية الاسرائيليين بل اسرائيل . واذا كانت الدعاية العربية قد زلت حينا ما واخطأت التكييف الصحيح ، وكانت الدعاية الصهيونية الكاسحة والتشوم قد استثمرت تلك الزلة أبشع واكذب استغلال، فلا ننسى أنها تتلاعب بالالفاظ فالمقول، وليس لنا أن نفحم بفرية او أن نحيد عن حقنا بعقدة لسـان مكبوتة .

ان المأزق التاريخي (والجغرافي) الرهيب الذي حشرت اسـرائيل نفسها فيه هو مشكلتها وليست مشكلتنا ، هـي التي صنعتها وعليهـا وحدها أن تتحمل نتائجها مثلما يقع عليها عبء حلها . ولكن العدوالعاقل هو الذي يترك لغريمه عن عمد ومن موضع القوة ثغرة في جدار الحصار ينسحب منها اذا تراجع وآثر العقل على الموت أو الانتحـار . ونحن هنـا لانقول لعدونا « العـدو امامكم ، والبحر وراءكم » ولكنا نقول « العـدو وراءكم ، والعالم الجديد امامكم » . وفي امريكا متسع للجميع ، جميـع اليهـود .

كذلك فان علينا أن نوضح أن البرنامج الذي نطرح هنا ليس مقصودا به الغد المباشر ولا المرحلة الراهنة ، وانما هو ينصرف اساسا الى المدى الطويل ، قل ربع قرن حتى سنة ٢٠٠٠ مثلا او حوالي دورة القرن أو حتى لنصف قرن . فليست هذه دعوة الى الاندفـاع والتهور بل الـى التخطيط الاستراتيجي الثاقب طويل النفس والأمد . واذا كان العدو ضد منطق التاريخ وحركته ، وكان التاريخ مع قضيتنا ، فمن البديهي ايضا أن التاريخ لايحقق نفسه ولا يعمل أوتوماتيكيا ، بل مـن خلال الانسان وإرادته وفعله يتحقق . والجسم الحي لايلفظ الاعضاء الدخيلة الا بعـد أن يحشد لها كل نقطة دم في شرايينه وكل كرة بيضاء في دمه .

كذلك فالملاحظ اننـا جميعا نشق ، تفاؤلا وأمـلا ، في عودة الوطـن السليب ، غير أننا بسبب الصعوبات الدولية نؤجل كل يوم الى المستقبل، ذلك المستقبل الذي لا يجيء أبدا . واذا كنا نؤجل التبعة الى الاجيـال

القادمة باعتبارها أكبر منا حاليا وباعتبارهم اقدر منا مستقبلا ، فلا ننسى ان المشكلة تتضخم ككرة الثلج بحيث قد تجدها تلك الاجيال بدورها اكبر منها . وبذلك يتحول التأجيل الى تسويف، والتسويف الى تضييع. كلا ، انما المعركة معركة الاجيال جميعا ، معنا ، هنا والآن تبدأ .

ولننظر الى العالم حولنا . برغم انف الاستعمار والحرب الباردة والوفاق على التعاقب ، العالم كله تحرر أو يتحرر ، ولم تبق الاروديسيا وجنوب افريقيا . وقد نظل نحن واقفين نتفرج على ركب التحرير الى ان نجدنا ذات يوم ـ فلسطين ـ المستعمرة الوحيدة في العالم ، كما قد نجد البترول نضب أو فقد دوره كسلاح سياسي . اننا اليوم نلوك « مخدر » القوة السادسة بلذة واضحة ، بينما نحن بغير التحرير والعودة وفلسطين نظل « رجل العالم المريض » . لهذا لابد من الاسراع ، وان يكن بتؤدة .

وتبقى كلمة اخيرة . لسنا نشك ان المشروع الذي نطرح هنا سيبدو للبعض نظريا بل وممعنا في الخيال ، وقد يقول البعض الآخر مجنونا أو « فاوستيا » . ولكننا لا ننسى رد فعل العدو ازاء اقتراح مصر على لسان وزير خارجيتها بمجرد ايقاف الهجرة اليهودية الى اسرائيل لمدة ٥٠ سنة. لقد رموه حرفيا ، من بين مارموه ، بالجنون .غير اننا هنا لانملك الا اللامبالاة والسكينة ، فتلك انما قطعة من الحرب النفسية متوقعة وننتظرها . ثم نضيف على الفور اننا نثق انه الحل العملي الوحيد المفتوح امامنا دون تجاوز لحدود الصراع الانسانية . ولن نقول ، كما يصح ويمكن ان نقول ، « الايام بيننا » ، ولكنا فقط نقتبس العدو بالتحديد ودون سواه. في مؤتمر بازل ١٨٩٧ ، بعد أن طرح هيرتزل حلمه الفاوستي المجنون ومشروعه الخرافي العدواني الغاصب عن دولة اليهود في فلسطين، لم يغفل ان يستدرك ليضيف « اذا كان لي ان الخص مؤتمر بازل بعبارة واحدة ، أحرص على عدم الافشاء بها علنا ، لقلت إنه في بازل اسست اليهودية . ولو اني جاهرت بذلك لتعالى الضحك من كل مكان ، غير انني على ثقة من ان الجميع سوف يعترف بذلك بعد خمس سنوات أو بعد

خمسين » . ولقد انجز المعتدي من أسف وعده ، فهلا ناجز صاحب الحق عن حقه ؟ هل يفعل ؟ هل يقبل ؟ لنفصل .

نحو الغرب ...

فاذا بدانا من البداية ، فان الحقيقة المفتاحية في كل تاريخ اليهود منذ اقدم فصوله هـي أنهم جماعة مـن الرحل ، إلا انهـم رحل الحضارة لا البداوة ، فهم في داخل العالم المتحضر كانوا يمثلون دائما قمة السيولة البشرية في الزمـان والمكان . إنهـم ، أيا كانت الاسباب ، اختيارية أو اضطرارية ، في حالة هجرة مزمنة . واذا كان الغجر في العالم هم رحـل الريف والاقاليم عادة ، فان اليهود كانوا بالضرورة والامتياز رحل المدن اساسا وفي الدرجة الاولى . (في كل مراجع الأنثروبولوجيا تقريبا يقرن اليهود والغجر معا في فصل واحد يعقد او يفرد لهما خصيصا .) هـم إذن « غجر الاديان الثلاثة » كما وضعها احدهم . أليس هذا ببساطة وعلى اية حال هو فحوى فكرة « اليهودي التائه او المتجول Wandering jew » وخلاصة كلمة « الشتات أو الدياسبورا Diaspora » لا اقل ولا اكثر ؟

ونحن ننتقل خطوة اخرى وكبرى نحو كبد الحقيقة وقلبها حين نضيف ان الاتجاه السائد والطاغي على هجرة اليهود التاريخية هذه كان لامر ما هو الاتجاه نحو الغرب أساسا . استعرض كل تاريخهم في العصور القديمة والوسطى والحديثة وحتى في عالمنا المعاصر ، وستجد هذا الاتجاه نحـو الغرب قاعدة قائدة لا استثناء لها تقريبا . حقا ان هناك حركات عكسية ارتدادية راجعة احيانا نحو الشرق او تجـاه الجنوب ، إلا انهـا حركات جزئية أو محلية أو مؤقتة ولا تعدو أن تكون بمثابة الدوامات الوضعيـة التي تظهر كجيوب مغلقة أو مقتطعة على جوانب التيار الكاسح أو تطفو كفقاعات زائلة على سطحه . إنها الاستثناء الذي لا ينفي القاعدة بقـدر ما يؤكدها . اما القاعدة فهي تلك الموجة المدّية الهائلة الزاحفة ابدا نحـو الغـرب .

خذ التاريخ العبري القديم نفسه . أول مانسمع عن اليهود في التاريخ نسمع عنهم في أور الكلدان ، على أطراف جنوب العراق الصحراوية . ومنها انتقلوا غربا الى ارض كنعان (فلسطين) بعد ان « عبروا » النهر — الفرات او الاردن لاندري بالضبط — حتى سموا « بالعبرانيين » . ومن فلسطين غربا الى مصر هاجرت منهم جماعة تحت ضغط القحط ، حيث استقروا في ارض جاشان Land of Goshen (وادي الطميلات) . وعلى المحور نفسه ، انتشر اليهود من فلسطين الى شمال إفريقيا(المغرب العربي ابتداء من تونس حتى مراكش) . واذا كان « الأسر البابلي » الذي فرضه الفرس قد اعاد جزءا منهم الى فلسطين بعد ذلك ، كما عاد بهم اليها « الخروج » من مصر فيما بعد ، فان ذلك لم يكن الا حركة ارتدادية الى نقطة الابتداء فحسب .

واذا كان اليهود قد انشأوا دولة في الجزء الداخلي من فلسطين ، فانها لم تلبث أن تحطمت على يد الآشوريين والبابليين ، وبذلك زالت الى الأبد دولة اليهود في فلسطين بعد حياة طولها ٤ قرون فقط ، بينما ان كل إقامتهم المتصلة في فلسطين لم تعد ٦ قرون (من ١٢٠٠ ق. م حتى ٥٨٦ ق. م) ثم تكررت القصة بعد ذلك مع الرومان ، حين دمرت أورشليم والهيكل للمرة الثانية والاخيرة ، بينما أبيد اليهود وطردوا تماما من فلسطين .

هكذا بدأ الشتات الكبير في العالم الهليني ثم الهلنستي ثم الروماني فالبيزنطي : الى سواحل البحر المتوسط وجنوب اوربا ، الى البلقان وآسيا الصغرى والبحر الاسود وحتى جنوب الروسيا حيث تحولت ملايين من شعب الخزر الى اليهودية فكانت نواة يهود الروسيا الكثيفة بعد ذلك . وفيما بعد ، خاصة مع الرومان ، امتد الانتشار اليهودي الى وسط أوربا وغربها ابتداء من هولندا وفرنسا الى بولندا والروسيا عبر المانيا والنمسا .. الخ . وقد كان من هذا الانتشار المتغلغل أن تكونت نواتا اليهود الرئيسيتان في أوربا الوسطية : في حوض الراين وحوله غربا ،

وفي جنوب غرب الروسيا وفي بولندا وحولهما شرقا . وواضح في ذلك كله أن محور الانتشار الأسي هو نحو الغرب باطراد واستمرار .

اعتبر ايضا العصور الوسطى ، حين بدات الاضطهادات الدينية وعمليات الطرد والابادة الجماعية ضد اليهود ابتداء من محارق محاكم التفتيش Inquisitions غربا في اسبانيا الى مذابح البوجروم Pogroms في الروسيا القيصرية شرقا . هنا حدثت عملية معقدة للغاية من المد والجزر في حركة اليهود مابين شرق أوربا وغربها اشتدت فيها التيارات العكسية الراجعة نحو الشرق ، ولكنها في النهاية اعطت مكانها لعمليات انتقال بالجملة الى الغرب ، مؤكدة بذلك المحور التاريخي ـ الجغرافي في حركتهم .

حتى اذا ما وصلنا الى مشارف العصور الحديثة تبلور الزحف اليهودي نحو الغرب الى منتهاه والى الحد الذي قلب توزيعاتهم الجغرافية الكوكبية بصورة جذرية ودرامية معا . إنه العالم الجديد يدخل في الصورة لأول مرة ، وبخاصة منه أمريكا الشمالية ، وبالأخص جدا الولايات المتحدة . وها هنا تقفز الهجرة فوق الاطلسي لتنتشر إلى أقصى الغرب من الكوكب . والواقع أن العصور القديمة إن تكن هي مرحلة انتقال اليهود من الشرق الاوسط والبحر المتوسط إلى القارة الأوربية ؛ فإن العصور الحديثة هي اساسا مرحلة انتقالهم من أوربا إلى أمريكا الشمالية ، وبخاصة من الروسيا وشرق أوربا إلى الولايات المتحدة وشمالها الشرقي .

أولى طلائع الهجرة اليهودية من أوربا إلى الولايات المتحدة لاتكاد تتخلف عن موجة « الآباء المهاجرين pilgrim Father » من البيوريتان البروتستانت ، بل هي تتعاصر معها تقريبا ، وكان مصدرها أساسا من إسبانيا والبرتغال . أي أن انجذاب اليهودي التائه إلى العالم الجديد بدأ لانقول مع كشفه ولكن على الاقل منذ بداية تعميره الفعال ، حيث اتفق مع ما يعرف في التاريخ الأمريكي « بالعصر الاستعماري » في القرنين ١٦، ١٧ لكن القرن ١٩ ، قرن الثورات والاضطرابات والتخمرات السياسية

التاريخية في القارة ، هو أول من حمل اليهود بالجملة إلى الولايات المتحدة. فالقدر أن ثورتي ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ قذفتا إليها بنحو ربع مليون يهودي . وكان المصدر الأساسي هو وسط القارة ، خاصة ألمانيا ثم فرنسا .

ثم تأتي الموجة الثالثة والقمية حوالي دورة القرن . فبين ١٨٨١ ، ١٩١٠ دخل الولايات من اليهود أكثر من ١,٥ مليون ، معظمهم من شرق أوربا ، أكثر من المليون منهم من الروسيا ، وربع المليون من النمسا ـ المجر . وفيما بين ١٩٠٠ ، ١٩١٣ فقط هاجر من الروسيا وحدها نحو مليون آخر من اليهود إلى الولايات . كل أولئك عدا تيارات الهجرة الأخرى إلى كندا وامريكا اللاتينية ، خاصة الأرجنتين والبرازيل .

لقد بدأ الفصل الأمريكي في كتاب التاريخ والشتات اليهودي ، آخر واخطر فصل . وتلك إذن موجة عارمة قفزت بعدد يهود العالم الجديد قفزا . حتى العقد الأخير من القرن ١٩ مثلا لم يزد العدد عن نصف المليون (نصفهم في مدينة نيويورك وحدها) . وفي ١٩٠٥ قدر الرقم بنحو المليون ونصف المليون ، طفر إلى نحو ٣٠٠٠,٠٠٠ و٤,٠٨١ في ١٩٢٦ ، ثم إلى ٤,٦١٢,٠٠٠ و٤ في ١٩٣٦ ، أي أنه كان يدور حوالي علامة الأربعة ملايين ونصف المليون عشية الحرب العالمية الثانية .

ورغم أن فترة هذه الحرب شهدت أكبر تدفق ليهود أوربا على فلسطين إلا أن الجدير بالملاحظة أن الجزء الأكبر من الخروج اليهودي من القارة اتجه إلى العالم الجديد وخاصة الولايات المتحدة . من هنا ارتفعت تقديرات يهود الولايات في الخمسينات لتستقر حول علامة الخمسة ملايين ونصف المليون . وهم الآن يتجاوزون الستة ملايين ونصف المليون ، بنسبة ٣٪ تقريبا من مجموع سكان الولايات المتحدة .

ولقد ترتب على هذه الموجات المديّة الغامرة بطبيعة الحال تغيير جذري في خريطة اليهودية العالمية . فبعد أن كانت أوربا ، وأوربا الشرقية خاصة ، هي مركز ثقل اليهود المطلق مثلما كانت وطنهم التاريخي المركزي ، انتقل

المركز إلى أمريكا الشمالية ، وخاصة الولايات المتحدة التي أصبحت وطنهم الجديد المحوري بالضرورة والامتياز . فبعد ان كانت اوربا حتى أواخر القرن ١٩ تضم نحو ٨٠ – ٨٥ ٪ من مجموع اليهودية العالمية ، مقابل نحو ٤ ٪ فقط في امريكا الشمالية ، هوت نسبة اوربا منذ ستينات قرننا هذا إلى نحو ٢٥ ٪ في حين طفرت نسبة امريكا الشمالية إلى اكثر من ٤٥ ٪ ، اي نحو ضعف نسبة اوربا .

وبعد ان كانت الروسيا الأوربية هي معقل اليهودية العالمية ، حيث استوعبت نحو نصف يهود العالم ، انخفضت نسبة الاتحاد السوفيتي إلى ١٦ ٪ او نحو السدس ، بينما أصبحت الولايات المتحدة « عاصمة » اليهودية العالمية وقطبها الأول في العالم حيث تضم وحدها ٤٤ ٪ من مجموعهم . والواقع ان يهود الولايات يعدون اليوم ٣ امثال يهود الاتحاد ، أو نحو ٦ر٥ مليون مقابل ٢ر٥ مليون . بل لم يحدث قط في الماضي ان وصل « سقف » اليهودية الروسية يوما ما إلى ما وصل اليه حجم يهود الولايات الحالي (٥ ملايين مقابل ٦ر٥ مليون على الترتيب) .

كذلك فبعد أن كانت اكبر كتلة من يهود العالم تتركز في الماضي في دائرة شرق اوربا ابتداء من جنوب وغرب الروسيا عبر بولندا إلى رومانيا والنمسا – المجر إلى شرق المانيا ، أصبحت منطقة شمال شرق الولايات المتحدة بالتحديد ، او « الربع الفني » ، هي اكبر « إرسابة » يهودية على وجه الارض ، وليس يهود كندا سوى امتداد شريحي مباشر لها عبر الحدود . وعدد اليهود في هذا الربع الغني وحده يعادل اكثر من ضعف يهود الاتحاد السوفيتي بأكمله ونحو ضعف يهود إسرائيل اليوم . بل إن ولاية نيويورك وحدها (٢ر٥ مليون يهودي) لتكاد تناهز إسرائيل او الاتحاد السوفيتي في هذا الصدد . وفي مدينة نيويورك نفسها تناهز نسبة اليهود الثلث ، حتى ليحرف البعض اسمها تهكما إلى جويورك Jew york فإذا نحن اعتبرنا النفوذ المالي والاقتصادي والثقافي والإعلامي ، فضلا عن النفوذ والدور السياسي المباشر ، لجاز لنا أن نعتبر

هذا الربع الفني ، ولا نقول « الربع اليهودي » ، بمثابة « إسرائيل الكبرى » ، بمثل ما نستطيع ان نعد نيويورك عاصمة اليهودية العالمية الحقيقية .

ليس هذا فحسب ، ليست الولايات المتحدة هي مركز ثقل اليهودية العالمية الجديد فقط .. وإنما العالم الجديد بقارتيه قد أصبح اليوم يستقطب النصف الاكبر من يهود الأرض . فثمة هناك نحو المليون من اليهود يتوزعون في امريكا اللاتينية ، الوسطى والجنوبية ، معظمهم في الأرجنتين والبرازيل . وتبلغ نسبةامريكا الشمالية من يهود العالم ٤٥ر١٪ مقابل ٣ر٥٪ في امريكا الجنوبية . فالمجموع ٤ر٥٠٪ ، أي ان كفةالميزان قد تارجحت حتى رجحت أخيرا لصالح العالم الجديد ، او قل إناليهود قد أصبحوا ظاهرة اكثر ارتباطا بالعالم الجديد منها بالعالم القديم .

والآن ، ما معنى هذا كله ، وما دلالته المستقبلية والسياسية ؟ يقينا، ليس ثمة شك ان هناك تيارا تاريخيا من الهجرة اليهودية نحو الغرب بانتظام ، وان بوصلة اليهودي التائه كانت موجهة دائما على « القطب الغربي » إلى ان اصبح في النهاية يتجاذب نحو امريكا كما لو تحت تأثير مغنطيس آسر غلاب . وإذا كان الشعار السائد في تاريخ التعمير الأمريكي هو«اذهبغربايهاالشاب،اذهبغربا Go west, Go west youg man، فيمكننا ان نقول إنه كان في ديناميات الشتات «اذهبغربا ايها اليهودي، اذهب غربا» . ونستطيع بسهولة تامة ان نتكهن ، بل نكاد نجزم باطمئنان كامل ، انه لولا قيام إسرائيل لكان معظم يهود العالم قد هاجروا إلى امريكا واستقروا بها نهائيا ، اي لتم تصريف معظم اليهودية العالمية من نصف الكرة الشرقي إلى نصفها الغربي ولاستكمل التيار التاريخيمساره حتى مداه .

وعند هذا المدى يثور سؤال هام : اين إذن تقع فلسطين المحتلة او إسرائيل من هذا التيار التاريخي الأسي ؟ والرد الوحيد انها مجردواحدة

من تلك التيارات العكسية الراجعة والدوامات الارتدادية التي تنقط التيار اليهودي المحوري كالفقاعات والتي طالما ترددت في تاريخ الشتات وكانت دائما إلى زوال . فحين انقضت الحركة الصهيونية على فلسطين بالهجرة العلنية والسرية المتسللة وغير الشرعية ، قبل النازية وأثناءها ثم بالاغتصاب القهري بعدها ، وحين انتزعت في فلسطين « وطنا قوميا» ثم أقامت فيها الدولة اليهودية لتستقطب يهود العالم في النهاية ، لم يكن ذلك قطعة بشعةمن الاستعمار الاستيطاني والاغتصاب الإحلالي ضدمنطق التاريخ فحسب ولكن أيضا ضد مجرى التاريخ اليهودي نفسه وضد تياره المتجه ابدا نحو الغرب .

ولم يكن ذلك كذلك لان اليهود لاحق لهم لا تاريخيا ولا دينيا ولا سياسيا في فلسطين العربية فحسب ، ولكن أيضا لانهم غرباء عنها جنسيا وانثروبولوجيا وليس لهم بالعرب اي قرابة دم ، في حين انهم جزء لا يتجزأ من العالم الغربي حضارة وجنسا ، ثقافة وتاريخا ، وواقعا ومصيرا . فاليهود انثروبولوجيا ليسوا ، على عكس وهم شائع ، من الساميين في شيء ولا هم اقارب العرب من اي درجة ، وإنما هم آريون ونورديون وأوربيون لحماودما . وعلى هذافإن حلم الصهيونيةالسياسية في العودة إلى « أرض الميعاد » ، بدعوى رؤى دينية موهومة واوهام سياسية منهومة ، ليس فقط مضاداً للحق والحقيقة ، الحق التاريخي العربي والحقيقة العلمية الموضوعية ، ولكنه كذلك حركة مفتعلةرجعية وراجعة مضادة لحركة التاريخ والشتات اليهودي ذاتها . وعلى هذا الأساس بالدقة ينبغي ان نبحث عن مستقبلها وعن مصيرها .

أمريكا أرض الميعاد !

وتشير كل أصابع التاريخ اليهودي ، فضلا عن حقائق عالمنا المعاصر ، إلى ان أمريكا ، وأمريكا وحدها بالتحديد ، هي المصب الطبيعي ومحطة الوصول النهائية في المستقبل ليهود إسرائيل كما هي لمعظم يهود العالم مثلما لكل الاقليات والعناصر التي تلفظ العالم القديم او يلفظها العالم القديم .

فحين كانت اوربا لم تزل تعاني من القلاقل والاضطرابات السياسية في عصر الأوتوقراطية والإقطاع والرجعية ، وكانت الروح الصليبية والتعصب الديني متقدة جذوتها فيها لم تزل ، كانت امريكا منذ بداية تاريخها الحديث هي ـ بمقياس العصر ـ الواحة والملجأ الأساسي المفتوح امام كل العناصر المضطهدة والمسحوقة وكل الباحثين عن الحرية الاجتماعية او الدينية او السياسية . ومعروف كيف ان تعميرها العملي بدأ بالفعل على أيدي الآباء المهاجرين الذين ما هاجروا من بريطانيا الأم إلا بحثاً عن حرية العقيدة والممارسة الدينية . وبينما كانت أوربا ترزح تحت الإرهاب والاضطهاد، كانت الروح العلمانية والفكر الليبرالي ومثل الحياة الديمقراطية والحضارة المادية الصناعية تتفشى وتسود في امريكا ، فلم تلبث « البوتقة الامريكية Melting -pot » ان حولت « امة من المهاجرين » الى « امة من الأقليات » . ان العالم الجديد هو الوطن الطبيعي لكل من لا وطن له في العالم القديم .

ثم ان امريكا قارة بلا حدود ، فيها متسع للملايين الوافدين ممن يكتظ بهم العالم القديم ، وفرص الريادة والتقدم الاجتماعي فيها لا حد لها ولا قيد عليها . وهكذا بينما كانت اوربا منطقة طرد لليهود ، كانت امريكا منطقة جذب . وهكذا ايضا أصبح اليهود فيها ، على ضآلة نسبتهم العددية ، من ابرز واقوى اقلياتها واستشرى فيها نفوذهم حتى اخذوا يلعبون في ساحتها السياسية بالفعل دور « يهود البلاط » الذي كانوا يلعبونه تقليديا في أوطانهم القديمة بأوربا . فاذا عرفنا أن الولايات المتحدة ، كالقوة العالمية العظمى الأولى ، تعد اليوم بمثابة « بلاط العالم » ، ادركنا كيف يمثل يهودها بدورهم « يهود بلاط العالم » بطريقة أو بأخرى . ان لم تكن الولايات المتحدة هي أرض الوعد Lned of promise ، ارض العسل واللبن ليهود العالم ، فماذا تكون اذن ؟

ولا زالت الولايات ، بكل عوامل الجذب الحضاري والمادي والصناعي والتكنولوجي ، تستقطب الكثير من مهاجري العالم القديم ، بما في ذلك

اليهود. ومما له مغزاه أن هجرة اليهود الامريكيين الى اسرائيل كانت فاشلة دائما رغم كل عوامل الغواية والاغراء بل التهديد والابتزاز الاسرائيلي. هذا بينما كان هناك على على العكس عملية خروج يهودي مستتر ومستمر من اسرائيل الى الولايات، تسارعت وتصاعدت الى حد الخطر بعد حرب اكتوبر الفاصلة. وفي الوقت الحالي، فرغم كل حملات ومحاولات الصهيونية العالمية المسعورة لتهجير اليهود السوفييت الى اسرائيل، فان الكثير منهم « يتساقط » على الطريق الى اوربا، بينما تتجه الاكثرية الى الولايات المتحدة سرا او علنا.

الولايات المتحدة الامريكية اذن، نحن نخلص، هي الوطن الطبيعي لليهود كما هي لسائر اقليات العالم. فانه لمنطقي جدا ــ أليس كذلك ؟ ــ ان تكون « امة الأقليات » (امريكا) هي الوطن الطبيعي والمحل المختار « لأقلية الامم» (اليهود) : واذا كانت أوربا هي « الوطن التاريخي » لليهود، فان امريكا بوضوح شديد هي « وطنهم المستقبلي ». واذا كان اليهود اوربيين جنسا ودما وثقافة وحضارة، فالواضح تماما لمن يتابع أوليات السياسية الدولية المعاصرة انهم امريكيون سياسة واستراتيجية واقتصادا وأمنا ــ وتستطيع الآن أن نضيف : ومصيرا ومصبا.

واذا كنا كوطنيين نؤمن بانه لا مكان ولا مستقبل لإسرائيل في منطقتنا العربية، فاننا كمفكرين وكعلماء نعتقد ان مكانها ومستقبلها الوحيد انما يكمن في الولايات المتحدة، هناك عبر البحار حيث الأرض الجديدة والدنيا الجديدة والحضارة الجديدة وحيث ارض الاقرباء وبيت الفرع الأكبر من العائلة اليهودية. واذا كنا نحن العرب نتحدث اليوم عن اسرائيل مجازا بحسبانها « الولاية الحادية والخمسين » من الولايات المتحدة ولكن عبر البحار، فقد لايكون من الاغراق في الخيال أو التمني، كما قد لا يكون بعيدا جدا، اليوم الذي تصبح فيه احدى ولاياتها على ارض القارة بالفعل (؟). وبدل ان ينتقل يهود أمريكا الى اسرائيل كما تحاول الصهيونية العالمية دون أية جدوى، فقد لايكون مفر امام يهود اسرائيل ان ينتقلوا يوما ما الى امريكا. وايهما المنطقي أكثر : ان تنتقل الاغلبية، ٦,٥ مليون، من وطنهم الشرعي الآمن الشاسع الفاحش الثراء الى الاقلية، ٣ ملايين،

المحشودة او المحشورة في وطن مسروق مهدد يختنق جغرافيا وعسكريا وماديا ، ام العكس ؟

ان امريكا والولايات المتحدة ، بايجاز مطلق ولكن بصيغة قاطعة،هي وليست فلسطين العرب « ارض الميعاد » « وأرض المعياد » الحقيقية لليهود في رحلة شتاتهم الطويلة عبر القرون والقارات ونحو الغرب ،اقصى الغرب، باستمرار. انها جبهة الريادة والعودة والوطن والدولة. اما اسرائيل فمهما طال الامد فهي ليست الا خطوة ، بل خطأ ، بل خطيئة ، على طريق الرحلة التاريخية من قلب العالم القديم الى قلب العالم الجديد ، « والعودة » الوحيدة فيها انما هي الى فلسطين ، والعودة الوحيدة اليها انما هي لصحابها الوحيدين العرب الفلسطينين ...

من إسرائيل الى فلسطين

حسنا ،كيف لهذا ان صح علميا ومنطقيا ، وهو صحيح ، ان يتحقق عمليا وتطبيقيا ؟ في ما حدث ويحدث حولنا وتحت ناظرينا على الساحة الدولية ، في تجربة الاستعمار العالمي والصراع ضد الامبريالية ، في المتغيرات الدولية المعاصرة ... الخ ، في كل هذا نجد الاجابة الشافية على هذا السؤال . ومن واقع هذه التجارب الملهمة نستطيع ان نضع ايدينا على هذه المؤشرات الدالة الاربعة والتي تكاد لفرط تواترها وترددها ان ترقى الى مرتبة القوانين الطبيعية الحتمية .

فاولا، لقد انحسر ظل الاستعمار عن السواد الاعظم من رقعته القديمة. واذا كان الاستعمار الاستيطاني هوبطبيعته اصعب واشق - وبالتالي آخر، انواع الاستعمار تحريرا ، فانه لاينفرد بحصانة خاصة ، وهو قابل للتصفية تماما شأنه شأن نوعية الآخرين وهما الاستعمار الاقتصادي والاستراتيجي . لقد اثبتت التجربة التاريخية ان الاستعمار الاستيطاني مهما استشرى وتوطن وضرب بجذوره ، ليس أكثر من بثور سطحية على هوامش القارات لا يلبث ان يلفظها الجسم الحي ولقد تفتت الاستعمار

الاستيطاني وصفي بالفعل في أعتى وأعرق معاقله التي أزمن فيهاوخضرم أجيالا بل وقرونا . لقد انهار في بضع سنين فقط ما بناه الاستعمار عبر قرون . حدث هذا ابتداء من الجزائر (١٣٠ سنة) وكينيا (٧٠ سنة) حتى موزمبيق وانجولا(٥٠٠ سنة)بينمايبدو الدوروشيكاً على روديسيا. ولم يبق في الدنيا الا جنوب افريقيا واسرائيل .

ثانيا ، وفي جميع الحالات لم يخرج الاستعمار الاستيطاني الا بالعنف والقوة والثورة المسلحة والحرب التحريرية ، عصابات كانت أو نظامية . حدث هذا في أرض المليون شهيد ، وفي كينيا من قبل حدث(ثورة الماو ماو)، بينما في مستعمرتي البرتغال كانت الحرب سجالاً حتى الامس القريب . وفي كل الأحوال كان الاستعمار العالمي يتنادى ليتساند ليئد حركات التحرير بالقوة الغاشمة (كان حلف الاطلنطي ، على سبيل المثال ، وراء قوة الاستعمار في كل الحالات السابقة ، مثلما تقف الولايات المتحدة بكل ثقلها العسكري والسياسي والاقتصادي وراء إسرائيل اليوم) . ولكن صمود وإصرار التحرير كان دائما يتناسب طرديا مع شراسة الاستعمار المستميت ثم المحتضر . وبقدر هذه الصلابة والإصرار كان النصر مؤكداإن آجلا او عاجلا . والخلاصة ان الاستعمار الاستيطاني لم يصف إلا بالحل العسكري ، ولم يحدث قط أن تحررت مستعمرة سكنية بالحل السياسي.

ثالثا ، في جميع الحالات وبلا استثناء ترتب على تصفية الاستعمار الاستيطاني عملية « خروج ابيض White exodus »تاريخية على مقياس ضخم بالغ الإثارة . ورغم انحق المواطنة الحرة الكريمة القائمة على قدم المساواة عرضت على جالية المستعمرين او المعمرين في كل الحالات ، فقد آثر الاستعمار بمحض اختياره الانبرحل ، إما لانه لايقبل ان يعيش « مع » وإنما « فوق » الوطنيين وإما لانه يعتبر المستعمرة المحررة بيئة غير صالحة لوجوده .

هكذا شهدنا تيارات عرمة كثيفة وسميكة من الهجرة الراجعة، تدفقت بسرعة مذهلة وفي وقت قصير جدا أو في لاوقت تقريبا . والجزائر هي المثل الكلاسيكي ، ففي غضون شهر واحد من اعلان الاستقلال كان اكثر من نصف مليون معمر قد انتقلوا بكل جذورهم الضاربة الى فرنسا الام ، ولم يمض

العام حتى كانت الاغلبية الساحقة قد غادرت نهائيا . وها نحن اليوم نقرا في الاخبار ان نصف المستعمرين البرتغال في موزمبيق قد رحلوا بالفعل الى الوطن الاب ، ولن يمضي وقت طويل حتى تكون البقية قد صفت نفسها بنفسها ، بينما تقرر بالفعل اجلاء كل المستعمرين من أنجولا (٣٠٠ الف) قبل موعد اعلان استقلالها الرسمي .

رابعا، ودائما وبلا استثناء ايضالم يحدث ان القى التحرير بالاستعمار الاستيطاني« في البحر»؛ وانما الذي حدث فعلا انه قذف به« عبر البحار» . فلا الخروج الأبيض كان قسريا بالقهراو تحت أسنة الرماح، ولا المهاجرون فشلوا في ان يجدوا وطنا جديدا في انتظارهم . وكما راينا توا ، فلقد كان الوطن الأصلي الاب Father Land ، الوطن القديم ، هو ذلك الوطن الجديد .

حتى في حالة الاستعمار الاستراتيجي فان هذا حدث . فمن علامات العصر البالغة الدلالة ، والتي لاينبغي لعربي بالذات ان يجهلها أو يتجاهلها او يخطىء مغزاها ، أن الولايات المتحدة بعد هزيمتها القاصمة أخيرا في فيتنام وخروجها من جنوب شرق آسيا فتحت بابها لتهجير وتوطين الكثير - بضع مئات من الآلاف - من اللاجئين والهاربين الآسيويين من عملائها السابقين في المنطقة ؛ وذلك كنوع من الالتزام الادبي بحمايتهم وتأمين مصيرهم ، على كرهها للأسيويين ورغم المعارضة العنصرية الشديدة من المواطن الأمريكي المتذمر . اي ان ارض الولايات المتحدة تعد في التحليل الأخير بمثابة احتياطي دائم وملجأ اخير لكل طفح بشري قد تلفظه محمياتها من دول الاستعمار الجديد او القديم ، الاستراتيجي أو الاستيطاني، حين تهزم وتنهار عسكريا . ولئن كان هذا ينطبق على الآسيويين والإفريقيين وسائر « الملونين »؛ فما أحراه أن يصدق على طفل امريكا المدلل ومحميتها « البيضاء » الأثيرة في الشرق الأوسط .

تلك اذن دورة حياة الاستعمار الاستيطاني الطبيعية ، وهذه قوانين قيامه وسقوطه التي تعمل بحتمية كحتمية قانون الجاذبية أو قانون

الأواني المستطرقة . وأنت اذا راجعتها من جديد لوجدتها قابلة للتطبيق على إسرائيل ، فليس هناك ما يمنع من سريانها عليها أو خضوع هذه لها . واذا كانت لحالة الاستعمار الصهيوني في فلسطين المحتلةظروف وملابسات خاصة (تفريغ الوطن من أصحابه وموقع المقاومة خارج الوطن ، الطابع العسكري المدجج ، دعم الصهيونية العالمية الاخطبوطية ، تبني الولايات المتحدة الهيستيري ولا نقول الصليبي، متغيرات الوفاق الدولي وتوازنات القوى الأعظم ... الخ) فان للوطن العربي أيضا وضعه الخاص وخصائصه المميزة (القوة السادسة القادمة ، القوة البشرية الساحقة ، الموقع الاستراتيجي الحاكم ، البترول فائق الحيوية ، فائض الأموال الخرافي ... الخ) .

وتكفي نظرة عابرة الى متغيرات حرب أكتوبر لنرى صحة هذه المقولة. فعند أول ضربة عسكرية عربية ناجحة ، اهتز ، بل بتعبيرهم « تزلزل » كل الصرح الاستعماري الشامخ الذي كان يتيه خيلاء وغطرسة وتكبرا وتجبرا بقوته التي لاتهزم وأبديته التي لاتناقش . وهم في اسرائيل وخارجها ، ولسنا نحن ، الذين ناقشوا علنا (وفزعا) انعكاسات أكتوبر على احتمالات « بقاء » اسرائيل وذات وجودها نفسه . وعدا كل مضاعفات الحرب النفسية والاقتصادية والاستراتيجية ، ارتجت الهجرة ، الحبل السري وخط الحياة في كيان اسرائيل ، ارتجاجا عنيفا ، فتحولت الى نهر قليل الروافد كثير المصاب : الهجرة الداخلية تضاءلت وتقلصت حتى النصف ، والخارجة تقافزت حتى تفاقمت . حتى اليهود السوفييت ، المهجرون بالقوة تقريبا، نكصوا على أعقابهم « وتسربوا » . وكانت الولايات المتحدة بالذات هي قبلة غالبية هذه الهجرات العكسية .

استطرادا من هذا الدرس الاكتوبري المعلم ، كيف يمكن اذن أن نرى خط المستقبل البياني ؟ لسنا نأتي بجديد اذا زعمنا أن مزيدا من العمل العسكري الناجح والمتلاحق ، بمعنى سلسلة متصاعدة من الاكتوبرات على امتداد العقود القليلة القادمة ، سوف تكرر نفس النتائج وتضاعفها بمعدل الربح المركب . وكلما تقدم الزحف العربي ، كلما طبقت نفسها بحذافيرها

القوانين العامة في دورةحياة ووفاة الاستعمار الاستيطاني : الكيانالعدو المنكمش يتأزم ويتمزق من الداخل اكثر واكثر ، الصراعات السياسية تشتد فيه وتتطرف ، مستوى المعيشة ينخفض حتى تتحول المستعمرة الى بيئة طاردة يهرب منها المعمرون المذعورون غير الآمنين الى الخارج بالهجرة بينما تتوقف الهجرة اليها تماما والسياحة الا لماما حتى اذا ما اطبقت الكماشة العربية على جسم العدو ثم توغلت حتى اقتربت من قلب اسرائيل بدا « الخروج الأخير » الى اوربا جزئيا ولكن الى الولايات المتحدة اساسا .

اما عن العالم الخارجي ، الذي يبدي كثير منه الآن قدرا او آخر من الصداقة المحتفظة للعرب او الحياد المتوازن او عدم الانحياز الصارخ لإسرائيل ، فيجب ان يكون مفهوما ان هذه كلها مواقف مؤقتة نصف قلبية وقابلة للارتداد . انها صداقة « تحت القسر Under Duress » (ضغوط البترول والمال العربي وفعل القوة الحربية المتصاعدة . . . الخ) ، واغلب اصحابها « اصدقاء ضرورة » . انهم اصدقاء يزدادعددهم ويزدادون اقترابا منا كلما بعدنا نحن ، اوظننا اننا قررنا ان نبتعد ، عن امل عودة فلسطين بشكل او بآخر ، ولسوف يقلون ويتباعدون كلما تمسكنا بهذا الأمل او اقتربنا منه . وبمعنى آخر ، فكلما اقترب الخطر الحقيقي من قلب اسرائيل ، اي التحرير الحقيقي ، كلما انكشف اصدقاؤنا الادعياء وكشر اعداؤنا السافرون عن انيابهم .

والملاحظ بعد اكتوبر ان دعوة اصدقائنا الحارة الى ضرورة الحل السلمي للصراع وضرورة الانسحاب وحقوق الشعب الفلسطيني في دولة مستقلة كشرط وكصيغة لهذا الحل ، هذه الدعوة تكاثرت حتى كادت تصبح « موضة » معدية . وهم يعبرون عن هذا احيانا بنغمة اخرى جديدة هي « عش ودع الآخرين يعيشوا Live and Let live » . غير ان هذه تحت السطح ، دعوة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، دعوة ظالمة في مسوح العدل ، دعوة الى الاستسلام لا السلام ، والى التبعية العبودية لا التعايش السلمي . فانما المراد هو تصفية الصراع ، اي الحق العربي ، الى الأبد

والتنازل نهائيا عن لب المشكلةفي الوطن السليب . وتلك بالدقةهي الصفقة التي على اساسها يصفقون لنا الآن بحرارة ، والتي على العكس سوف يصفعوننا بكل قوة وقسوة اذا نحن رفضناها اليوم او نفضنا ايدينا منها غدا . . .

ولكن على العرب ان يدركوا بلاخداع للنفس أنهم لايمكن ان يستعيدوا فلسطين ويحتفظوا بالراي العام العالمي ، اكثر مما يمكنك ان تأكل الكعكة وتحتفظ بها ، وان عليهم ان يضحوا باحدى الاثنتين ــ ولاخيار بالقطع ــ ليكسبوا الاخرى . لابد للعرب ، يعني ، ان يهيئوا انفسهم للتصادم مع الراي العام العالمي عند نقطة معينة من الصراع وان يحتفظوا بكل اعصابهم وجاشهم في مناخ الحرب النفسية الضارية وزئير العالم من حولهم . ولاينبغي ان نفهم من ذلك ان هذا التصادم والعداء سوف يستمر الى مالا نهاية . فحالما يفرض العرب امرهم الواقع الجديد على الطبيعة ، على ارض المعركة ، ويحسمون الصراع لصالحهم الى الابد ، فسيعود العالم ورايه العام اليهم بالتدريج صاغرا وحاقدا ثم كارها وناقما ثم آسفا وصادقا . فالواقع دائما يفرض نفسه ، والعالم يرضخ دائما للقوة ولا يعترف الا بالأمر الواقع .

بالمثل ، بل بأكثر منه جدا ، مع امريكا . فمن الواضح من تجربة اكتوبر وما بعده أنها تحاول ان تؤمن وجود اسرائيل وتضمن بقاءها الى الابد بالسياسة بعد ان فشلت بالحرب ، اي ان تنتزع الاعتراف بالدهاء والخداع والاستدراج بعد أن عجزت عن أن تفرضه بالقوة والسلاح والمجابهة . وهي لم تمديد الصداقة ، المحدودة جدا والنسبية الى اقصى حد ، الا لكي تستدرج العرب الى القبول بالوجود الاسرائيلي والاعتراف به ، مع مناورات مكشوفة لم تنقطع قط لتكسب لاسرائيل الوقت والنقاهة ثم موضع القوة واليد العليا من جديد ثم اخيرا وضع الدولة السائدة والمسيطرة على نحو ما يهدف المشروع الصهيوني اصلا ودون اي تغيير استراتيجي . ان امريكا ، بوضوح ، لم تتغير اكثر مما تغيرت اسرائيل . وعلى هذه الاسس ، وعليها وحدها ، تبتسم للعرب ابتسامتها الباهتة المقتضبة الصفراء الحالية .

ولكن عند اول بادرة قوة عربية او انتفاض على هذه الشروط الاستسلامية ، فسوف تكشر عن كل انيابها ولن تتورع عن التهديد بالقوة والعصا الغليظة وربما التدخل العسكري السافر ، الى آخر ماتعودناه منها في كل مواجهة عربية ــ اسرائيلية سابقة . وعلى الاقل فانها سوف تكرر موقفها خلال حرب اكتوبر او تصعده . ورغم كل مظاهر الانفراج النسبي مؤخرا في العلاقات العربية ــ الامريكية ، فانها لم تفتأ تهدد باستخدام القوة تلميحا وتصريحا ، بل ولم تستبعد التلويح بالمجابهة النووية . ورغم التوتر الذي شاب العلاقات الامريكية ــ الاسرائيلية ، فانها لم تبتعد حقيقة عن اسرائيل استراتيجيا اكثر مما اقتربت من العرب .

كذلك فان المزاج العسكري للسياسة الامريكية لم يتغير جذريا ، لاسيما بعد هزيمتها التاريخية في فيتنام وجنوب شرق آسيا ، بل لعله ازداد حدة وشراسة بسبب هذه الهزيمة . والواقع ان السؤال الذي يطارد المراقب السياسي الآن انما هو : هل ستتناسب السياسة الامريكية في الشرق الاوسط مستقبلا تناسبا طرديا ام عكسيا مع سياستها في الشرق الاقصى ؟ بمعنى هل ستتعلم درس فيتنام فتعدّل سياستها في الصراع العربي ــ الاسرائيلي وتعدل عن سياسة القوة والتدخل المسلح ، ام تزداد عنادا وتصلبا واستكبارا فتحاول بعقدة الهزيمة هناك ان تعوض بنصر هنا ؟ اي هل تخفف من ارتباطها باسرائيل والتزاماتها الفادحة الثمن بمصيرها وامنها ، ام على العكس تكثف منها الى حد التطابق والتوحد فالتدخل ؟

الرد الجازم مستحيل ، ولكن الأمر المؤكد ان امريكا لم تخف قط انها تعتبر قضية اسرائيل قضية قومية استراتيجية امريكية مصيرية (كذا !) ، وانها تعدها اخطر لأمنها القومي ولهيبتها كقوة عظمى من حماة فيتنام ، بل اخطر بند في استراتيجيتها السياسية العالمية جميعا والعنصر الوحيد الذي يمكن ان تقوم من اجله الحرب العالمية الثالثة بل و « القيامة النووية » .

ولكن من الناحية الاخرى فان الحقيقة التاريخية الثابتة هي أن امريكا ، حتى الآن ، لم تتراجع عن العدوان ولم تنسحب من اي موقع ابتداء من كوريا حتى فيتنام الا بالقوة المسلحة وتحت ضغط الهزيمة العسكرية . اي انها ليست على استعداد للتخلي عن خططها الاستراتيجية للسيطرة العالمية بالوسائل والضغوط السياسية والديبلوماسية ، فهذا لم يحدث قط منذ خرجت الى العالم واحتلت قمة السيادة الدولية . ومع ذلك تبقى الحقيقة الناصعة وهي انها قد هزمت بالفعل في اكثر من صراع مسلح ، وبالتالي قابلة للهزيمة من جديد في المستقبل ، وانها كما انسحبت هناك تماما بعد هزيمتها قابلة للانسحاب من اي موقع آخر فيما بعد .

ولهذا كله يبدو ان « فك الارتباط » الحميم والوثيق بين امريكا واسرائيل مستحيل يوما ما الا بحد السلاح . واذا كانت السياسة العربية الجديدة قد نجحت بذكاء في دق إسفين خفيف بين الطرفين، فان الفجوة الضيقة الناجمة لايمكن ان تتحول يوما الى هوة ولا الجفوة النسبية الى قطيعة . واذا كان على العرب الا يقطعوا قط « شعرة معاوية » مع امريكا ، فيبدو ان عليهم يوما ما ان يقطعوا يدها اذا كانوا يريدون حقا استرداد حقوقهم كاملة . اي ان عليهم ان كانوا يريدون عودة فلسطين يوما ما ان يعدوا انفسهم عقليا وعمليا لأن يقبلوا من حيث المبدأ بالمخاطرة بالصدام مع امريكا عند نقطة معينة . (نعود فنذكر القارىء بأننا نتكلم هنا لا عن الحاضر أو الغد القريب ولكن عن المستقبل البعيد ، ربمابعدعقد أو عقدين أو اكثر .) وبقدر مايصرون ويصمدون ولا يتراجعون ، ستتراجع امريكا في النهاية . وليست هذه دعوة من جديد الى « التناطح » مع الولايات ، ولكنه قدر العرب اذا فرض عليهم الصدام وشاءوا الا يتحولوا الى هنود القرن العشرين الحمر أو زنوج القرن الحادي والعشرين .

اما عن المواجهة النووية التي تحتفظ بها الولايات كاحتياطي اخير للتهديد ، فتلك فيجوهرها هي سياسة « صعق الفئران » كما تسميها هي نفسها . وهي سياسة تستهدف تكوين وتنمية « عقدة نووية » عند

العرب ، تشل كل عقولهم وأعصابهم وعضلاتهم عـن الحركة التحريرية الجادة الى الابد . وهذه السياسة الخبيثة ، التي تستثمر جـو الوفاق الآن كما استغلت جو الحرب الباردة من قبل ، لـم تستخدم قط في أي منطقة او ازمة بمثل الكثافة والعلنية والتكرار التي استخدمت بها مـع العرب بالذات . انها قطعة من الحرب النفسية المدروسة ، ولكن المكذوبة .

كذلك فان توازن القوى المظمى الراهن ووفاق الدولتين الاعظم الحالي الذي لم يحل على اية حال دون الحروب المحلية او ان يفرض التحريـر نفسـه ، ليس بحال من ثوابت السياسة المطلقة ، بل ستطرأ عليـه حتما كثير مـن المتغيرات في المستقبل . وقد يكون مـن الصعب التنبؤ بهـذه المتغيرات ، لكن من الخطا ان نخطط للمستقبل دون ان ناخذها في الاعتبار. وعلى سبيل المثال ، ففي ١٩٩٠ ، كما يتنبأ هرمان كان Kahn ، لـن تكون القوتان الاعظم محتدرتين للقوة العالمية مثلما تفعلان اليوم . ان التاريخ لايعقم ابدا والتغير لايتوقف قط .

وخلاصة القول انه لاحل للصراع المعقد والملتق الا بالقوة المسلحـة ، بالحل العسكري إلى مداه وحتى منتهاه . فاذا ما نجح العرب مستقبـلا خلال ربع او نصف القرن القادم في فرضه على اسرائيل وامريكا ، فسوف يعيد التاريخ نفسه وتفرض قوانين دورة الاستعمار الاستيطاني نفسها : المستعمرون الصهيونيون في فلسطين المحتلة يغادرون بالجملة إلى أوطانهم الاصلية : البعض ، خاصة من الأشكناز ، الى دول أوربا ، والبعض خاصة من السفارديم واليهود الشرقيين الى الدول العربية ، ولكن الاغلبية مـن الجميع يقينا الى امريكا . واذا كانت بعض الدول الاوربية (التي رحبت أصلا بقيام اسرائيل تخلصا من يهودها) لن تسعد كثيرا بعودتهم اليهـا ، فمعلوم ان هؤلاء بدورهم لا يسعون اليها او يسعدون بها أكثـر وعليهـا يفضلون دائما أمريكا . كذلك فان الدول العربية لاتمانع في عـودة يهودها المهاجرين ، وهذا يحل مشكلة معظم اليهود الشرقيين ويعيدهـم حيث كانوا قبل ١٩٤٨ . وقد اتخذ السودان بادرة طيبة وذكية في هذا الصدد حين اعلن مؤخرا فتح ابوابه لعودة يهوده الذين غادروه الى اسرائيل . غير ان السواد الاعظم من المستعمرين الصهيونيين ، نحن نجزم ، سيتجه مباشرة إلى الولايات المتحدة التي ، لا أقل مما فعلت مع اللاجئين الفيتناميين بعد

الهزيمة ، سوف تقيم اكبر جسر بحري وجوي لنقلهم اليها وفتح ابوابها لهم .

من اسرائيل الى امريكا

إن أمريكا تتحمل اليوم عبءالرجل الاسرائيلي كاملا وفادحاً ــ راضية او راغمة لايهم ــ ولكنها حين تتعرض لعدة نكسات سياسية وعسكرية حقيقية تهدد مصالحها الاقليمية وهيبتها الدولية ستتغير عقليتها ونظرتها الى المشروع الاسرائيلي من أساسه . فوئيدا ولكن اكيدا ، وبصعوبة قاسية ولكنها صحية ، ستدرك عقم استراتيجيتها العظمى التقليدية : لم تكسب باسرائيل ولم تكسب العرب ، النزيف المادي المطرد على مواردها بدميها دون أن تنقذ اسرائيل من الانهيار مع ذلك .. الخ . اي أنها ستكتشف أن اسرائيل هي أسوا استثمار اقتصادي ومادي قامت به دون أن يقدم اي عائد سياسي او استراتيجي في المقابل ، وانه لامعنى لان تظل اسرائيل الى الأبد « عبء الرجل الامريكي » .

وبعد صراعات داخلية تشنجية حادة بل رهيبة لامفر منها في جسم الامة الوطني (وعقلها وقلبها ايضا)، ستكتشف تدريجيا ان اعظم استثمار اقتصادي وسياسي ، مادي وبشري ، يمكن ان تمارسه بصدد اسرائيل هو ان « تستضيفها » على ارضها وتوطنها داخل رقعتها السياسية . في الشرق الاوسط ، اسرائيل عبء وعالة على الولايات وقوة مطروحة منها؛ ولكنها على الارض الامريكية قوة مضافة اليها وطاقة بشرية ذهنية وعاملة مفيدة جدا . فكر فقط ، سيقول الامريكي العادي لنفسه يومئذ ، في عشرات وربما مئات بلايين الدولارات التي انفقت هباء في المشروع الاسرائيلي الفاشل على ارض فلسطين ، لو انها كانت قد استثمرت برأس المال نفسه وبالقوة البشرية اليهودية نفسها على الارض الامريكية ،اية ارباح وعائد وقيمة مضافة !

وبعبارة اخرى ، فاذا وجدت أمريكا أن لامفر لها ولاسرائيل معهما من الانسحاب من المنطقة والخروج من الصراع العقيم يوما ما والتخلي عن استمرار محاولة فرض وجودهما على العرب ، فانها لن تجد مفرا من ان تقدم لاسرائيل البديل الكامل والحل الجديد ، مثلما تفعل دائما مع

حلفائها حين ينهزمون معها ، كلاجئي فيتنام مثلا ، بأن تقدم لهم وطنا وبديلا على ارضها .

إن هذا الحل لا يبدو منطقيا اكثر مما يبدو في حالة الإسرائيليين بالذات . فالجانبان كلاهما من أصول أوربية بيضاء واحدة وينتمون إلى حضارة الغرب الواحدة . إنهم شيء واحد متجانس انفصل فقط بالانشطار الجغرافي . وإذا كان اليهود كوزموبوليتانيين بالطبع إلى أقصى حد ، أي عالميين في انتشارهم وعلاقاتهم وخبراتهم ، فإن امريكا هي بوتقة العالم بلا جدال . وإذا كان اليهود عينات ونماذج ميكروسكوبية قزمية أساسا من كل شعوب الدنيا مبعثرة في كل أرجاء العالم ودوله ، فإن امريكا هي كذلك عينات ونماذج أيضا — وإن تكن غالبا ماكروسكوبية ضخمة — من كل شعوب الدنيا إلا انها مجمعة في دولة واحدة هي كبرى دول الأرض .

وعلى هذا فإن حلول الجسم البشري الإسرائيلي على الجسم البشري الأمريكي كجزء من الأمة الكبرى المختلطة المتعددة الأجناس والأديان شيء منطقي تماما . لاسيما أن الجزء الأكبر من الأسرة اليهودية هو هناك من قبل بالفعل جزءا من الأسرة الأمريكية الواسعة . وبصيغة أخرى ، فإن هذا الحلول هو أساسا جمع لشمل الأسرة اليهودية الكاملة ولحاق بالعائلة الأم في وطنها الأب قبل أن تكون ضياعا في الأسرة الأمريكية الأكبر . وإذا كانت هناك تلك العلاقة الحميمة بل المحمومة بين أمريكا وإسرائيل التي تكاد تصل إلى حد التوحيد السياسي والاقتصادي ، فلن يكون لها بديل عاقل أو معقول سوى أن تؤول إلى نوع من التوحيد الجسدي والبشري عن طريق حلول إسرائيل عضوا في الجسم السياسي الأمريكي .

أفلا تبحث أمريكا الآن عن « الحل الأمريكي » ؟ حسنا ، لم لا يكون الحل الأمريكي في المدى البعيد هو الحلول بأمريكا ؟ أليست مشكلة امريكا الراهنة في الشرق الأوسط هي ما تعده مشكلة « تعدد الزوجات » ، أعني محاولة الجمع دون جدوى بين صداقة إسرائيل وصداقة العرب ، أو ما يعده العرب محاولة الجمع المستحيلة والآثمة بين الزوجة الشرعية

والعشيقة السرية في بيت واحد ؟ حسنا ؟ ، الا يكون الحل السليم هو بأن تضم أمريكا زوجتها الشرعية في بيت الزوجية الشرعي الولايات المتحـدة ؟

بعبارة اخرى ، إذا كانت أمريكا تبحث عن « الحل الوسط » في الشرق الأوسط وذلك بتقسيم الوطن العربي بين اصحابه الشرعيين والغزاة الدخلاء المعتدين ، وكان ذلك مرفوضا ومستحيلا إلى الابـد، فإن الحل الوسط السليم والمنطقي لا يبدو إلا أن تتقاسم هي وطنها مع أصحابها المغتصبين . وإذا كانوا اليوم يكثرون لنا من اقتباس حكمـة « عش ودع الآخرين يعيشوا » ، فنحن نقرؤها لهم « عش أيهاالإسرائيلي فيوطنك الطبيعي أمريكا ودع الفلسطيني يعش فيوطنهالأب فلسطين»...

إن امريكا كما يقال ، وهو قول صحيح إلى حد بعيد ، هي التـي تملك معظم أوراق اللعب في ازمة الشرق الأوسط وتملك معهاحلها . ونحن نقول إن هذه الأوراق وهذا الحل إنما هو إن تقدم مهجرها مهجراً ليهود الشتات الإسرائيلي . إن امريكا ، إذا استعرنا قاموس الأنثروبولوجيين، تلعب اليوم بالنسبة لإسرائيل دور « الأب الاجتماعي » ، فهي تتبناها على البعد ماديا واقتصاديا وعسكريا وامنيا وسياسيا ... الخ . فإذا كان قد ثبت فشل هذا الدور ، افليس البديل الطبيعي هو دور «الأب البيولوجي » ، اي أن تتحول إلى تبنيها جسديا وفيزيقيا في ذات احضانها وحجرها وكنفها في عقر دارها ؟

ثم إذا كانت أمريكا تعد نفسها حقا مسئولة عن أمن الإسرائيليين في دولتهم المسروقة ، فإن التفسير الحق لهذه المسئولية لا يمكن إلا ان يكون بأن توفر لهم مكانا مشروعا في دولتها الآمنة . ولقد تضيق أمريكا ذرعا بالتزامها الإسرائيلي في يوم ما ، ولكنها لن تضيق بهم ارضا فيأي يوم . باختصار نهائي ، هل يوجد حل منطقي ، سوي ، عملي ، إلا ان تتحول إسرائيل من « الحماية الأمريكية » هنا حاليا إلى « الرعوية الأمريكية » هناك مستقبلا ؟

ونبادر فنقول ، وإن كنا بداهة في غنى عن القول ، إن مثل هـذه العملية ، حتى كمجرد قناعة مبدئية ، لن تتم سلميا أو بسهولة ، بـل لابد ان تكون جراحة عظمى وعظمية ! رهيبة من خلال معركة ضارية دامية بالغة الطول والدرامية ، ليس فقط على مستوى واحد ولكـن على ثلاثة مستويات : بين العرب وإسرائيل ، بين العرب وأمريكـا ، وأخيرا ولكن ليس آخرا ودون اية غرابة او دهشة بين إسرائيل وأمريكا، نعم إسرائيل وأمريكا . فإذا كان الصراع المسلح مفهوما على المستويين الاولين بدرجة او بأخرى ، فقد يبدو الصراع غريبا على المستوى الاخير، ولكن الحقيقة انه وارد والمجابهة الحرجة حتمية .

اثناء اكتوبر لم تتورع إسرائيل عن أن تسب أوربا الغربية بأقذع الالفاظ وابشع التهم ، الخيانة ، والغدر ، الجبن في مواجهة الشيوخ العرب ، وانها باعت الدم اليهودي من أجل البترول العربي ... الخ. وكان ذلك كله لمجرد انها وقفت على الحياد النسبي الخفيف ولم تنحز كلية في صف العدوان الإسرائيلي . وبعد اكتوبر ، اثناء محاولات كيسينجر للفصل بين القوات ، لم تتردد كذلك في مهاجمة أمريكا علنا وبضراوة ورددت قاموس التخلي ، الخديعة ، الخيانة ... الخ . ومـا زالـت إسرائيل ، بجيشها الصهيوني المعبا داخل امريكا ، تشن حربا شعواء على الولايات لترغمها على العودة إلى « الولاء » المطلق « لقضيتها » المزعومة (طالبوا اخيرا بتأثيم وحرمان كيسينجر دينيا ، لانه بدل ان ينظر إلى مصالحهم بنسبة ١٠٠٪ ، نظر إليها بنسبة ٩٩٪ فقط !) . ومن المحقق ان هذه الحملات سوف تزداد شراسة وعدوانية وجهرا كلما تقدمت امريكا في محاولاتها للتسوية السلمية لأزمة الشرق الأوسط، على تواضع هذه المحاولات وتلك التسوية تواضعا يجعلها غير ذات جدوى أو قيمة بالنسبة للعرب .

لهذا نستطيع بسهولة أن نتصور رد فعل الإسرائيليين ــ وهـم اساتذة فن الهيستيريا الجماعية وعلم الحملات الدعائية المسعورة منـذ عيسى حتى آيخمان ــ إذا ما حاول احد مجرد مناقشة حـل التهجير

الشامل إلى أمريكا . فالصهيونية التي عاشت على استثمار عقدة ضد السامية وتضخيمها ، وعقدة الذنب والابتزاز بها ، والتي تستبقي استبقاء عقلية وظروف الانعزالية والاضطهاد القديمة بل وتحاول إحياءها من جديد حيث اندثرت ، الصهيونية تحارب بجنون كل اتجاهات « الذوبان Assimilation وعواملها ودواعيها ودعاتها . إنها تعلم انه لم يعد الآن ثمة شيء « كمشكلة يهودية » ، ثمة الآن فقط — كما صرح المستشار النمسوي اليهودي كرايسكي — «مشكلة فلسطينية».

وإذا كانت عملية الذوبان والاختلاط والاندماج هي منطق وواقع العصر الحديث والمجتمع المتطور المفتوح الذي تجاوز كل عقد الماضي ورواسب التخلف الفكري والعقائدي ، فإنها لو مضت إلى نهايتها استكون نهاية الصهيونية بل واليهودية ذاتها ايضا . فإذا علمنا ان عملية الذوبان هذه تصل إلى قمتها في البوتقة الأمريكية (من سواها ! ؟) ، ادركنا مدى ذعر الصهيونية عامة والصهيونية الأمريكية خاصة من احتمالات المستقبل اليهودي في الولايات المتحدة . ومنذ بضع سنين ، بعد يونيو وقبل اكتوبر، **كانت جولدا مايير تصرخ في يهود أمريكا اثناء إحدى زياراتها المتكررة للولايات المتحدة منذرة انه في خلال جيل او اثنين سيتقلص يهود الولايات** المتحدة إلى ٥ر١ مليون نسمة ...

نستطيع إذن ان نتصور شراسة ومدى هيسترية رد الفعل الإسرائيلي حين تطرح أو تفرض عليهم يوما ما فكرة الوطن البديل في دولة الولايات المتحدة . لكننا نفترض ، بحسب سياق منطقنا هنا ، ان الموقف في الشرق الأوسط قد حسم بقوة السلاح ولم يعد امام إسرائيل او امريكا خيار أو بديل . ولا داعي لان نمضي إلى ابعد من هذا في تصور تداعي الأحداث والتعقيدات ، لاسيما اننا نفترض عقوداً لوقوع هذه التحولات . غير ان الذي يمكن ان نختتم به هو ان علينا ، على الفكر العربي بمثقفيه ، على الإعلام العربي بأدواته ، وعلى السياسة العربية بقياداتها ، ان تبدأ بلا تردد في نشر الفكرة والدعوة من حيث المبدأ بالتدريج

وعلى نطاق متوسع باطراد حتى تتخلل العقل العالمي إلى ان تغزوه فتمهد للعمل الإيجابي في وقته حين ينضج .

إن الإعلام هو مزرعة السياسة ، أعني أنه مرحلة الإعداد وتمهيد الارض وإلقاء البذرة إلى ان يحين دور العمل السياسي . ولنذكر ان الصهيونية لم تستول على فلسطين غصبا في عام واحد سنة ١٩٤٨ ، وإنما في خمسين عاما من الدعاية والإعلام وتشبع العقل العالمي بدعوتها، حتى إذا كانت الضربة المباشرة في ذلك العام لم تزد على أن تكون تحصيل حاصل وتقنينا لامر واقع .

لا الاستنكار ولا الاستهزاء ، لا الكبر الغاضب أو المقاومة الهيستيرية التي لاشك سنلقاها ، ينبغي لها ان تثنينا او تشككنا في انفسنا او في معقولية ومشروعية وعلمية دعوانا ، فالرهان افدح من الخطر ، والجائزة اكبر من الرهان ، والأمر كله في النهاية ان نكون أو لانكون . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ...

★ ★ ★

مشكلاتنا القوميّة

حافظ الجمالي

ليس من الممكن ، في اية لحظة من لحظات التاريخ ، وفي اي مستوى من مستويات الحضارة ، أن يخلو العالم من المشكلات . ولقد يخطر بالبال ان الأمم المتقدمة حلت مشكلاتها ، وانهت معركتها مع الحياة . ولكن الواقع يثبت ان هذه الأمم تعاني الكثير من المشكلات الخطيرة ، كالأزمة الاقتصادية ، والمالية ، وازمة الطاقة ، وازمة التلوث الناشيء عن الافراط في التصنيع وغير ذلك كثير . فاذا لم يكن هنالك مجال للظن بأن المشاكل سوف تنتهي يوما ما ، بانتصار الانسان انتصاراً تاماً ، على كل ما يعرقل سيادته على الكون ، فان من الممكن ولاشك ، ان نقول : إن لكل صورة من صور الحياة الاجتماعية والانسانية ، نصيبها من المشكلات . فاذا تغيرت هذه الصورة ، تغيرت معها مشكلاتها ، أو نوعية ما تعانيه من الازمات، اما ان توجد حياة إنسانية أو إجتماعية بلا مشكلات ، فنظن ان علينا ان ننتظر ذلك في حياة اخرى ، غير حياتنا على الأرض .

ولئن كانت طبيعة الحياة ملازمة لمشكلاتها ملازمة محتومة ، فانه ليس باقل صحة من ذلك أن نقول إن من المشكلات ما يبدو أخطر من بعضه الآخر وقد تصل هذه الخطورة احيانا إلى مستوى تكون فيه الحياة في مجابهة صريحة ، صارخة ، مع الموت . وهنا تتجلى عبقرية الأمة ، وقدراتها الحية الأصيلة ، على الدخول في هذه المجابهة بنجاح ، والخروج منها الى النصر .

وبطبيعة الحال فإن الامة العربية ، اليوم ، كغيرها من الامم ، تعاني من مشكلات كثيرة ، هي بالتحديد ، مانسميه مشكلاتنا القومية . وهي كثيرة

وخطيرة جداً ، وليس من التهويل في شيء أن نسميها « مصيرية » وغايتنا في هذا الموضوع ان نكشف ، بمقدار ما يتاح لعقولنا ان تفهم ، غايتنا ان نكشف عن اهم هذه المشكلات ، وابرازها بالوضوح الكافي ، والشفوف المناسب ، لعل في ذلك ما يساعد اجيالنا المقبلة على رؤية واضحة للعالم الذي هم فيه ، وللأخطار التي تحيق بهم ، ولمقدار الجهد الذي ينبغي أن يبذلوه ، هم والذين بعدهم ، للتغلب عليها .

ومن المبالغة ، الى حد كبير ، أن نقول : إن ما سوف نتحدث عنه من هذه المشكلات القومية ، أمرغير معروف لدى الكثيرين الكثيرين . بل لعل من الصحيح القول : لعل الكثيرين يعرفون عن هذا الموضوع ، أكثر بكثير مما نعرف . ولكن هؤلاء بخلاء ، نوعا ما ، في الادلاء بما يعرفون ، بحيث يبدو وكاننا نتصدى لحديث ، قلما يرد فيما نسمعه من اقوال او نقرؤه من كتب . غير اننا نعرف من جهة اخرى ، ان الاحاديث المتبادلة بين الناس ، المثقفين أوغير المثقفين ، تدل على أن مشاكلنا ليست مجهولة بالمعنى الصحيح بل هي ـ بصورة عامة ـ معروفة إلى حد كبير .

ومع ذلك فان ظاهرة عزوف الباحثين والمفكرين عن التصدي لمشاكلنا القومية ، والإفاضة في بحثها ظاهرة غريبة وغير غريبة معاً . حتى لقد وجد من يقول : انه لو نزل إنسان من السماء ، لايعرف شيئاً عن هذه الأرض ، وقرأ ما كتب عن مشكلة فلسطين ، في اللغة الفرنسية ، أو الانجليزية أو الالمانية او الإيطالية ، وقارن ذلك بما كتب عنها في اللغة العربية ، لظن انها مشكلة تخص الفرنسيين ، أو الإنجليز او الإيطاليين ، **أكثر مما تخص العرب ، كأن العرب آخر من يعنيهم أمرها لقلة ما كتبوا** عنها ، مما هو جدي رصين ، جدير بأن يقرأ حقا . ولا أدل على ذلك من أن احداً منا لايعرف حقاماذاكانت وقائعحرب حزيرانعام١٩٦٧ ، من**المصادر العربية،** إلا أن الذي يعرف شيئاً ما عنها ، **انما يعرفه من المصادر الأجنبية** . واكاد أقول إني لم أقرأ عما سمي بالنكسة إلا كتباً قليلة ، أذكر منها واحداً صدر في **المملكة العربية السعودية** ، يشتمل على آراء لفيف من رجال

السياسة البارزين ، حول هذه النكسة ، وكتاباً آخر **لقسطنطين زريق** بعنوان : عودة إلى معنى النكبة ، يعيد فيه البحث من جديد ، مشكلة فلسطين، في اطار الأفكار التي كان قد عرضها سابقاً في كتابه معنى النكبة ، الذي كان تعليقا على أحداث عام ٤٨ ، وكتاباً ثالثاً بقلم الدكتور **صادق جلال العظم،** بعنوان **النقد الذاتي بعد الهزيمة ،** اما ما تنشره مؤسسة الدراسات الفلسطينية من دراسات جديدة حول مؤسسات الدولة الاسرائيلية، واحزابها وشخصياتها ، واقتصادها ، ... الخ فهو جهد مشكور جداً ، ولكنه لا يتصل مباشرة **بالحديث عن النكسه او النكبة ــ أسبابهــا ، وصــور** معالجتها .

ولاشك ان هذا الذي كتبه المفكرون العرب ، حول موضوع النكسة **واسبابها ، قليل جداً ، إذا قيس بما كتب عنهــا ، في اللغات الأجنبية .** **وهذا غريب طبعاً . وكيف لا يكون غريباً أن يتصدى الاجانب لبحث قضيتنا** **اكثر منا ؟ إلا انه يبدو غير غريب إذا لاحظنا ، ان الذي يريد أن يكتب فــي** **مثل هذا الموضوع ، سيتعرض لحساسيات كثيرة ، قد تورده موارد الأذى.** **واظن** ان هذا من بعض مشاكلنا ، ولعله في القلب منها ، وكيف لا يكــون التهرب من الحقيقة ، وحجبها عمن تخصهم بالدرجة الاولى ، وعمن سيكون عليهم ان يدفعوا من أموالهم وارواحهم من أجلها ، مشكلة جديةكبرى.

● ● ●

ولكن لنتساءل الآن : الا يمكن ان نقف عند مشكلة واحدة من مشاكلنا، كمشكلة فلسطين مثلاً ، وان نتعمق في دراستها ، واسبابها ، ومقتضياتها، لنستخلص منها وحدها ، جملة المشاكل القومية الأخرى ؟ أما نحن فنعتقد ان هذا ممكن جداً ، لان هذه المشكلة كشفت دفعة واحدة عن جملة الأورام، والأمراض، والمفاسد، والمشكلات التي تعيش بهاحياتنا الاجتماعية شريطة الا **نظن ان هذه الأمراض نتيجة للوجود الإسرائيلي ،** بل لعل الاصح **ان** نقول ان العكس تماماً هو الصحيح ، اي ان هذه الأمراض هي سبب الوجود الإسرائيلي ، وليس العكس أبدا . ومن هنا نطل على افكار كثيرة

خاطئة جداً ، ولكنها شائعة جداً ايضاً . من ذلك أن نقول مثلاً : إن الاستعمار مزق وحدتنا ، وشتت شملنا ، وحال دون نهضتنا ،وبصورة عامة ، ما من مرض فينا ولا علة ولا مصيبة الا سببها الاستعمار . وعلىكل من لا يزال يظن هذا الظن نجيب بأن **الجراثيم شائعة في كل** مكان ، ولكنها لا تمرض احداً من خلق الله ، غير ذاك الذي **ضعفت مقاومته** ، ووهنعزمه، فاستطاعت التسلل اليه ، لا لانها هي القوية ، ولكن لأنه هو الضعيف. غير ان التطهر الداخلي من العيوب ، والقاء التبعة فيها على الآخر ، أو الآخرين ، آلية نفسية معروفة ، درج الاصطلاح في عالم التحليل النفسي، على تسميتها بالإضفاء . ومن منا لا يعرف حال هؤلاء المتسممينبالكحول، الذين يسمعون اصواتاً في اذانهم ، من اثرالتسمم ، فيحسبون – بكل براءة – ان هنالك اعداداً يحيطون بهم من كل جانب ، ويسمعونهم كلمات التهديد والوعيد ؟

ولكن لئن صح أنه يمكن الاكتفاء بمشكلة واحدة هي مشكلة فلسطين، واستخلاص سائر مشكلاتنا منها ، فانه يجب الا ننسى ان هذه المشكلات ليست بحديثة ابداً . ولعله قد دخل في روعنا جميعاً ان العصر الذهبي للأمة العربية هو عصر الصدر الاول من الدولة العباسية . وكثيراً ما يقال: اننا بلغنا في ذلك الحين اوج الحضارة ، وسمونا على مخلوقات الله جميعاً، حتى ليروى ان هرون الرشيد راى سحابه تمر في السماء ، فقال لها : سيري حيثما شئت فلن تدري ماءك إلا في اراضينا . ولكننا مع ذلك ننسى ان دولة بيزنطة التي كانت غارقة في الف مشكلة دينية وعسكرية ، كانت قادرة على تحدي هرون الرشيد والذين بعده في حرب كانت اكثر الأحيان سجالا . غير اننا نعرف ، من جهة اخرى ، ان الهجمات البيزنطية على الاسطول العربي ، لم تقف ابداً ، وانها في آخر مراحلها ، في الثلث الأول من القرن العاشر ، قضت على هذا الاسطول نهائياً ، وإن المدن الايطالية المختلفة مثل (امالفي ، والبندقية ، ثم جبنوا وبيزا في القرن الحاديعشر) هي التي قامت بمهمات التجارة والنقل البحري بين الشرق والغرب منذ

ذلك الحين ، مما كان أساساً لنهضتها وثرواتها وعمرانها ، بمقدار ما كان أساساً لفقر البلاد العربية . (١)

وهنالك كتاب قديم نسبياً لأمين الريحاني ، صدر في بيروت عام ١٩٢٨ بعنوان النكبات ، وقد اضاف المؤلف الى هذا العنوان جملة اضافية هي : خلاصة تاريخ سورية منذ العهد الأول بعد الطوفان إلى عهد الجمهورية بلبنان . ولكنه في الصفحات الأولى يأتي بكلمات مأثورة ، منها كلمة لجمال الدين الأفغاني جاء فيها ما يأتي :

« لا اريد ان أسر المسلمين بكلمة ! هؤلاء قوم ، كلما قال لهم الانسان: كونوا بني آدم ، قالوا : إن آباءنا كانوا كذا وكذا ، فعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة ، لا ينفي ما هم عليه اليوم (ومنذ زمن طويل) من الخمول والضعة . وكلما اراد الشرقيون الاعتذار عماهم فيه من الخمول الحاضر ، قالوا : افلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ » .

ولكن الطريف في الكتاب انه اذ يسرد تاريخ سورية تحت عنوان النكبات، يذكر الدولة الأموية ، والحكبية ، والصليبيين وهول هولاكو ، ودولة المماليك ، وأهوال تيمور لنك ، وآل عثمان ، والدرك الأمصى ، ويتحرى في تاريخ هؤلاء جمعياً ما كان حرياً بالاستنكار ، فيجد مثلاً أن اربعة فقط من خلفاء الدولة الأموية كانوا جديرين بالحكم ، وأما الباقون العشرة ، فقد كان العجز قيد الصالحين منهم . »

غير أننا نعرف من غير كتاب معيّن أن الدولة العربية عرفت منذ الاسلام عهداً سريعاً من الصعود ، لم يأت بعده إلا ما هو تزول عنه ، وتردّ فيه . واذا نحن قارنا تطور البلاد الأوروبية مثلاً ، بتطور البلاد العربية ، خلال التاريخ ، لا حظنا بسهولة ، أن الأولى تتميز على الجملة بتطور صاعد ،

(١) رزق الله هيلان : الثقافة والنمو في سورية . ص : ٤٨ باللغة الفرنسية .

على كل المستويات ، على حين أن الثانية تميّزت بتطور ظل هابطاً بالجملة على كل المستويات . ومهما يكن من الأمر فاننا نستطيع ؛ اعتبار ولاية المعتصم التي دامت حتى عام ٨٤٢ م (٢٢٧ هـ) نهاية العصر الذهبي للدولة العربية ، إذ ان الخلفاء التسعة والعشرين الذين أتوا بعده كانوا ، الى حد كبير ، لعبة في ايدي المتسلطين من القواد العسكريين ، غير العرب ، فضلاً عن بداية التفتت في وحدة الدولة ، وانقسامها الى جملة دول صغيرة ، تحكم كل منها في منطقة تصغر او تكبر ، تبعاً لصور التوازن التي تقوم بينها وبين جاراتها . وإذا دفعنا بالتساهل إلى أقصى حدوده ، قلنا ان بداية الحروب الصليبية عام ١٠٩٥ للميلاد ، يجب أن تكون بالضرورة علامة على فساد كبير اصاب الأمة العربية ، إذ لولا ذلك لما استطاع هؤلاء احتلال اراضي واسعة من قلب الوطن العربي ، واقامة دول فيها ، واجلاء او قتل سكانها الأصليين ، على غير اختلاف واضح في الكثافة السكانية بين البلاد المهاجمة والبلاد المهاجمة . وهذا كله يعني أن ضعف الأمة العربية أو تخلفها عن الأمم الأخرى ، أمر يزيد عمره على الف سنة . ونظن ان من النادر جداً أن تصاب امة بهذا النوع من العقم خلال هذه المدة الطويلة ، التي لم تخرج منها بعد .

وفي راينا ان من أول مشكلاتنا القومية هو هذا الانحدار الكبير الذي اصاب وجودنا القومي ، في مختلف جوانبه . ومن المؤسف أن عقول الكثيرين توهمهم ان الاستعمار هو الذي آذانا كل هذا الاذى ، وان هذا الاستعمار هو الذي عرفناه بعد الحرب العالمية الاولى ، فاذا انفتحت بصيرتهم قليلاً ، عادوا بهذا الاستعمار الى العهد التركي ، وجعلوا كل شيء يبدأ مع هذا الاستعمار ، كان العثمانيين وفدوا الينا ، وكنا في أفضل حال ، فلم يصبنا الشر الا على ايديهم .

ولا نريد ان نطيل في هذا الموضوع . حسبنا منه ان نقول إن إحدى مشكلات حياتنا القومية اننا نعيش متخلفين عن الركب العالمي منذ عشرة قرون كاملة ، ولا يشعر أحد ان هنالك حاجة جدية لبحث هذا التخلف ، واسبابه ، ومقدماته وعوامله . لكن المشكلة الاكبر من ذلك اننا ما نزال

نعيش هذا التخلف ، دون أن يعرف أحد ، متى نستطيع التخلص منه ، والقضاء عليه . ولا أعرف أنا شخصياً أن هنالك دراسة جدية لهذه المشكلة الطويلة العمر ، فان وجدت ـ على غير علم مني ـ فلا أعرف أبداً أنها وضعت كأساس لخطة عمل سياسي واجتماعي ، يضع في حسابه الا تكون هنالك عودة جديدة لأسباب التخلف ، أو تلافيها ، أو اجتثاثها من حياتنا. ولئن كنا نجد هنا أو هناك خطط تنمية اقتصادية تريد مضاعفة الدخل القومي في غضون عشر سنوات أو عشرين ، أو أكثر أو اقل ، فما أظن اننا نجد أية **خطة جدية لبعث قومي ، أخلاقي ، يعيد الى الانسان العربي مقومات وجود** سليم ، وحياة صحيحة ، في إطار نظرة مستقبلية واضحة. وإنها لمشكلة كبيرة حقاً أن نجهل أو نتجاهل هذه الضرورة ، وأن نظن المستقبل ينقاد لارادتنا الغامضة في التقدم ، لا لشيء إلا لأننا نتمنى عليه ذلك .

• • •

ولكن لنعد الآن إلى المشكلة الاساسية التي قلنا إنها الأظهر والأبرز من كل المشكلات ، والتي لامجال للجدال في أنها مشكلة ، أو غير مشكلة ، والتي إذا نحن حللناها بالتفصيل والتعمق رأيناها تطل على كل مشكلاتنا الأخرى. إن اسم هذه المشكلة هو « إسرائيل » . ولسنا نقدر ان هنالك من يجهل ان إسرائيل تمثل خطراً ما بعده خطر ، لا على تقدم الامة العربية وحده ، كما كانت الحال منذ عام ٤٨ حتى الآن ـ (فلقد انفقت سورية في أبسط تقدير ما يزيد عن ٢٥ مليار دولار ، وانفقت مصر ما يزيد عن ضعف هذا المبلغ على الجيش وسلاحه ، عوضاً عن أن ينفق على تطوير البلاد ، ومن الواضح أن كل مشاريع سورية الانمائية لا يمكن أن تستنفد ما انفق وينفق على التسلح) ، بل انها كذلك خطر على وجود الأمة العربية ، وسلامة اراضيها . وحسبنا ان نذكر أن إسرائيل التي خلقتها الامم المتحدة تحتل ١٤ الف كم٢ ، وفي نهاية حرب عام ٤٨ ، أصبحت ٢١ الفا . وفي حرب عام ٦٧ احتلت الف كم٢ من الجولان ، وخمسة الاف من الضفة الغربية ، وسيناء كلها التي تقدر مساحتها بستين الف كم٢ . ولم يعد إلينا من كل

هذه الاراضي إلا ماهو في حدود ٢٠٠ كم٢ من الجولان . وحوالي ٤٠٠ — ٥٠٠ كم٢ من سيناء من خلال اتفاقات الفصل بين القوات .

وعندما تتسع إسرائيل حدوداً، وتقفز بمساحتها ست مرات في غضون ربع قرن ، فان احداً لا يعرف ماذا يمكن أن تفعل في المستقبل . واغلب الظن انها لن تفعل ــ إذا استطاعت ــ الا مثل الذي فعلته في الماضي .

ويقول قسطنطين زريق في كتابه معنى النكبة (ص : ٢٤) « إن المهم ان يستقر في الذهن العربي ، وفي النفس العربية ان الخطر الصهيوني هو الخطر الاعظم على الكيان العربي ، الأخطار الاخرى تتوجه إلى بعض أجزاء هذا الكيان ونواحيه ، أو تشمل العالم العربي وسواه من اجزاء المعمور. أما هذا الخطر فهو موجه الى الكيان العربي بذاته بمجموعه ، بأسس وجوده . فكل ما سواه هين بالنسبة اليه ، ويمكن ان يتسامح به ، اويؤجل حله ، في سبيل دفع هذا الخطر الاشد ، الاشمل ، وصيانة النفس منه» .

ومن الواضح ان الذي يعلي من شأن إسرائيل عسكريا ، هو انها شعب يمثل حضارة متقدمة جدا ، بالنسبة الى الحضارة التي تعرفها البلاد العربية . واذا كان لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، فمن المؤكد ان كل معركة في الظروف الحالية لن تكون أولاً وآخرا ، الا لمصلحة الشعب الاكثر تقدماً ، حتى إذا انقطع عنه وعن رفد الاسلحة من المصادر الخارجية. وبهذا المعنى ، فان اسرائيل ولدت ، وعاشت ، ولا تزال تعيش في حضانة التخلف العربي ، وهي بالتالي نتيجة من نتائجه . ونظن أن المسافة التي تفصلنا عن التقدم ، هي نفس المسافة التي تفصلنا عن القضاء على إسرائيل. إن إسرائيل والتخلف العربي وجهان لحقيقة واحدة ، وكل قضاء جزئي أو كلي على احدهما يعني القضاء الجزئي او الكلي على الآخر .

ولكن السؤال الآن ، هو هل نحن حقا متخلفون ؟ الحقيقة ان هذا السؤال لا يختلف عن تساؤل انسان ما ، وهو في وضح النهار ، عما اذا كان في نهار

ام ليل . يكفي ان نعرف ان حاجة الانسان اليومية تعادل ٢٥٠٠ حريرة ، كي يعمل ويفكر وان متوسط ما يحصل عليه الانسان العربي في مصر ٢٢٠٠ وفي سورية ٢٠٢٠ ، وفي لبنان ٢٤٠٠ وفي تونس والمغرب والجزائر ١٩٢٠ ، وفي العراق ١٧٨٠ مقابل ٣٢٠٠ في الولايات المتحدة الاميركية (احصاءات عام ٥٣ ، من قبل منظمة التغذية الدولية) .

ويحتاج الفرد الى حد أوفى قدره ٣٥كيلو من اللحوم. علما بأن الحاجة الوسطى هي ٦٤ كيلو ، وعلى حين ان الاسترالي يستهلك ١٠٧ كغ ، والفرنسي ٧٢، فان مصر لا تستهلك الا ١٢ كغ، وسورية والعراق لاتستهلك الا ٨ كغ للفرد الواحد .

اما متوسط الدخل الفردي فانه يبلغ ٣٨٤٠ دولارفي الولايات المتحدة و٢٥٠٠ في الكويت ، و ١٩١٠ في بريطانيا و ٧٥٠ في الاتحاد السوفييتي ، و٣٩٩ في لبنان و ٧٥٠ في ليبيا و ١٦٧ في السعودية ، و ١٥٠ في سورية ، و ١٤٠ في مصر ، وفي اليمن السعيد ٩٠ (إحصاءات عام ٦٨) (١) و ٢٦٠٠ دولار في اسرائيل .

ولكن هناك قرينة هامة للتخلف ، نراها فيما نسميه بالاسهام في التقدم العالمي . ولقد بين الدكتور وصفي حجاب في دراسة له عن الفكر العلمي العربي الحديث ، انه عند مراجعة لاحدى المجلات العلمية التلخيصية العالمية التي تنشر نبذة قصيرة عن كل بحث علمي يظهر في المجلات المختصة في جميع انحاء العالم ، وجد أنه من أصل ١٥٠٠ مجلة علمية مشار اليها في هذه المجلة، ليس هناك الا مجلة عربية واحدة هي « **مجلة الجمهورية العربية المتحدة**

---

(١) نقلا عن محاضرة الدكتور عبد الرحمن حميدة ، ملامح التخلف في الوطن العربي . الجزء التاسع من محاضرات الموسم الثقافي « وزارة الثقافة » وتذكر المراجع السورية (سورية الثورة في عالمها الحادي عشر) أن متوسط الدخل السوري يساوي ٨٧٣ ليرسورية، اي ما يقرب من ٢٣٠ دولار في العام . كمايذكر الكتاب السنوي للاوينفرساليس انمعدلات الدخل للفرد الواحد هي ٤٧٦٠ دولارا في امريكا و١٧٩٠ لروسيا و٢١٠٠ لفرنسا و١١٠ للهند.

للكيمياء » كما بين الدكتور حجاب في الدراسة نفسها ان العلماء العرب نشروا في المجلات العلمية العالمية ما يقرب من الف بحث علمي عام ١٩٦٥ كان تسعة اعشارها صادرة عن الجمهورية العربية المتحدة ، وكان القسم الأكبر من العشر الباقي صادرا عن علماء في الجامعة الاميركية في بيروت . اما ما تبقى من ارجاء الوطن العربي الشاسعة فهو من ناحية الانتاج العلمي ، صحراء قاحلة ، مجدبة بكل معنى الكلمة . ويعلق الدكتور حجاب على هذه الوقائع بقوله :

« اذا أخذنا بعين الاعتبار ان سكان البلاد العربية هم في حدود ٣ ٪ من سكان العالم ، وأن الانتاج العالمي سنة ٦٥ هو في حدود المليون ورقة علمية ، نستنتج أن العالم العربي ساهم فقط بمقدار ٣ ٪ من نصيبه حسب التناسب السكاني » (١)

ولئن كان هذا الحديث كله يبرهن على التخلف العربي في كل المستويات ، فان فقراته الاخيرة لتنقلنا مباشرة الى المشكلة الاساسية التي يعاني العالم العربي والتي كانت الثغرة الكبرى المفتوحة التي دخل منها الغزو الأجنبي ، والاستعمار واسرائيل ، وهي ما زالت مفتوحة ، لتدخل الينا مصائب أخرى ، يجب أن نتوقعها كل يوم . أن المشكلة هي ضرورة نقل الحضارة العالمية مادة وروحا .

وتعني الحضارة ، بالدرجة الأولى ، جملة العلوم الحديثة وتطبيقاتها . واذن فلا بد من كسب هذا الإرث الحضاري الذي تعاونت اكثر امم الارض على انتاجه ، قديما ، وانفرد الغرب ، وحده ، بتطويره حديثا . وكان عهد الانحطاط العربي الطويل سببا كبيرا في عزلة شعبنا عن تطورات العلوم الحديثة . فلا بد اذن ان نفعل المستحيل ، لحرق المراحل . والاستيلاء على هذه الكنوز العقلية الضخمة .

الا ان مجرد كسب هذه الثروات ، لايعني شيئا ، اذ سنكون عالة على الغرب ، دوما ، في كل جديد يأتي به فالمهم ليس منتجات العقل ، ولكنه

(١) النقد الذاتي بعد الهزيمة . د . صادق جلال العظم ص : ١١٧

هو العقل نفسه . وعندما نقول ينبغي ان ننقل الحضارة مادة ومعارف ، فاننا نعني بذلك ما قد أصبح معروفا من الحقائق العلمية وتطبيقاتها . أما نقل روح الحضارة، فان لا يعني الا امتلاك صفات الفكر العلمي على مختلف مستويات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . ونظن أننا مازلنا في هذه الناحية في جو عام من الفكر السحري، والخرافي، أو السابق للمنطق، أو البدائي ، والا فكيف نعلل هذا الجفاء الكبير القائم بين العمل، وبين الكفاءة المعدة للقيام به على مختلف مستويات الحياة العامة ؟ وحتى على مستوى رجال التعليم ، فما أقل ما نبذل من جهد لاعدادهم . ولئن كان كل الجهد التربوي ينحصر في تعليم الاطفال القراءة والكتابة بلغة سليمة ، فاظن اننا نجد العناء الكبير في العثور على من نضمن كفاءته بين المعلمين ، من هذه الناحيـــة .

ولقد مات جمال الدين الأفغاني عام ١٨٩٧ ، وكان قد أطلق صيحته التي اشرنا اليها في اول الحديث ، قبل ذلك بكثير . فلو فرضنا أنه بعث حيا من جديد ، أفتراه يطلق صيحته تلك مرة اخرى ، أم لايطلقها . اما أنا فاتمنى من صميم القلب ، أن يجد في مختلف وجوه تطورنا ، ما يغنيه عن اطلاقها مرة ثانية .

وملاحظة اخرى، هي أننا قلنا ان تخلف العرب حال بينهم وبين الاتصال المستمر بتطور العلوم في البلاد الغربية. أفلا يحق لنا ان نتساءل، وقد كنا وهذه البلاد قديما، في مستوى واحد من التقدم او التخلف، لماذا استطاع الغرب ان يتقدم دون أن يحتاج الينا ، ونرى نحن أنه كان لابد لنا من الاتصال به، حتى نظل على صلة بتطوره العلمي والحضاري ، أو لماذا نحتاج اليه في هذا التطور ، وهو لم يحتج الينا ؟

ومن ناحية ثانية ، ها نحن نتصل به ، جملة ، منذ اواخر القرن الثامن عشر ، بعد غزو نابليون مصر ، وقيام محمد علي فيها ، وتكاثر البعثات العلمية الى فرنسا ، أولا ، ثم بالتدريج الى كل البلاد الاوربية . وهذه سورية ، ترسل منذ خمسين سنة ، على الاقل ، طلاب العلم وروداه الى اوربا وأمريكا ؛ حتى لقد أصبح عدد المتخرجين من البلاد الغربية اعدادا

كبيرة حقا . افيلاحظ احدنا اننا ملكنا الحضارة روحا ، وعقلا علميا ؟ فاذا لم يكن ذلك ، أفترانا ملكناها مادة ومعارف وتطبيقات فنية ؟

واذن فان المشكلةالاولى التي تجابهحياتناالقومية بعد إسرائيلمباشرة، هي مشكلة التخلف؛ او ضرورة كسب الحضارة التيلاتزال تنقصنا، والتي كانت سببا أساسيا في تسرب الاستعمار الينا . ولكنا نلاحظالآن ،بعدهذا التحليل ، اننا نبذل ، على مستوى الوطن العربي كله ، جهــوداً ليست بقليلة ، في هذه الناحية ، ومع ذلك فما اقل ما نجني من كل ما نزرع . واظن ان المشكلةلم تعد الآن كسب الحضارة، والاتصال بالغرب من اجلها، بل اصبحت : لماذا لا تؤتي جهودنا كلها ثماراً . فلعل وراء ذلك مشكلةأعمق تتعلق بكياننا الاجتماعي كله ، وهي التي تؤدي لا الى عقم مابذلنا منجهود حتى الآن ، بل الى عقم كل جهد مقبل ايضا ؟

اما المشكلة الثالثة فهي مشكلة التراث القومي ، واستبقاء الصلة به ، والعمل على تعزيزها . ومن المألوف ان نسمع اننا بعد عهود الانحطاط ، فقدنا الكثير من فضائل امتنا ومزاياها ، واضعنا او كدنا نضيع لغتها العظيمة ، وجهلنا كل أو أكثر ما نعتز به في تاريخها ، وأصبح هيناً على الانسان انيأخذ بأي مبدأ يتنافى والوجود القومي، كأنه يشعر أنه ابن لغير امة ، او انه فرد من العالم جملة ، لا من الامة العربية . ولا شك أن هذا التنازل عن الوجود القومي ، يمثل خطرا كبيرا على مستقبل الامةالعربية.

ولا شك ان من حقنا ، مبدئيا ، ان نختار أن نكون عرباً أو غير عرب، كما يختار الولد ، عندما يستقل ماديا عن أبويه ، أن يظل متصلا بأبويه، عطوفا عليهما ، او ان يتجاهلهما . لكن هذا الاختيار النظري ، قلما يكون ممكنا عمليا ، فالقلب والعاطفة وطبيعة الاشياء تقضي جميعــا باستبقاء الصلة بين الابناء وذويهم ، وإعزازها فوق كل شيء آخر ، ولعل اســوأ مظاهر السقوط الاخلاقي ، أن يكون الامر غير ذلك .

غير ان هذه المشكلة ليست بالبساطة التي تظهر بها مباشرة . إذ ماذا تعني بالتراث القومي،وما هي سماته البارزة، وكيف نعمل علىالاتصالبه،

واي سماته يجب أن ننميها في نفوسنا ، ونغرسها في حياتنا ؟ أولا يمكن أن تكون خير وسيلة لحفظ التراث هي في تجاوزه ، لا الوقوف عنده ؟ وعندئذ ماهو معنى هذا التجاوز ؛ وهل يعني مثلا ان نتكلم بدون اعراب، أو نستغني عن الفصحى بالعامية ، أو ان نحتفظ بهما ؟

ولقد عادت أوروبا الى مخلفات الاغارقة في الادب والعلم والفلسفة ، وضمت اليها مخلفات الرومان التي سارت على نهجها . ولا يكاد الانسان يقرأ كتابا علميا او ادبيا ، ويمر باسم سقراط ، وافلاطون وارسطو ، واقليدس ، وفيثاغوروس ، وبطليموس ، وسوفوكل ، واسخيل ، وأوريبيد وهومير وهيرودوت ، حتى ليظن الانسان ان الشعوب الأوروبية كلها تعترف بالأبوة الروحية، للأغارقة، على رغم اختلاف العرق والجنس، والدين واللغة، فهل يكون من دواعي العظمة لدينا ، ان نتجاوز الماضي ذلك التجاوز الذي ينسينا عمر بن الخطاب ، والغزالي ، وابن رشد ، وابن الطفيل ، وابن خلدون ، والطبري ، والزمخشري وامثال هؤلاء جميعا ؟

وعلى كل حال فان التراث العربي يشمل القيم الاخلاقية والروحية والفنية التي عرفها الماضي ، وقدّم عنها نماذج موضوعية القيمة . ولهذا فقد تحتم دراسة اللغة العربية ، وكنوزها الأدبية ، وتاريخها وفنونها ، وكل ما ارتفعت به الى المستوى العالمي ، لا لمجرد الاطلاع فحسب ، كما نطلع على ما فعلته الامم الاخرى ؛ بل لنعرف به انفسنا ، وصور عبقريتنا، ونواحي تفوقنا أو تفردنا ، ومجالات ضعفنا أو قصورنا ، حتى نتبنى من ذلك ، في داخل نفوسنا ، ما هو جدير بالتبني ، والانطلاق فيه لمزيد من التعبير عنه ، بالصور التي نستطيعها ، فاذا لم نفعل ذلك ، فلا شك اننا نكون مواطنين عالميين ، او بلا شخصية معينة ، ولا نكون ابدا مواطنين عربا .

وعلى كل حال فان مشكلة تحليل التراث ، وعملية الانتقاء الضرورية للثروات الجدية فيه ، تظل معروضة للبحث ، ولا ندعي نحن اننا قلنا آخر كلمة فيها ، إلا اننا ندعي مع ذلك ان تراثنا العربي ، جزء لا يتجزأ من

شخصيتنا ، وانه لو لم يكن لنا هذا التراث العظيم ، وما نحمله منه بالضرورة ، وأكاد اقول بالرغم منا ، فان الجزائر كان يمكن ان تنحل في فرنسا ، والعرب هنا كان يمكن أن يذوبوا في التيار الصليبي سابقا ، وانهم الآن معدّين كذلك للانحلال في اي تيار آخر رافد ، لولا الحصانة التي يهبنا اياها ذلك التراث ، الذي يعيش في دمنا ولحمنا قبل أن يعيش في عقولنا .

ولئن كان **التراث يعصمنا** من الانحلال ، فمن المؤكد أنه لايضمن لنا وحده الارتقاء الى مستوى مجابهة الأخطار الكبيرة المحيقة بنا ، ولهذا كان **الطموح العربي، يتجه منذ مطلع** هذا القرن الى **انشاء مجتمع تقدمي.** ولئن كان انشاء هذا المجتمع ، والوصول الى السلطة لتحقيقه ، **مشكلة** في الماضي ، فان هذه المشكلة الآن قد حلت بالنسبة لأهم البلدان العربية، واصبحت السلطة ، مبدئيا ، في يد القوى التقدمية .

إلا ان المشكلة الاهم تبرز الآن ، باكبر حدة ممكنة : ان لم يكن على صعيد **الراي العام** ، بالمعنى الواسع ، فعلى الأقل ، على صعيد الضمائر **اليقظة،** في كل مكان . ترى هل تكون **التقدمية هي والاشتراكية شيئاً واحداً ؟** وما هي حقاً هذه **الاشتراكية** ؟ هل هي **رأسمالية الدولة** ؟ هل هي **تأميمات** تتناول قطاعات الصناعة ، والتجارة الخارجية ، وجعل هذه جميعاً بيد الدولة . وعلى صعيد الحكم ،هل هي **الحزب الواحد ،** ام جملة **الاحزاب التقدمية مؤتلفة في جبهة وطنية** تقدمية . **والديمقراطية** في مثل هذا المجتمع ، ماهي على وجه التحقيق ؟ هل هي تعبير الفرد المواطن عن آرائه من خلال المنظمات **الشعبية ،** أو هي تعبيره **الشخصي الحر** من خلال هذه المنظمات او بدونها ؟ واذا كان معنى الاشتراكية ، اولاً واخيراً ، هو الاستعاضة **بالقيم الانسانية ،** متمثلة **في الكفاءات**العلمية والعقلية **والأخلاقية ،** عن **القيم الخارجية ،** من اسرة ، وثروة ، ومركز اجتماعي ، او سلطوي ، فهل نمضي نحن فعلاً في هذه الطريق ، ام اننا **نستعيض عن قيم خارجية قديمة بقيم خارجية حديثة ، لاعلاقة**

لها بالجوهر الانساني ، والكفاءة العقلية والخلقية ؟ ولئن كانت التقدمية تعني رفع الانسان من مستوى الآلة ، والاداة ، والوسيلة ، الى مستوى الكرامة ، والقيمة ، والغاية ، فبأي الاساليب نضمن الوصول الى هذه المطامح ؟ أوليس من خطر في ان تكون هنالك **ردة جديدة ،** فيصبح الانسان ــ القيمة ، من جديد ، انساناً ــ **وسيلة .** وفي اي الظروف يشعر الانسان ، من الداخل ، من الاعماق ، بالعفوية الطبيعية ، أن صنيعته تزول يوماً بعد يوم . وكرامته ترتد اليه اكثر فاكثر ، وان انسانيته ثروة مقدسة ، لاتنال بأذى ؟

وتعرّف القيم التقدمية بمقابلتها بالقيم الرجعية . فعلى حين أن هذه الاخيرة تعلي المادة على الانسان ، فان الانسان وحده ، وكفاءته العقلية ، وخصائصه النفسية ، وفضائله ، هي أدوات التقدم الشخصي والاجتماعي معاً ، فلا ريب أن العمل « لرفع مستوى الانسان » واعلاء قيمته فوق القيم ، واحترام شخصيته أكبر الاحترام ، وتوفير أفضل الوسائل ، لتنمية هذه الشخصية ، واغنائها ، وزيادة ثرواتها ، يصبح هو الهدف الأول للمجتمع الذي يريد أن يكون تقدمياً . وعلى المجتمع أن يحقق ذلك **لا في المجال التربوي وحده ،** حيث يكون الاول في **الصف ، هو الأرقى في العقل والمواهب** والجد في الدراسة ، بل عليه ان يحققه في المجتمع جملة ، وعلى كل صعيد من اصعدة هذا المجتمع .

وهكذا يمكن تعريف التقدمية ، بانها عزل القيمة الانسانية عن كل ما عداها من القيم ، **والعناية بها ،** والارتقاء بمستواها ، وجعلها هي الأساس في القانون الأخلاقي ، والقانون الاجتماعي معاً .

ولقد كان الناس في العهود القديمة ، حيث العلم قليل ، والتجربة ضعيفة ، والمستوى العلمي ، شبه موحد بين الناس جميعاً ، يعطون مراكز القيادة والتوجيه لمن ، تتوفر فيهم صفات الطبقة المسيطرة ، كأن يكونوا من أسرة كبيرة ، قوية ، **او ان يملكوا وجاهة المال ، او كبر الإقطاع.** وكل هذه عوامل خارجية لا تتصل بالانسان ، من حيث هو إنسان . ولهذا

سمي هذا المجتمع . بالنسبة إلينا ، رجعياً . وهو رجعي بالضرورة لانه عاجز عن تحقيق التقدم . اما في العصر الحاضر ، حيث العلم موفور ، والصناعة كبيرة ، ومشاكل الحياة معقدة جداً ، فمن العبث أن ننتظر التقدم والسلامة مالم **تكن مراكز التوجيه ، العليا ، في أيدي اناس تتوفر** فيهم ، لا جاهة الحسب والنسب ، ولا نفوذ المال ، ولا طغيان القوة ، بل تتوفر فيهم العقول **النيرة ، والثقافة الفنية ، والخبرة الذكية** . وهذه كلها صفات إنسانية لاصقة بالإنسان ، كانسان ، اي انها لاتفارقه ما دام حيا ، ومهما تتبدل ظروفه ، على حين ان كل الصفات الأخرى ، كالقوة ، او الاسرة ، او النفوذ الاجتماعي ، او العمل الوظيفي ، اشياء مضافة ، لا قيمة لها خارج الاطار الاجتماعي الضيق ، الذي يعيش فيه الانسان .

وليس المهم ان نعرف التقدمية ، ونلح على مضمونها ، ونوضح عناصرها . بل المهم ان تحقيقها في مجتمعنا هو المشكلة حقاً . إنه لا يكفي **ان نختار التقدمية ، حتى نصبح فعلاً تقدميين** . كما انه لا يكفي الزنجي **الافريقي ان** يحمل على الاسلام او المسيحية ، حتى يصبح مسلماً حقاً او مسيحياً حقاً . وتدل التجربة على ان هذا الزنجي المسلم لايفارق معتقداته القديمة ، الروحانية ، الوثنية ، البدائية ، عندما يصبح مسلماً ، ولكنه يضيف ما يستطيع من الاسلام إلى **تلك الأثقال القديمة الناشئة عن الثقافة** التي ربي فيها ، وعاش طفولته في جوها . وهكذا يصبح اسلامه **خليطاً من معتقدات** كثيرة ، شعورية ولا شعورية ، ليس الاسلام اقوى ما فيها . وكذلك هي الحال فيمن يختار **التقدمية** . إنه يضيف ما يستطيع من هذه التقدمية إلى نفسه ، ويلبس **لبوسها ، ويخلطها بجملة** المعتقدات القديمة **والرواسب** العاطفية ، والثقافة التي استطاع أن يحصلها ، خلال حياته الماضية . والنتيجة هي ان تقدميته خليط من مختلف **العناصر التقدمية والرجعية** ، وليس من الضروري أن تكون العناصر التقدمية هي الأرجح ، والارقى شأنا . ومن هنا كانت مشكلتنا الجديدة ، هي **كيف نستطيع حقاً ان نكون تقدميين ، و** ان نقوم بعملية **التصفية الضرورية ،** من كل المعادلات الشخصية لنصبح تقدميين إلى ابعد حد ممكن ، لا بظاهر **تقدمي ، وباطن آكثره رجعي**

وفي وسعنا ان نلاحظ الآن ، أن هذه المشكلة ليست بسهلة الحل ،بالسرعة التي قد تتصورها .

ولنعد الآن إلى اول موضوعنا . لقد بدا لنا ان مشكلتنا القومية الاولى هي مشكلة فلسطين التي إذا احببنا أن نسميها باسمها الصحيح ، قلنا : انها مشكلة إسرائيل . ولقد وجدنا ان هذه المشكلة ، لم تكن لتوجد لولا فارق الحضارة بيننا وبين هذه الإسرائيل . وتبعاً لذلك فقد وجدنا ان مشكلتنا الثانية ـ الاولى ، أو الاولى ـ الثانية ، انما هي كسب الحضارة. وعرفنا ان هذه الحضارة ليست كسب العلم المعاصر ، وتطبيقاته ،ولكنها كسب الروح العلمية ، التي أنشأت وتنشىء هذا العلم المعاصر .وأشرنا بالمناسبة الى الجهد الكبير الذي تبذله امتنا منذ قرن كامل تقريباً ، أو اكثر بقليل ، في سبيل كسب روح الحضارة ، دون ان تؤدي هذه الجهود الى ثمراتها المأمولة إلا بنسبة تساوي ٣.ر. من حقنا وواجبنا الطبيعيين، وقلنا إن تخلفنا المتنوع الوجوه ، والطويل الامد ، انما يعود بالدرجة الأولى ، إلى هذا الضعف في الزاد الحضاري ، الذي لايمكن تعليله ، لا بالاستعمار لانه سابق عليه ، ولا بالانقطاع عن الاتصال بالعالم الغربي ، حيث نمت الحضارة ، لأن هذا العالم لم يحتج الينا في إنشاء حضارته ، فليس هنالك إذن معنى لان يحتاج اليه . ووجدنا خلال الطريق أن من مشاكلنا ان نعرف كيف نكتسب الحضارة الجديدة ، دون أن نتخلى عن تراثنا ، ورأينا بعد ذلك إن صيغة المجتمع التقدمي المتحرر ، هي الصيغة الفضلى لحياتنا الاجتماعية أو القومية المقبلة ، لأنها تعيننا على استثمار ثرواتنا المختلفة ، بدءاً من الثروات الفعلية ، والخلقية ، وبيّنا كيف انه لا يكفي ان نختار ـ التقدمية ، عقيدة ، لنستطيع تحقيقها في انفسنا ، وأن هذا التحقيق عملية صعبة ، وهو مشكلة تستحق العناية حقاً .ولعل اول غاية ضرورية هي أن نبتعد عن انفسنا قليلا ، وننظر الى ما نفعل مقارنين دوماً بين ما يفعله هذا ال « نحن » وبين مقتضيات المبادىء التي تقول ، ببراءة ، اننا نعتنقها ، ونعمل بوحيها . وليس عسيراً بعد ذلك أن نكتشف تناقضات كثيرة بين ما نعمل وبين ماينبغي أن نعمل .

غير ان من الممكن ان يتساءل الإنسان هنا ببساطة ، قائلاً ، وأين إذن مبادئنا الأخرى الأساسية ، كالوحدة والحرية ؟ او ليست الوحدة والحرية من مشكلات امتنا الكبرى ، وان الروح القومية ، لا تتحقق إلابها؟

ولا ريب ان هذا السؤال وجيه جداً . ولئن كانت مشكلاتنا الكبرى قد تجمعت الآن في الشعارات التي ترفعها كل ثورة عربية ، متحررة ، في اي قطر من الأقطار العربية ، منذ أكثر من ربع قرن ، وهي شعارات الوحدة ، والحرية ، والاشتراكية . اما هذه الأخيرة فقد تحدثنا عنها ، لدى الحديث عن المجتمع التقدمي . وأما الحرية ، فأظن انه مامن نظام اشتراكي جدي، الا والحرية ، أعني تحرير الانسان من كل العبوديات ، ومن كل صور الرق الاقتصادي والعقلي ، جزء لا يتجزأ منه . ولئن وجدنا أحياناً صورة أو اخرى من صور التناقض بين الحرية ، وبين الاشتراكية ، فمرد ذلك إلى صورة تطبيق الاشتراكية ، في مرحلة ما ، من مراحل تاريخها ، ونموها ، او الى هذا القانون النفسي ، الذي لا يجعلنا نقفز الى النظام الجديد ، دون أن نخلطه بمعادلاتنا القديمة . لكن الذي يبقى بعد ذلك ، كمشكلة أساسية ، انما هو مشكلة الوحدة .

ولنشر الآن إلى ان هذه الوحدة العربية ، لن تكون أبداً صورة للوحدة في عهد الأمويين ، وفي الصدر الأول من حكم العباسيين . لقد كانت تلك الوحدة ، هي وحدة الجيش الفاتح ، وحدة الحكم المركزي ، ولـم يكن الناس في أكثرية البلاد المفتوحة ، لا عرباً ، ولا مسلمـين ، ولا يتكلمون اللغة العربية . وبالعكس ، فان من دواعي الأسف والاستغراب معاً ، أن اقطارنا العربية الآن او الأقطار المفتوحة سابقاً ، كلما امعنت في طريق الاسلام والتعريب ، كانت ينفصل بعضها عن بعض . ولو قدر لباحث ، أن يلاحظ خطوط تطور الاسلام ، والتعـريب ، وخطـوط الانفصال ، ورسمها في منحنيات بيانية ، اذن لما كان بعيداً أن يجد تشابها كبيراً في هذه المنحنيات . ومع أن هذه الظاهرة تستوقف الباحث طويلاً ، فاننا لن نزيد هنا شيئاً ، على الاشارة اليها ، والدعوة الى التفكير بها .

ستكون الوحدة إذن شيئاً جديداً في التاريخ ، لا شيئاً مكرراًالتاريخ، والتاريخ لايعيد نفسه كما يقولون . ولئن كان الأمويون ، يوحدون بين الفرس والكرد ، والأتراك ، والعرب ، والبربر ، في اطار دولة واحدة ، فسوف تكون وحدتنا ، منذ الآن ، وحدة شعب عربي ، **في أكثريته الساحقة** ، بتاريخ متماثل ، ولغة واحدة ، ومعتقدات واحدة ، فضلاًعن انها تمثل الطموح الطبيعي لكل مواطن عادي ، في كل ارض عربية ، إذاكان بريئاً من **المعادلات الشخصية التي تصله بالحكم** ومؤسساته الانفصالية.

ولكن السؤال الآن هو أن مشكلة الوحدة تبدو عسيرة الحل جداً . وليس وضعها في المرتبة الأولى من الشعارات الثورية الجديدة ،بالشيء الذي تم عرضاً واتفاقاً . بل ان الفكر التقدمي الذي انشأ هذهالشعارات كان يعرف سلفاً أنها أصعب الشعارات على التحقيق . وكان يقال لنا دوماً : إنه ليس من الصعب أبداً تحقيق الاشتراكية ، ذلك أنها «موضة» العصر ، وأن نصف العالم اشتراكي ؛ وأن طريق التطور الطبيعي هو الاشتراكية ، بالنسبة لكل الشعوب المتخلفة . وكذلك الحرية فانه لاخوف عليها ما دامت جزءاً لا يتجزأ من المضمون الاشتراكي ، بل هي اوله وآخره، وليس ماعدا ذلك إلا وسائل ، مجرد وسائل ، لتحقيق هذه الحرية . أما الوحدة فقد تلقى في سبيلها كل الأهوال . فالاستعمار يحاربها ،بالبداهة، أو بطبيعة الحال ، ومؤسسات الحكم القائمة في كل بلد ، تحاربها أيضاً بطبيعة الحال ، ولهذا كانت الطريق اليها ، صعبة ، شاقة ، ملأى بالأشواك .

ومن العبث ان نفيض في الحديث عن الوحدة، كحاجة دفاعية، وان نقول، مثلاً، لوكانت هنالك وحدة، لما قامت اسرائيل، اصلاً، أوكضرورة حيوية، من حيث تكامل الاقطار العربية ،وتعاونها ،وقدرتها على قطع مراحل سريعة في مضمار التقدم أوكحاجة مجابهة للدول الكبرى التي تدتطمع في الاستيلاء على مرافقنا الحيوية . أقول ان هذا كله من العبث ، لأن الضمير القومي ، في كل مواطن ، مستغن في الأصل عن هذه التبريرات الاضافية ، وكأنه يطلب الوحدة لذاتها ، جميلة كانت أو بشعة ، حلوة أو مرة ، مفيدة أوغير

مفيدة. الآن الذي يحير المفكر أن الوحدة، ليست طموحاً قومياً فحسب، بل هي كذلك مفيدة جدا . ومع ذلك فاننا قد نحقق ، في اقطارنا المجزأة ، كل صور النمو الاجتماعي والاقتصادي ، دون ان نتقدم في طريق الوحدة خطوة واحدة .

ومن المؤسف ان نقف تجاه هذه المشكلة ، موقف الحيرة والقلق،دون ان نجد نقاط استناد نستطيع التوكؤ عليها . اذ ماندري أي سبيل لو مضينا فيه ، فستكون نهايته الوحدة . **ايكون قيام ثورات عربية متماثلة الأهداف شرطا ، تتحقق معه هذه الوحدة بالضرورة ؟** وجوابنا ان اقطارا عربية كثيرة ، حققت هذه الثورة ، كالجزائر ، **ومصر ، وسورية ، وليبيا، ولكن الوحدة** ما تزال بعد هذه الثورات ، كما كانت قبلها ، ام يكون **قيام حزب واحد** في اكثر من قطر هو السبيل الى هذه الوحدة . وجوابنا أن هذا الشرط تحقق مرتين في **كل من سورية والعراق، ونحن مانزال في البعد عن الوحدة** ، كما كنا من قبل .

فلم يبق اذن الا ان يقوم الشعب العربي ، بنفسه ، بنضاله ، بكفاحه، بتضحياته ، باندفاعه ، بتقرير مصير هذه الوحدة . ولكن هذا أيضا يحتاج **الى ان يكون الشعب العربي حرا في تقرير مصيره ، بلا قيود مفروضة ، ولا اغلال مكبلة . ولكن الانسان ليتساءل :هل النضال الذي نحتاج اليه في** تحقيق هذه الحرية ،بأكبر من النضال الذي نحتاج اليه في تحقيق الوحدة، **او ليست الطريق واحدة في الحالين ؟ .. أوليست هي نفسها الطريق التي تؤدي الى حل المشكلة الفلسطينية ؟ اولا يمكن القول : ان طريق التقدم واحدة ، ومنها نطل على الحرية ، كما نطل على الوحدة ، وكما نطل على الاشتراكية ؟**

ان من الممكن ولا ريب ان تقوم مؤتمرات قومية بين الحين والآخر ، تشترك فيها عناصر من كل الاقطار ، لتتدارس هذا الموضوع، وتعد له الخطط والتدابير ؟ ومن جهة أخرى ، الم تقم عدة مؤتمرات من هذا النوع ، ولكن بعناصر جديدة في كل مرة ، ودون ان يعرف المؤتمر الثاني عن الاول شيئا ، وينتهي كل شيء بعد هذا وذاك وكأن شيئا لم يكن ؟

ولعل من المناسب ان نشير هنا الى كتاب ضخم عن الوحدة العربية ، للسيد عزة دروزة ، خرج للنور عام ١٩٥٧ ، بصفحات تزيد عن السبعمائة ومع ذلك فاني اظن ان هذا الكتاب ، قبر يوم ظهر ، كما يقبر كل ما يكتب ويقال وينشر في هذا الموضوع أو غيره .

ويذكر هذا الكتاب فيما يذكر ان رواد الوحدة كانوا يتحلقون حول الملك فيصل الأول الذي كان يتعاطف مع هذه الفكرة تعاطفا شديدا، ويبذل لها كل صور المساعدة (ما بين عامي ٢٧ – ٣٢) ، حتى لقد عقد في القدس في ك١ عام ٣١ مؤتمر لهذا الغرض ، كان تمهيدا لمؤتمر عربي عام ، يضع ميثاقا قوميا ، كانت الوحدة اولى بنوده . وكاد هذا المؤتمر ينعقد في ربيع عام ٣٣ ، فاجل الى الخريف فمات فيصل ، وشغل العراق بعده عن أمر الوحدة . ويتابع المؤلف سرد هذا التاريخ المأساوي ، على يد رشيد عالي الكيلاني ، وغير من رجال العرب في العراق (عام ٤٣) وعام ٥٤ ، ثم في مصر على يد النحاس باشا عام ٤٣ ثم سورية عام ١٩٥١ على يد رئيس وزارتها آنئذ ، ثم عام ١٩٥٥ ، ثم عام ١٩٥٦ ، كما يشير الى ان وحدة البلاد الأخرى تمت بسبل متعددة، منها القوة الحربية التي تتحرك بالمطامع الشخصية والتوسعية، ومنها القوة الحربية التي تتحرك بالمطمح الشخصي والحافز الديني ، واخيرا بالقوة الحربية والمساعي السياسية التي تتحرك بالمطمح الشخصي والحافز القومي معا، حيث يبرز ملك دولة من دول متعددة بينها ذلك المشاركة في الافكار والعقائد والمصالح والمثل العليا ، فيتبنى فكرة الوحدة ، عندئذ ، ويتجمع حوله الرواد من كل قطر فيكون ذلك سبيلا الى تحقيق هذه الوحدة .

ويرى صاحب هذا الكتاب ان هذا السبيل هو السبيل الصحيح لتحقيق الوحدة العربية ، ويلاحظ ان الدول المرشحة لهذا التبني ، هي مصر او سورية . لكنه يضيف الى ذلك ضرورة **انشاء جهاز شعبي متفرغ لشؤون الوحدة** ، يمكن ان يكون مؤتمر الخريجين الذي ظهر نشاطه في ذلك الحين، كأقوى مايمكن، ثم ذبل وتلاشى، كأنه استنفد كل أغراضه، مع ان الوحدة كانت أهم أغراضه واكبرها شأنا .

والحقيقة انه عندما تكون البلاد متخلفة، فان كل مانفعله يكون متخلفا. ولو ان الوحدة تمت اليوم ، في جو التخلف السائد ، لكانت هي ايضا متخلفة ، مرشحة هي بذاتها للسقوط بعد فترة وجيزة ، على نحو ماحدث لوحدتنا السابقة ؟ وهل يعني هذا ان على كل قطر ان يتقدم اجتماعيا وسياسيا ، من الداخل ليكون هذا تمهيدا ضروريا للتقدم الى الوحدة ؟ او لانلاحظ في الظروف الحاضرة ان الوحدة ، او مابوجد منها ، لا يتميز **بهويته عن الانفصال في شيء ؟** وهل الدول الموحدة ، نظريا ورسميا ، اقل في خلافاتها ، من الدول غير الموحدة .

وفي ظني انه من امة تفاجأ بهزيمة العام ٦٧ ، دون أن يكون ردها في مستوى هزيمتها . لقد ظننت يومئذ ، ان دول المواجهة ، على الاقل ، **ستتحد خلال اسبوع او اسبوعين ، بحكم غريزة الدفاع عن النفس.** ولكني لبثت سنة وسنتين بعدها ، فلم اجد ان شركتي طيران اتحدتا . افليس هذا كله عجيبا ، غريبا ؟

وعلى كل حال ، فاننا لا نظن ان مشكلة الوحدة ، يمكن ان نجد لها الآن حلا . واحسب انه ليس من واجب مفكر واحد ، ان يرسم خطوط هذا الحل . بل احسب بالتأكيد ان المشكلة اصعب من ان نجد حلها بالسهولة التي نتمناها . **فالعقول المختلفة ليست مهيأة لحل المشكلات ، حتى السهلة** منها ، فكيف بالصعبة ؟

ولابد اخيرا من الاشارة الى مشكلة اخيرة ، ولو بصورة عابرة ، وهي مشكلة يلح عليها الدكتور قسطنطين زريق في أكثر من كتاب واحد، وهي مشكلة التنظيم ، اي **تنظيم جهود الدولة والأفراد** والمؤسسات على حد سواء . فما أكثر مانعاني من فقدان التنظيم ، وآفاته . وها انذا اقرأ في محاضرة للدكتور الصفدي عن مشكلة المياه في سورية ، وهي مشكلة حيوية الى أبعد الحدود ، فيشير فيما يشير فيها الى تبعثر قطاع الثروة المائية ، وتوزيعه على أكثر من هيئة واحدة (المحاضرات العامة ـ وزارة الثقافة ـ الجزء التاسع . ص: ٥٦٠) واقرأ محاضرة: للأستاذ يحيى عرودكي عن الدولة النامية ومشكلاتها الاقتصادية والانتاجية بسبب عدم اتباع تخطيط شامل

يؤمن التوازن بين هذه القطاعات . واظن أني لو قرأت منه محاضرة ، في أي موضوع يمس بلادنا ، لوجدت فيها جميعا اشارة ، الى عدم التخطيط او سوء التنظيم ، وما ينشأ عنه من هدر للأموال ، واضاعة للوقت، وتبديد للقوى المنتجة . وحسبنا ان نعرف ان عملية واحدة مثل تسجيل عنوان صاحب سيارة لدى شرطة السير، يحتاج الى مراجعة ست دوائر، وقضاء نهار كامل ، واجتياز مسافة تقدر بسبعين كم ، على أقل تقدير .

وهنا يتساءل الانسان اليس سوء التنظيم ظاهرة اساسية من ظواهر التخلف ؟ أو يمكن أن نكون **متقدمين حقا ، ونكون في الوقت نفسه سيئي التنظيم** ، اوليس الأمران معا صورتين لحقيقة واحدة ؟ وهل يعني ان اشياء كثيرة جدا في هذه الدنيا ــ ولعلها الاهم ــ لاتحل بالارادة الطيبة ، والاخلاص السليم ، ولا بد فيها من انتصار التطور البطيء ، كما لا بد في انتظار تمام الوليد ، ان يبقى في بطن امه تسعة اشهر . وعندئذ هل يكون **معنى الثورة، أية ثورة ، ان نفعل شيئا ، غير ازاحة العراقيل من وجه التطور الطبيعي.** ومن جديد هل يمكن اختصار هذه العراقيل حقا ، من غير أن نعود الى الانسان ، في كفاءاته الاصلية، ليتسلم هو زمام الامور، ويحذف ما يستطيع من الطفيليات التي تنمو على طريق التطور؟ أوليس واجب الثورة ان تعتمد حقا على الطليعة وحدها، وان تجدد نفسها بها، رامية وراءها كل المعادلات الشخصية؟ وهل هناك برهان آخر، على سلامة الثورة وسيرها في الطريق السليمة ؟

ولنعد الآن مرة اخرى الى البداية: فلقد كان منطلقنا في تحري المشكلات هو المشكلة الفلسطينية ، ورأينا حقا ان مجرد تحليل ابعاد هذه المشكلة ، سيؤدي بنا الى معرفة مشكلاتنا القومية **الاخرى ، من تخلف على جميع المستويات ، وضعف مستوى الحضارة ، وفقدان التنظيم ، والمشكلات الاخرى التي اشرنا اليها .** فهل يمكن الآن ، ان نجد علة أولى لكل هذه العلل ؟

والحقيقة ان العربي الذي يفتح عينيه على دنياه في ايامنا هذه ، ليجد اكثر ما في بلاده جديدا ، جديثا ، ولعله حديث جدا . حتى ليظن الطفل في

سذاجته ، ان سكان هذه البلاد قد اتوا اليها حديثا ، فلم يستطيعوا ان يعمروها ، وهم الآن في طريقهم الى هذا التعمير . ومعنى ذلك ان عطاء الفرد العربي لامته خلال تاريخها الطويل ، لم يكن كبيرا ، بل كان محدودا جدا ، او لعل جيلا ما كان يعطي ، ويبني ، فياتي آخر يأخذ ويهدم ، وتكون النتيجة كلها ان البلاد تراوح في مكانها ، فلا تتقدم الى الأمام قيد انملة . افلا تستطيع ملاحظتنا هذه اذن أن تكون بداية أخرى ، تتجمع فيها مشكلاتنا كلها ، أو تصدر عنها مشكلاتنا كلها .

لقد كان المواطن في الماضي رعية لا يؤبه لها . وكان السلطان،هوالحاكم بأمره يفعل مايشاء . ولم تكن هنالك فلسفة واضحة تدعم هذا الواقع ، كما كانت الحال في الغرب ، عندما كان الملوك يدعون أنهم يحكمون باسم الحق الالهي . ولكن كان هناك واقع بحت ، مجرد ، يشعر معه السلطان انه لكي يكون قويا ، يجب أن يكون الآخرون كلهم ضعفاء . ولكن النتيجة التي حدثت وتكررت الف مرة ، هي ان الملك لم يكن قويا الا على رعاياه ، الا أنه هو ورعاياه ، كانوا ضعفاء جدا تجاه الآخرين . أفلا يمكن ان نفكر اذن بوضع يشعر معه ذلك السلطان انه سيكون أقوى بكثير جدا ، كسلطان ، لو كان رعاياه اقوياء ؟

وهنا تبرز فلسفتان في صورة الانسان . فاما تلك الفلسفة التي ترى أن السلطان وحده هو القيمة ، والغاية ، والمطلق ، وأن كل الناس ادوات ، ووسائل ، ورعية ، وخدم . واما فلسفة أخرى ، ترى أن من الافضل ، والأجدى ، والانجع ، والاقوى ، والاسلم ان يرفع كل انسان الى مستوى القيمة ، فيكثر عندئذ عطاؤه ، ويكثر غناؤه ، ويتراكم جهده ، فيصبح القوة التي نريد ، والحضارة التي نتمنى ، والتقدم الذي نبتغي ؟

ولعلنا نذكر رواية ريشار الثالث لشكسبير التي نرى في بعض مشاهدها ، انالملكريشار الثالث ، فيالليلة التيسبقتمعركةسانكريبان Saint Crepin ، كان يتفقد جنوده النائمين ، المرهقين . فيكتشف عندئذ لشخصيتهكملك ، اساساً انسانيا يتجاوز وجودهبكثير . انهلميعد مسؤولا كملك امام اللهوحده، ولكن عليهانيتصرف كمسؤول تجاهرعاياه.

وهكذا ينتقل الملك بلمحة خاطفة من مستوى الآمر الذي يمضي برعيته ، الى حيث يريده له هواه ، الى مستوى الأمير الذي يتصرف تبعا لرغبات المواطنين ، لاتبعا لهواه . فيرفعهم مباشرة من مستوى الاداة الى مستوى القيم .

ونحسب نحن أنه اذا كان قدطال علينا التخلف، وقل العطاء، وخربت الديار ، وهان الوجود العربي ، واستباحه الاعداء ... نمرد ذلك الى أن الانسان العربي ظل خلال كل هذا التاريخ **مطية لاغاية، واداة لاقيمة، وعبدا لاسيدا** . كان يعيش في الخوف، والحذر ، والازدواجية؛ وفي كل مايبعده عن المثل العليا . واظن ، انه متى استطاع هذا العربي ان يتحرر من الخوف ، وان ينظر اليه المجتمع ، كسيد ، كارادة حرة ، كانسان له حق الاختيار ، والقبول والرفض ... عندئذ نستطيع حقا ، ان نضمن تقدم الحياة العربية . اولا نلاحظ ان الارض الفقيرة تهزل الثمار ، وتكثر البذور ، بحكم قانون غامض في المحافظة على الحياة ؟ أو لم تكن هذه حال الشعب العربي ، في اكثر ايامه المضية ؟ او ليست هذه حالة ايضا في مناطق عربية كثيرة ؟ .

وهكذا فكما راينا في قضية اسرائيل مفتاحا لكل المشكلات القومية ، فاننا نجد الآن في « وضع » الانسان العربي ، ومقدار ما يملك من امره و « حريته » ، مفتاحا لوجود هذه المشكلات ، وتسلسلها ، وتضاعفها ، أو حلها ، وانقضاء أمرها ، وشروق شمس جديدة على ارض هذاالوطن المقدسة .

ولاشك أننانضمن حديثنا هذا موضوعة اساسية، مؤداها ان« فرجة الحرية » المتاحة للانسان ، هي التي تحدد نوع الحضارة التي يستطيع بناءها ، فاذا ضاقت تلك ضاقت هذه بالتبعية، واذ اتسعت الأولىاتسعت الثانية بالضرورة . ولكن هل هذه الموضوعية مقبولة حتما ؟ أو لايمكن ان نتصور نشوء حضارة عظيمة ، انسانها خائف ، مقيد ، شبه سجين ؟ أو لم تكن هنالك حضارات سابقة ، اشورية، بابلية، او مصرية ، عندما كان الانسان فيأدنى درجات الحرية، وأعلى درجات العبودية؟ انهذا ماسيكون لنا فيه حديث آخر .

الاغتراب الفلسطيني

مداخلات «الحدوث» و«الإحداث»

الدكتور محمّد الزايد

إعتراضات سؤالية :

ــ هل يمكن للتحليل الفلسفي ، والى اي مدى يستطيع ، إنشاء ذاته داخل اثنائية الحدث التاريخي ؟

بصيغة ثانية . . ــ هل تستطيع الأنا المفكرة تمثل إرباكات الحضور العيني للحدث تمثلا تجريديا (متعاليا) بعيد تشكيله « موضوعا » يقبل التحليل ويحتمل النفاذ ؟

بصيغة ثالثة . . ــ كيف يمكن الانتقال من مستوى « الفعل السياسي » الى مستوى « الوعي الفلسفي » لظاهرة تاريخية ؟
من حيث الأساس (بالدلالة البنيوية لهذه المفردة) . .

تعريفات : ــ الحدوث : ظهور الحدث في مجرى الزمان ، عندما ينتقل الى المكان يصبح « واقعا » منه الواقعة . يفترض الحدث محدثا ، فاعلا ، يخلقه .
ــ الاحداث : الانشاء والخلق . وهو على نوعين :
(أ) الاحداث المتعالي = التجريد ، تشكيل الفكر للواقع .
(ب) الاحداث الواقعي = التشكيل المادي لظاهرات العالم .

ــ هل تستنفذ « السياسة » بوصفها فعلا وفكرا « كلية » الحدث التاريخي وفعل الانسان في التاريخ ؟
من حيث التعبير . .
ــ هل مفردة « الفعل » مقيدة من الناحية الدلالية ومطوقة ضمن إسار ما هو آني ــ مباشر يقع تحت الحس والنظر واقعاً مرئياً وملموساً ؟

بتركيب مجموع التصورات . .
ــ هل « الفعل السياسي » ، الذي يمارس تأثيراً واقعياً مباشراً على الانسان والعالم ، يستبعد أثناء فعليته ، قبلها أو بعدها ، « الفعل العقلي » الذي يمارس تأثيراً تجريدياً (متعالياً) على الانسان والعالم ؟

بترجمة أكثر اختزالا . .
ــ هل يصادر « التغيير » السياسي « التفسير » الفلسفي ويلغيه ؟
وهل مباشرة التغيير ، تغير العالم ، تمنحه سباقاً اولانياً على « التفسير » ؟
من حيث نقطة الانطلاق . .
ــ هل يباشر « التغيير » تغييريته من ذاته ؟
ــ هل يباشر « التفسير » تفسيره من ذاته ؟

التفسير والتغيير عمليتان زمانيتان تحدثان في ــ التاريخ وترتبطان اولانيا مع الانسان حاملهما . فاذا كان « تغيير » العالم من أجل الانسان ، فبالانسان ذاته يتم تغيير العالم ويحدث . واذا كان « التفسير » تفسيراً لصالح الانسان ، فمن « وعي » الانسان يولد التفسير ويظهر .

ان الذهنية التصنيفية الكسولة التي تلعب على سطح ظاهرات الكون والانسان ، هي الخلاقة الدائمة لفرضيات السبق بين « التفسير والتغيير » . فاذا كانت « الطبيعة » تملي شروطها على « وعي » الانسان وحاجاته ، فان وعي الانسان هو الذي يملي تعليمه على الطبيعة والحاجة معاً ، كما يعيد تشكيلهما لصالحه .

تبقى ، مع ذلك ، السؤالات الاعتراضية قائمة لانها تستمد مشروعيتها من جدية النقض ، وارتكاساتها التي تحكم علاقة المعاناة والتعبير ،

الحضور والتفسير، الحدث والموضوع، الزمان والمعرفة، التاريخ والعقل السياسي والفيلسوف .

بل الأكثر من هذا .. لا تبقى تلك السؤالات فقط وانما تتضاعف بمتوالية هندسية لأنها تتمتع بقابلية التوالد بطريقة الانشطار اللامتناهي في مماثلة عادلة موازية ، ومساوقة ، للانشطار النووي وتفاعلاته .

إن الاصرار المستمرعلى طرح « المشكلة » يشير الى مدى «اشكاليتها»، في تزامن واحد مع توكيد امكانية المعرفة مع حضور الاحراجات(١) ، لذلك تصبح « المعرفة » احتمالية « تقترب من موضوعها دون أن تفترض استنفاده او تزعمه » (٢) ، ويتحول « فكر العقل » الى فرضية تحيل الى فرضيات في نهاية برهانها لا الى نتيجة يقينية مطلقة معزولة عن صيرورة الوعي التاريخية مقطوعة عنها . اما الكتابة فتتحدد « ك توسط بين الحضور والتعبير » (٢) او هي « فعل مقاربة مع الحضور في المعاناة عبر المسافة الفاصلة بين الفكر / الموضوع ، التفسير / التجربة (٤) ، .. ولا بد من الانتباه الى مفهوم « التوسط الفلسفي » . فالتوسط الفلسفي ليس « وسطية إصلاحية » معتدلة توفيقية ، انما هو حامل ثالث ، طرف ثالث، مستوى ثالث ، بعد ثالث ، تستعيد طرفين متباعدين أو اكثر استعادة نوعية خلاقة اخرى . فالكتابة الفلسفية ، والتحليل الفلسفي ، بعدالقراءة الفلسفية ، « الحدث » الفلسفي كواقع تاريخي ، هي فعل « إحداث » فلسفي لواقعية الاغتراب الفلسطيني . أو بصياغة اكثر دقة ، هي« رفع» كلي لمضارع سياسي وتحويل له من مستواه السياسي الى المستوى الفلسفي ، من خصوصيته الوطنية الى أمميته الكينونية ، من مسألة الحرية السياسية الى مسألة الحرية الفلسفية .. لأن « فعل التفلسف » بوصفه حاملا لثورة الانسان الكلية على انماط استغلال الانسان وقهره

---

(١) (٢) د . محمد الزايد « الاغتراب الفلسطيني ، بين الارض والتاريخ » المعرفة عدد ١٥٥ سنة ١٩٧٥ .

(٣) د . محمد الزايد « عقلانية زمن الانتحار » مجلة الى الامام عدد ٤٥٧ ص ١٨ سنة ١٩٧٤ .

انما يكشف عن المضمون الاممي لمحاولة العدالة المطلقة وحذف الشر من العالم وقهر القهر الواقعي والماورائي (الميتافيزيقي) معا .. لقد ولد اغتراب الانسان من تاريخ الزمن الانساني في العالم . جاء الاغتراب الى التاريخ من التاريخ ذاته .

حضور الاغتراب :

يتألف تركيب « حضور / الاغتراب » من مفردتين هما « حضور » و « الاغتراب » ، فهل تنطوي الدلالة اللسانية لهما على إحالات فلسفية تبدأ من « واقعية الحدث » التاريخي ثم ترفعه الى كليته الامميةوالكينونية؟ بالتالي هل يتضمن الاغتراب الفلسطيني مستوى فلسفيا لا يستنفده مستوى الفعل السياسي الراهن ؟

إن تفكيك دلالات كل مفردة على حدة يشكل مدخلا أولياً لاستكناه احالتها الكينونية ومحورها مشكلة العلاقة بين اللغة/الوجود اضافة الى مستوياتها الواقعية الاخرى : (السياسية ، الاجتماعية ، الثقافية ، الاقتصادية) اي تجلياتها الزمانية وقائعاً وظاهراتاً .

ـ مفردة « حضور » :

الاشتقاق من (حضر ، يحضر ، فهو حاضر ، وهم حضور . منها التحضر والحضارة . ومنها ، محضر جمعها محاضر ، وهي مفردة بنيوية تشير الى حضور المعلومات او الناس في حاضر مضي : يقال :

ـ محضر البناء .
ـ محضر الجلسة .

ـ محضر = اجتماع بمعنى الحضور) . منها محاضرة اي حضور المعرفة بعد تحضيرها من قبل محاضر) .

الحضارة ، والتحضر ، بمعنى التمدين اي الوجود في مدنية حضارية . والعرب تقول « الحضر » كمقابل « للبدو » بالتالي « الحضارة » هي

المضارع المرفوع للبداوة . و « الحاضرة » هي مكان الحضور الحضاري التي تشير الى الاستقرار والازدهار بينما تشير البداوة الى التنقل والترحال . اما « الحاضر » فهو الراهن ، الحالي . تتآلف مستويات مفردة « حضور » الزمانية ، المكانية ، الثقافية ، وتلتقي في احالة أولانية تشير الى حاملها « الانسان » ، أو ان جميع الدلالات اللسانية والكينونية للمفردة تحيل الى حاملها الكلي « الانسان » ، الانسان هو الذي « يحضر » ويغيب ، يتحضر أو يتهدين خارجا مرفوعا من مستوى الى مستوىآخر . البدوي اللامتحضر غائب ــ عن المدنية ، والمتحضر حاضر فيها . يعنينا هنا استعمال مفردة « حضور » ودلاليتها :

« حضور » بمعنى القائم الحاضر راهنا متزمنا آنياً الآن ، و «حضور» بصيغة جمع « حضر » فهو حاضر وهم حضور . وبما ان المفردة غير متعينة بـ « ال » التعريف فهي تستمد تعينها وتصريفها من ما بعدها « الاغتراب » ، حضور الاغتراب الفلسفي « ظاهرة جمعية » حاضرة في الآن . من البداهة الاقرار بان الاغتراب الوطني السياسي لا يظهر في التاريخ الا « جمعيا » ، لانه يجيء من التاريخ أي « النزمن » بينما الاغتراب الفلسفي (الميتافيزيقي) على مستوى الزمان او كلية التاريخ .

ــ مفردة « الاغتراب »

مصدرها (غرب ، يغرب ، فهو غارب ، وغريب ومغترب . منها
مصدرها (غرب ، يغرب ، فهو غارب ، وغريب ومغترب . منها
المغترب ، الغريب ، صفته « الغربة » مكان اغترابه . الغريب هو اللا منتهي الى موطن او مجتمع . الاغتراب تجربة انسلاخ وقطيعة . اذا ربطنا بين الدلالتين الزمنية والكينونية ، بين حركة الشمس الغاربة التي يتبع غروبها حلول ظلمة الليل ، وبين الدلالة الشعورية للاغتراب يمكن للفكر ان يقرا دلالة الاغتراب بسبر اكثر عمقاً . الاغتراب مفادرة موطن التعين الى ضياع اللاتعين .

وبإضافة مفردة « حضور » الى « الاغتراب » يتوصل الوعي الى المستوى الدلالي الجذري له :

حضور الاغتراب هو معاناة الفصم واللاإنتماء . او هو اللحظة اللاانتمائية زمانياً ، مكانياً ، شعورياً ووعياً .

ويفترض الفصم من حيث هو « قطيعة » ـ عن ، تواصلا سابقاً ـ مع ، أو بوصفه « ضياعاً » بحثاً ـ عن ، لأن القطيعة والضياع لا يحدثان في فراغ الزمان والمكان ، الشعور والوعي ، « الحكم » و « القيمة » .

حضور الاغتراب ، يرفع مضارع الانتماء الزمني ـ المكاني ، التاريخ والارض ، الكيان التاريخي والكيان التجسيدي ، الى قطيعة مزدوجة بين كيان التمثل وكيان التمثيل . بالنتيجة يحول « إنسان الاغتراب » القائم الى اللاقائم ، الانتماء الى اللاانتماء ، المواطـن الـى لاجـىء ، الهويـة ضياع ، الاجتماع الى شتات ، المنزل الى مخيم ، الاستقرار الى نفـي ، المدنية الى تجمع ، التعين الى لا تعين .

تنتقل « الـ » التعريفه من الحضور الى الاغتراب ليصبح حضـورا مغفلا يستمدتعريفه من «الاغتراب» اغترابه وبإضافة مفردة «الفلسطيني» يصل التحليل الى تركيب « حضور الاغتراب الفلسطيني ، الذي يتمحور التحليل حوله . او هو يقرأ الاغتراب الفلسطيني الذي ما زال حاضرا آنياً متآتياً [من الآن] في حضور الانسـان حامل الاغتراب الفلسطيني وغير الفلسطيني : .. الانسـان اليهودي ، الصهيونـي ـ الانسـان العـربي ـ الانسان الأممي حيثما كان .

لذا يرسم منهج التفسير الاحدي حول نفسه دائرة استحالية مغلقة في محاولته تفسير ظاهرات الانسان من زاوية واحدة ، لأن « الظاهرة » لا تنشأ بسبب احادي يشكل طبيعتها المطلقة الوحيدة ، وانما تنشأ من مجموعة أسباب وشروط تزامنت فشكلت ظاهرة متزمنة ترتد الى تزامنات علائقية نسبية تخضع لصيرورة التاريخ .

لذلك يتبدى امراً بالغ السطحية الفصـل بين حضور الاغتـراب الفلسطيني والاغتراب اليهودي ـ الصهيوني داخل اسرائيل ، كما يتبدى

امرا اكثر تفوقا في سطحيته وسذاجتـه الفصل التام بين الاغترابـين واغتراب انسان العالم المتخلفوانسان العالم المتقدم في نهاية التسلسل .

عندما يصل التحليل الى « التعميم » والتعميم الى « الكلية » يتحول الاشكال الى فرضية ، الحدث الى ظاهرة ، الحضور الى موضوع ، مما يعطي « الفعل السياسي » للتغيير واقعيته كما يمنح الفعل العقلاني « للتحليل الفلسفي » نفاذه ومبرراته ، ونظريات « العلم » اسسها ، وفعل الكتابة عن الاغتراب الفلسطيني مشروعيته كمحاولة نظرية في الفكر الموضوعي او الفكر الكلي او :

الآنا بوصفها نحن، المفردةبوصفها عبارة، الكلمةبوصفهالفة، الحدث بوصفه احداثا ، وهو البصر الامامي الكلي للاغتراب الفلسطيني في شموليته . بعد وصول التحليل الى أفق الشمولية ، يقف امام سؤال كيفي حولالظهور التاريخي لحضور الاغتراب الفلسطيني.. كيفجاء ، حضر ، الاغتراب الى ارض فلسطين وتاريخها ؟

كان « الاغتراب » على ارض كنعان والعالم « إنتماء » قبل أن تبدأ الصهيونية مفرداتها الحلولية من حيث هي تمثل خلاق لأعلى مراحل قهر الانسان للانسان(١) .

---

(١) تعرضت دراسات تحليلية كثيرة لطبيعة الصهيونية الاستعمارية . منها علىسبيل المثال لا الحصر :

ـ مكسيم رودنسون « اسرائيل واقع استعماري » ترجمة احسان الحصني مراجعة انطون مقدسي . وزارة الثقافة دمشق ١٩٦٧ .

ـ فرانتز شايدل « اسرائيل امة مفتعلة » ترجمة محمد جديد ، نشر وزارة الثقافة بدمشق ١٩٦٩ .

ـ أيضا محمدجديد « اسرائيل والمشكلة الفلسطينية » ترجمة محمد جديد، نشروزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٠ .

ـ بيار ديمرون « ضداسرائيل » ترجمة : علياء الصلح ، ط ١ دار الطليعة بيروت١٩٦٨

ـ فتحي الرملي « الصهيونية اعلى مراحل الاستعمار » ، نشر دار الكاتب العربي ط٢ القاهرة ١٩٦٨ اضافة الى دراسات مركز الابحاث الفلسطينية ومركز الدراسات الفلسطينية ببيروت .

جاء « الاغتراب » الى ارض كنعان برجعة مأساة . لم تكن «اسرائيل» رجعة تناسخية تابعة لحالة « تأريخية » بدئية كانت قبلا . وانما جاءت « اسرائيل » من تسطير زائف لحلم تتجسد ترجمته بوقائع الجغرافيا الاقتصادية : (١)

١ ـ الجغرافيا العامة : موقع فلسطين الاستراتيجي العام .

ـ الجغرافيا السياسية : تقسيم الوطن العربي ـ قلعة امامية في وجه النقيض الاشتراكي ـ قلعة مضادة نحو دول الشرق وجنوب الشرق ، ونافذة خاصة نحو افريقيا والمحيط الهندي .

ـ الجغرافيا الاقتصادية : السوق التجارية ، المواد الاولية ، خاصة البترول ودور البطولة . لذا ليس من قبيل الصدفة التحام فلسطين والبترول او تمدد فلسطين بترولا والبترول فلسطيناً

ـ الجغرافيا اللاهوتية : محمولات تبريرية لواقع الاقتصاد السياسي .

ـ الجغرافيا التاريخية : تقمص لصيرورة تاريخ ارض فلسطين بحثاً عن استعادة وقائعية لزيف حلم تتطابق هويته مع ذاتية التبشير الاقتصادي بل هي هو ، وهو هي .] .

دخل حضور الاغتراب الى ارض كنعان مع الصهيونية ليؤسس اغترابا نوعيا جديدا للانسان اليهودي في مواطن حضوره ويتحول الانتماء الفلسطيني في موطن حضوره الى حضور اغترابي داخل الوطن واغتراب الحضور خارج الوطن .

فيما يتعلق بالانسان اليهودي ، قدمت الصهيونية له « خلاصا » يعيده الى اغتراب ويستعيده في مأساة ومعاناة . على هذا النحو امتزج

(١) انيس صايغ « الهاشميون وقضية فلسطين » ص ١١ ـ ٤٠ منشورات المحررو المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت ١٩٦٦

ايضا اديب ديتمري « الماركسية والدولة الصهيونية » الفصل الاول . دار الطليعة بيروت ط١ ١٩٧١ .

داخل الخلاص الصهيوني اللاهوت مع السياسة مع الاقتصاد مع فرضية تاريخية زائفة ليتخارج خلاصاً زائفاً هو اغتراب في جوهره الاولاني (١) . ربما كانت مرة أولى في تاريخ نظريات « الخلاص » السياسية واللاهوتية والمجتمعية تتطابق هوية الخلاص مع هوية الاغتراب تطابقاً حملياً بحيث يصبح الخلاص محمولا والاغتراب حاملا . لذلك كان أمراً منطقياً بالاستناد الى مقدمات تتمتع بخصائص ذاتية من هذا النوع ، ان يحمل الخلاص الصهيوني الى الانسان اليهودي عذاباً عوضاً عن السعادة ، وموتاً عوضا عن الحياة . لقد حمل « السم » عسلا . لأن على الصهيوني تقديم حياته ، كيانه الذاتي والموضوعي اضحية في سبيل تحقيق حلم اقتصادي جغرافي يتقمص لاهوتاً (٢) . وربما تكون أعمق مفارقات التاريخ السياسي للقرن العشرين ــ رغم اجابات تحليلات التاريخ السياسي والاقتصادي الصحيحة نسبياً ــ أن تتحول « اليهودية » الى « صهيونية » تمثل الحامل المطلق لتجربة قهر الانسان للانسان التي تسمى حسب مصطلحات السياسة « استعماراً » (٣) .

تداخلت هوية الاغتراب القادم مع هوية الاغتراب القائم ، الغزو مع التخلف، وتطابقا في حضور ثنائي شكل حالة فصم الانسان وزمنه الاغترابي الثنائي عن كلية الكيان : الارض والتاريخ (٤) ، فكانت مثنوية الميلاد الفلسطيني :.

(١) راجع « من الفكر الصهيوني المعاصر » وهو مجموعة المقالات والبحوث التي نشرت في مجلة « الازمنة الحديثة » الفرنسية في عدد خصص للحوار العربي الاسرائيلي . رئيس تحرير هذه المجلة وصاحبها هو الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر .

يعتبر هذا الكتاب أكثر الوثائق الفكرية أهمية لمعرفة الفرضيات الرئيسية للفكر الصهيوني بعد هرتزل . سلسلة كتب فلسطينية (١١) مركز الابحاث الفلسطينية بيروت .

(٢) د . اسعد رزوق « اسرائيل الكبرى » دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني سلسلة كتب فلسطينية ١٢ ، مركز الابحاث بيروت ١٩٦٨ .

(٣) د . فايز صايغ « الاستعمار الصهيوني في فلسطين » سلسلة دراسات فلسطينية رقم (١) . مركز الابحاث بيروت .

(٤) د . محمد الزايد « محاولة تحليلية للظاهرة السرحانية » مجله المعرفة عدد ١٠٩ ص ٤٤ ، سنة ١٩٧١ .

- اغتراب داخل الوطن
- اغتراب خارج الوطن

ان التمييز بين نمطي الاغتراب وحالتيه فرضية أولانية لاستيعابه وتمثله واقعا وفكرا .

رحل الفلسطيني نحو غربة الغروب مسافرا مزدوجا في زمن عتمة ليل ينتظر نهارا قادما . رحل ولم يمت [قصد الاخراج الصهيوني] .

كان« حدث » الخروج سنة ١٩٤٨ فصما بين ماهو ذاتي وما هوموضوعي، المكان والزمان والانسان : داخليا و خارجيا .

ـ الداخلي : حامل البعد التجسيدي للكيان . كيانه التمثيلي [التاريخي] مضاع . هويته مسروقة . مأساته حضوره في استلاب وعيه وواقعه . صراعه بين :

ذاكرة الذكر والذكرى ، تأثير الأثر والآثار ، حياة النبض والتصنيم ، إنسانية الوطن والعنصرية (١) .

لذلك تركز قصد الصهيونية منذ البدء بإيقاف جدية التاريخ الفلسطيني بين الأرض / الانسان / والفكرة ، فصم الحدوث عن الاحداث بواسطة الخروج الكلي من فلسطين المكان وفلسطين الزمان وفلسطين الانسان . والخروج الفلسطيني هو خروج عربي مصغر للخروج الاكبر (٢) .

صراع يتمدد بين تزمنات الكيان والوعي ويمتد من «اللغة»الى «الاجتماع» و « التاريخ » . نقض اصطناعي مع حضور الاغتراب الذي فصم الانتماء وحوله الى اغتراب حضور كشف عنه بمستوياته الكلية من الحياة اليومية

---

(١) د. اسعد رزوق « الصهيونية وحقوق الانسان العربي » مركز الابحاث . بيروت .
ـ أيضا صبري جريس « العرب في اسرائيل » ج ١ و ج ٢ . مركز الابحاث بيروت .
ـ أيضا د . يعقوب خوري « حقوق الانسان في فلسطين المحتلة » مركز الابحاث بيروت.
(٢) د . أنيس صايغ « فلسطين والقومية العربية » ابحاث فلسطينية رقم (٣) مركز الابحاث بيروت .

البسيطة العادية الى تجريدات [متعاليات] الفكر العلمي واحالات الفكر الفلسفي .

اغتراب الحضور

تتضح نقطة الفرق بين حضور الاغتراب واغتراب الحضور بانتقال « ال » التعريف ، التعيين ، من مفردة الاغتراب الى مفردة الحضور في المستوى اللساني الذي يقول تعبيرا متعاليا ما هو واقع كينوني حاضر . او ماهو « شيمي » داخلي وما هو « خارجي » . بصيغة اكثر مباشرة . هي نقطة الفارق في زاوية الرؤية بين الانسان الفلسطيني داخل الوطن « المتشيع » الشيمي .

والانسان الفلسطيني خارج الوطن «الخارجي» المتخارج .يتصالب الأول مع الثاني والثاني مع الاول في « قضية الانسان » الفلسطيني . اما التقسيم فمتات من اقتضاء تحليل « القضية » ك « موضوع » مـا زال حدثا متزمنا واحداثا متزامنا ك « حادثة » « واقعة » ، انسانية كيانية تعكس « قضية » يتخطاها الانسان ارضا والانسان / عن / ارضه حالة نوعية تطرح تطور الانسان المستقبلي اذا انتقل الوعي من ارض الوطن كمساحة سياسية ، الى « الأرض » بوصفها كرة اممية . أو هي انتقال من الشعور الوطني الى الشعور الكوني ! ! ؟ فهل يرتبط الاغتراب السياسي مع الاغتراب الكوني ؟

يرجع السؤال تداعيات السؤال الى نقطة الفارق التي تقسم جدل الاغتراب الفلسطيني الى « داخلي » و« خارجي » . وكما استدعى حضور الاغتراب « الداخلي » ، كذلك يستدعي اغتراب الحضور « الخارجي » : حامل البعد التمثيلي للكيان اي التاريخ . كيانه التجسيدي [الارض] مضاعة . ماساة حضوره مضاعف بمتوالية المنفى الثلاثي [الوطن ، الامة، الاممية] « صراع الحضور الكلي للنفي الكلي ، الاستمرار ضدالقطيعة ، العودة ضد الخروج ، التذكير ضد النسيان ، الاحياء ضد الاماتة ،

التمرد ضد الرضوخ ، المواطنة ضد اللجوء ، الحرية ضد القيد ، التمثل ضد الفصام ،الواقع الانساني ضد الواقع الاستعماري(١) ،الادلةعلمانية نقض الادلة الصهيونية .

الخارجي اذن ، في مداخلة أثنائية لحضور الاغتراب الوطني والقومي والاممي .[مفهوم القطر =الانفصال =الحدود . مفهوم الامة=الوحدة= تنحط لمحدودية الحدودنحو محدودية أوسع . فهيتوسط نحوالاممية.

لذلك تتركز قصدية فصله نحو الدخول الكلي كمقابل للخروج الكلي . وبما ان الصهيونية اغتراب غربي [أوربي] لليهودية استمد حضوره الاغترابي منتجربتها الحضارية لذا هي عاجزة عنتمثيل ناتجها الاغترابيالذي فعلته [تحاول هذا الآن بعض التيارات اليسارية الجديدة . يلاحظ التناسب الطردي العكسي بين الطرفين . كلما ابتعد الاسرائيلي عن صهيونيته كلما اقترب من الاغتراب الفلسطيني ، والعكس] . بل تسقط الصهيونية وتضفي الصفات السلبية التي ارتسمت في تاريخ معاناة اليهودية على الفلسطيني المعاصر ؟ ! ! فاصبحت « المسالة الفلسطينية » هي « المشكلة» بينما كانت الصهيونية واليهودية الاقتصادية هي المسألة من ما قبل (ماركس)(٣) الى (ابرهام ليون)(٤) الى مابعد (اسحق دويتشر)(٥)اذا اتخذنا الاقتصاد السياسي حاملا لتحليل « المسالة اليهودية » في واقعيتها

(١) د . محمد الزايد « عقلانية زمن الانتحار » مجلة الى الامام عدد ٥٨٤ ص١٥ ، ١٩٧٤

(٢) أنيس صايغ « الهاشميون وقضية فلسطين » ص ١١ .

(٣) كارل ماركس « المسالة اليهودية » ترجمة محمد عيتاني ، مختارات من السياسة العالمية - ١ - .

(٤) ابراهام ليون « المفهوم المادي للمسالة اليهودية » ترجمة عماد نويهض دار الطليعة بيروت ١٩٦٩ .

(٥) اسحق دويتشر « دراسات في المسالةاليهودية » . دارالحقيقة بيروت ط ١ ،١٩٧١ ترجمة مصطفى الحسيني .

التاريخية المادية استنادا الى تطورها الجزئي المتزامن مع تطور الحضارة الاوربيــة الكلي . الجدير بالملاحظة ، أن ماسمي « المسألة اليهودية » في الفكر الأوربي الحديث ــ المعاصر ، كان يسمى عند العرب ومـا زال « المسألة الاسرائيلية » . . . والتمييز بين الاسرائيلية واليهودية دلالة عميقة تتساوق مع التمييز المعاصر بين الصهيونية واليهودية . فاليهودية دين اوطائفة ، تتداخل متعايشة مع مجموع طوائف مسيحية اسلامية . لذا كان اليهودي العربـي مواطنا ، تاجرا ، طبيبا ، فيلسوفا بينما كـان الاسرائيلي التاجر الذي تتركز بين يديه القدرة المالية التي يتخذها وسيلة للدسائس والتآمر مثله في ذلك مثل كل فئة أو مجموعة أو فرد . وعقوبته في هذه الحالة لاتختلف كيفيا عـن عقوبات متعارف عليها . فهو يحاكـم بوصفه « مواطنا » لا بوصفه « يهوديا » . ومن غير المعروف في قانـون العقوبات للحضارة العربية عقوبة خاصة لطائفة من دون الطوائف الاخرى . . . . هل هناك عقوبة مشابهـة لصلب « الحلاج » الصوفـي السنـي العظيم(١) ؟

من مفردة الاسرائيلي جاءت « الاسرائيليات » وهو اصطـلاح ما زال قائما لدى الفكر السياسي العربي المعاصر(٢) .

لو رجع التحليل بالفكر الى الاغتراب الفلسطيني الداخلي والخارجي معا استنادا الى منظور جدلي ، يرى بان « الاغتراب » لم يلج الى الكيان الزماني والمكاني الفلسطيني وانما الى الكيان الارضي والتاريخي العربـي بالنسبة لنظرية القومية ، والى الكيان التجسيدي والتمثيلي للعالم على

---

(١) ضرب ١٠٠٠ جلدة ثم قطعت يداه ورجلاه ثم صلب جذعه وهو مازال حيا ليلة كاملة الى أن جاء أمر اعدامـه في اليوم الثاني ، ٩٢٢ هـ في موقـع يقال لـه « باب الطاق » شرق بغـداد .

(٢) احمد بهاء الدين « اسرائيليات » كتاب الهلال عدد ٢٠٠ ، ١٩٦٧ وقد أعيد طبعـه . ــ راجع د . عبد الرحمن بدوي « شخصيات قلقة في الاسلام » القسم الثاني . دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٤ .

صعيد الاممية . مستويات ثلاثة يمكن قراءتها في مستويات « الفصل السياسي » الفلسطيني وابعاده . وبنفس المنهج يمكن قراءة اشكال « ظاهرة العنف » الفلسطيني ؛ من الحوار مع اذن العالم بتوسط القنبلة [يجب أن يسمع الآخر بالقوة] الى الحوار مع الكيان الصهيوني بتوسط كيان « الأنا » التي تؤمن بتناسخها الوطني غير المتناهي حتى يتحقق قصدها .

بتخليص غاية فيالتذكير . . من خطف الطائرات لزمن الحوار الىالعمليات الانتحارية لزمن الانتحار حيث الموت حوارا نوعيا مع الآخر . ان تحديدات مفردات التحليل هنا تنطلقمن « أحكام وجودها » ظاهرة العنف والانتحار وليس من « أحكام تقييمها » .

بما أن جدل الاغتراب الفلسطيني « الخارجي » متداخل في الاغتراب العربي (١) لذااتجهالاحداث الفلسطيني [كفصل سياسي] موضوعيانحو مطابقة كلية مع « الانتماء القومي » [من اوائل الخمسينات الى اواخرها حتى منتصف الستينات اتجه الاحداث الفلسطيني نحو « فكرة كمون » واكتشاف ذاتي] . واذا شاء الفكر احاطة « الموضوع » بدائرة منطق الوقائع ، يكتشف اغتراب الحضور الفلسطيني بوصفه هاملا علائقيا لمستويات الاغترابالثلاثة : الوطن ، الامة ،الامية .لكن ، وبنتيجةفترة الكمون أو الارتداد نحو اكتشاف الحامل الذاتيللحدث انتقلالحدث الى الاحداث أو المحمول الى الحامل ، من القضية الى الانسان . أو بتحديد جدلي ، ثم تجاوز مسافة قطيعة الجدلبين واقعيةالاغتراب الموضوعية، لـ « حاضر قومي » و « أممي » وبين واقعية الاغتراب الذاتية الحاضرة لـ حدث «وطني» . وهي نقلةكيفية وتجاوزجذري حققتهظاهرة«المقاومة».

---

(١) العلاقة بين « المسألة الفلسطينية » و « المسألة القومية » علاقة استدعائية تجاوزية معا .

ـ انظر د . محمد « الزايد . شبابنا وأزمة التراث » .

لقد انتقل الاغتراب السياسي مع المقاومة ، كتوسط رافع ، من الحدث التاريخي الى« الموضوع التاريخي»(١) وهي لحظة تحويل من صنم القضية الى الحضور الانساني ، فتصبح القضية الى انسانا تتخطى « قضيته » ذاتيته نحو موضوعية عدالة أحكام القيمة الاخلاقية والقانونية والاجتماعية والسياسية والثقافية والحضارية العامة للانسان الفلسطيني واليهودي وانسان العالم المتخلف وانسان العلم المتقدم معا بمستوى الاممية الكلية للانسان في العالم . بهذا التحول نحو الاممية الكلية امكن للفكر السياسي الفلسطيني وفعله الوصول الى مبدأ « الدولة العلمانية » الذي لايتخطى الفكر السياسي الاغترابي للصهيونية وانما الفكر السياسي العربي الحديث ايضا . من ناحية ثانية وبمستوى الاممية الكلية ذاتها ، للاغتراب ـ السياسي والاجتماعي والاقتصادي واللاهوتي والحقوقي والثقافي ـ ، يشارف الفكر افق الاغتراب الفلسفي الذي يتعلق بالكينونية ذاتها من حيث « مضى » ، بذلك يتحقق التحول الكيفي المشار اليه من « الحضور» الى « الموضوع » الى « الانسان » داخل الحمول الحضاري وخارجه .أو من « الحدث » الحضوري للمعاناة الاغترابية الواقعية ، الى « الاحداث» المتعالي للأنا المفكرة ، من الاغتراب الوطني الفلسطيني داخلا وخارجا الى الاغتراب الكينوني الكوني ، .. من السياسة الى الفلسفة والميتافيزيقا .

ولو شاء الفكر القيام باستعادة تلخص تصورات جدلية الاغتراب تتمثل الانا المفكرة التصور الاولاني التالي :

كان حضور الوعي الاغترابي مؤسسا ذاتيا و موضوعيا في اغتراب الصهيوني حضوراً اغتصابيا واعياً من نافذة لاوعي الاغتراب العربي والاممي في مستوياته الكلية : الاجتماعية واللاهوتية ،السياسية والطبقية والثقافية.

(١) اديب ديمتري « الماركسية والدولة الصهيونية » ص ١٢ ، مجلة المعرفة عدد ١٠٧ ص ٢٠ ــ ٢٦ ، ١٩٧١ .

واللاوعي هو سبات الوعي او غيابه . او هو الوعي من مستوى نوعي مختلف او اللايقظة .

بينما الوعي هو الانتباه او الحضور اليقظ او نهوض اللاوعي . والنهضة من نهوض نقيض القعود او الوعي في حالة التراخي. والمفردتان: « اليقظة» و « النهضة » من المفردات الاولانية في تاريخ الفكر السياسي ـ الحضاري الحديث والمعاصر ، سواء عند العرب وغير العرب :

ـ النهضة الاوربية الحديثة .
ـ النهضة العربية الحديثة .
ـ اليقظة العربية الحديثة .
ـ عصر النهضة او اليقظة الثورية .

ولأن « ظاهرة المقاومة» و« الثورة » برفع سياسي اوسع ، هي ناتج جدلية الاغتراب بين الحضور والغياب ، فانها تتجه نحو تحقيق غاياتها القصدية الى خذف الاغتراب الانساني في جميع مستوياته والغائه بالعودة الى« وطن » . وعندما يجابه قصد التحرر من الاغتراب مع حضور الاغتراب بتوسط« فصل العنف» حتى وانه كان لاعنفا[المقاومة على مذهب غاندي « اللاعنف »] . ان تحقيق « القصد السياسي » لايتم الا خلال مجابهة بين حضور الاغتراب واغتراب الحضور ذاتيا وموضوعيا .

بظاهرة العنف وفعلها ، يتوقف التحليل امام اعراضات سؤالية للمرة الثانية :

ـ ما هي العلاقة بين الاغتراب والعنف ؟
ـ ما هو دور العنف في التاريخ ، (١) ودوره في انشاء الانسان ؟

---

(١) اشير الى دراسة انجلز « دور العنف في التاريخ » التي لم تستوف موضوعها في حينه بشكل كلي عالمي الامر الذي لاينقص قيمتها العلمية العميقة بالنسبة لاوروبا وتجربتها الحضارية . ١٩٧٣ ترجمة د . فؤاد أيوب ، دار دمشق

ـ هل العلاقة بين العنف وتحقيق عدالة أحكام القيمة علاقة جوهرية ام عرضية ؟

ـ ما العلاقة بين الفلسفة والعنف ؟

ـ هل التحليل الفلسفي للعنف حكم قيمة ام حكم وجود ؟

ـ هل في الفلسفة عنف عقلي متعال يقود في تطبيقه السياسي الى عنف واقعي حسي ؟

ـ هل يرتكز وعي الفيلسوف على احكام الوجود فقط ؟

ـ هل العلاقة بين الفيلسوف والسياسي جوهرية أم عرضية ؟

أو ما هي ؟

ـ بالتالي ما الفارق الوجودي أو القيمي أو كلاهما بين جمهورية الفيلسوف وجمهورية السياسي ؟ ولماذا فشلت الجمهورية المتعالية عن صعيد التحقيق الواقعي حيث نجحت جمهورية الواقع ؟

ـ ما هو الفرق بين الانسان الفلسفي والانسان السياسي ؟ سؤالات تتوالد بطريقة الانشطار الذاتي مرة ثانية تستمد أساسيتها من اثارة الوعي للسؤال الاولاني حول « معنى حضور الانسان في الكون » وعلاقة معنى الحضور بالانا المفكرة حيث تبدأ مداخلات المعاناة والشعور ، الادارك والفهم ، التعقل واللغة ، اللغة والكلام ، التعبير والدلالة الدلالة والمعنى . سؤالات حاول الانسان مذ كان انسانا فض مبهماتها وتمثل مجاهيلها وصولا الى تحقيق « المعنى » والفاء «للاغتراب» حاول ، وما زال مشروع محاولة ؛ وسيبقى على عتبة العلم يواجه الوعي الجحيم ، والمعرفة ليست سوى السقوط الى السنة ناره .

العقيدة القتالية عند العرب «الفتوحات»

الدكتور سهيل زكار

توافق ايام الاسبوع الاول من هذا الشهر موعد الذكرى الثانية لقيام حرب تشرين التحريرية، وهي الحرب التي استهدفت ان تعيد الى الانسان العربي عزته وكرامته وأرضه ، وكانت اول حرب حقيقية تخوضها القوات العربية في تاريخ العرب الحديث ، ولا شك ان لهذا أهميته الخاصة ومعانيه المتميزة ، ولذلك كثرت الكتابات حول هذه الحرب وتعددت الاحاديث حول ما نتج عنها من عظيم الأمور ، وتناولت بعض الابحاث التي قامت حولها النواحي الفنية العسكرية البحتة منها ، وهنا في غمرة الجدل في هذه الأبحاث لاحظت انها دارت حول محورين أساسيين : دعي كل واحد منهما باسم عقيدة قتالية ، اولاهما شرقية سوفياتية والأخرى غربية .

ولطالما تساءلت اثناء هذا كله : اوليس الرجال الذين خاضوا غمار الحرب عرباً ، لامتهم تاريخ عسكري عظيم لا نظير له ، ثم اوليست الارض التي وقعت فيها المعارك هي الارض العربية التي سكنها العرب منذ فجر التاريخ ، فاحسنوا منذ ذلك الوقت الدفاع عنها والهجوم منها ؟ لا إن الحديث عن صراع بين عقيدتين قتاليتين اجنبيتين في حرب عربية تحريرية فيه بعض البعد عن الواقع والحقيقة ، خاصة وان الانسان هو الانسان والأرض هي الأرض وإن اختلف الزمان واختلفت الأسلحة !

وكنت ادركت منذ زمن أن عدداً من الاختصاصيين في التاريخ العسكري من الجانب الاسرائيلي قد شاركوا بشكل مؤثر وفعال في وضع خطط حرب الايام الستة وما زال هؤلاء يشاركون حتى الآن في تصميم خطط العدو وفي اعمال تدريب الجند والضباط ، وفي هذا الحين بحثت في شؤون جيوش الدول العربية فوجدت انمعظم هذه الجيوش ليس فيها اختصاصي واحد في تاريخ العلوم العسكرية ؛ وان هذا العلم مهمل احياناً او يدرس بشكل اجنبي ؛ او بشكل بدائي في غاية التخلف ، وذلك من قبل بعض اصحاب الهواية ؛ وشتان ما بين الهواية القائمة على العاطفة ؛ والرغبة المدعومة بالوهم ، وبين الاحتراف المدعوم بقوانين العلم والاختصاص القائم على المعرفة الحقة والمنطق الصرف !

لقد دفعني هذا الحال نحو البحث في تاريخ العلوم العسكرية عند العرب ، والانطلاق في البدء في التفتيش عما اذا كان لدى العرب عقيدة قتالية خاصة ، ولا بد لي أن اعترف هنا بانني لست من ذوي الاختصاص بالتاريخ العسكري لدى العرب او لدى سواهم ، انما انا اختصاصي بشكل اساسي في تاريخ العرب والاسلام ، وتفاعل جوانب هذا التاريخ وتكاملها فرضت علي تعلم اصول وقواعد البحث في التاريخ الحضاري ؛ والسياسي والعقائدي ، والاقتصادي ، والعلمي التقني ، والعسكري وغير ذلك .

والآن ارجو أن يكون عملي في البحث عن العقيدة القتالية عند العرب محرضاً ودافعاً نحو الاهتمام بشكل علمي صحيح بالتاريخ العسكري مع تاريخ العلوم العسكرية عند العرب ، وأن يُعمل على اعداد بعض ذوي الاختصاص في هذا الميدان وذلك بالتعاون بين اجهزة وزارة الدفاع والجامعة .

★★★

الحرب عند العرب بعد ظهور الاسلام هي عمل مشروع مسوغ ذو هدف عقائدي ؛ وله غايات انسانية تحريرية بحتة ، وتخاض

الحرب عند الضرورة ، بعدما تنعدم الوسائل السلمية للاصلاح وتحرير الانسان وهدايته الى المنهج القويم ، وتتوقف الحرب عند التوصل الى هذه الغايات ؛ فالحرب على هذا وسيلة من وسائل الثورة الاصلاحية التحريرية ؛ ويمكن القول بأن العرب كانوا اول امة في التاريخ أحسنت استخدام العنف الثوري وطبقت مناهجه بشكل مثالي .

ومن خلال دراسة المعارك التي خاضها العرب بعد الاسلام ـ وحتى قبله ـ يلاحظ انه كان لديهم عقيدة قتالية خاصة ذات أسس ومبادىء متميزة واضحة ، والى هذه الأسس وطبقاً لهذه المبادىء خاض العرب العديد من المعارك وحققوا النصر وحازوه .

ونبعت هذه العقيدة من تقاليد ما قبل الاسلام ، والم بها تطور كبير بسبب قيام الاسلام وأثناء العمل على نشره ، وارتبطت مبادىء هذه العقيدة بشكل أساسي بطبيعة الأرض العربية التي هي في الغالب سهول منبسطة ليس فيها غابات ، تسيطر عليها الطبيعة الصحراوية ، ومناخ هذه الأرض شديد الحرارة في الصيف ، والربيع هو انسب الأوقات للقتال لتوفر المراعي والمؤن .

واسهمت هذه الحالة في تكوين المقاتل العربي وفي نوع البسته وسلاحه وعتاده ، فالمقاتل العربي كان يرتدي خفيف اللباس ويحمل الخفيف من السلاح لذلك تمتع بالمرونة بالحركة ، وكان السيف دائماً هو السلاح الرئيسي لديه ، وغالباً ما كان المقاتل فارساً يقاتل بالسيف وبالاضافة للسيف استخدم العرب الرماح والحراب والنبال ، وكان الجمل حيوان المقاتل العربي الاول وتلاه في المنزلة الخيول على انواعها ، والزمت الطبيعة الصحراوية المقاتل العربي على التزام قوانين خاصة بالتموين ؛ كما ان التكوين العشائري للمجتمع العربي والتركيب النفسي للانسان العربي قام بتحديد طبيعة الجيوش العربية من حيث التعبئة والسوقية .

وامتازت هذه الحال بشكل متباين عن أحوال الأمم التي خاض العرب الحروب ضدها خاصة الامبراطورية الفارسية والدولة البيزنطية ، فقد

عرفت هذه الأمم الجيوش النظامية ذات الأسلحة الثقيلة والقواعدالثابتة في القتال والحركة .

وعلى هذا كانت طبيعة المقاتل العربي ثم طبيعة خصومة أحد ينابيع العقيدة القتالية عند العرب وبتصوري أن هذه العقيدة قد قامت على القواعد التالية :

١ ـ استهدفت هذه العقيدة اولا الفصل بين الجيوش التابعة للسلطات العدوة الحاكمة وبين جماهير الشعوب المحكومة سواء أكان ذلك محلياً وطنياً أم اجنبياً امبراطوريا ، وكانت عمليات الفصل هذه تتم بوساطة الدعوة الى الاسلام ، مع بث مبادىء الاصلاح والتحرر والترغيب بالثورة والحض عليها ، فاذا لم ينفع هذا كانت عمليات العزل تتم بوساطة الترهيب باثارة الرعب بالغارات ، وباقامة حرب نفسية دعائية كبيرة للغاية ، وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: « نصرت بالرعب » ، وكثيراً ما ترافقت عمليات الترهيب هذه مع شراء الزعامات المحلية الجديدة ، وإثارة النزاعات على اختلاف انواعها ، ويفسر هذا كثرة نصوص الاتفاقات ـ التي فيها بعض التباين ـ التي عقدها العرب الفاتحون مع اصحاب القرى والمدن في البلاد المفتوحة ، وكانت هذه الأعمال تتم بناء على خطط مرسومة تنفذ بعد عمليات استطلاع واسعة ، كانت تستهدف جمع كافة انواع المعلومات ، بشكل مباشر عن طريق الجواسيس والعملاء أو عن طريق خطف وأسر بعض رجالات العدو ، وفي أخبار الفتوحات الأولى شواهد بينة على هذا يراها الباحث في أعمال النبي الحربية داخل الجزيرة وخارجها ثم في اعمال الخلفاء من بعده .

٢ ـ لما كانت القوى المعادية قوى نظامية في الغالب ، كبيرة الاعداد عظيمة العتاد ، كثيرة المؤن ، حسنة التدريب ، لذلك كان المتطلب ارباك هذه القوى وتضليلها ، وتمزيقها ثم انهاكها وبالتالي تحطيم معنوياتها ، وحين يتحقق ذلك كانت هذه القوات المعدية تجبر على الالتحام في معارك كبيرة في ظروف جغرافية وتموينية وقتالية غير مناسبة لها بتاتاً .

٢ ـ وقبيل الالتحام في المعركة كان يتم وضع الخطط القتالية المبدعة المناسبة للموقف ، وفي هذه الخطط كان يعتمد دائماً على عامل للمفاجأة جديد ، لذلك اعتمد العرب على الكمائن اعتمادا كبيراً وكانوا لا يزجون بجميع قواهم في الملحمة بل كانوا يحتفظون بكميات كبيرة من الاحتياط كانوا يزجونها ساعة إلمام التعب والانهاك بالقوى الملتحمة ، وبذلك كانت تفصل المعارك بسرعة وبنجاح كبير .

وغالباً ما بنيت خطط الالتحام وقامت على قاعدة الفصل بين أسلحة القوات المعادية ومن ثم ايقاع الضربة بكل سلاح على انفراد ، ذلك أن قوات الدول الامبراطورية التي حاربها العرب اعتمدت بشكل أساسي على سلاح للفرسان ثقيل يحمل أفراده الرماح الطويلة المتينة ويرتدي المقاتل مع فرسه دروعاً حديدية كاملة التستير والغطاء ، وكان سلاح الفرسان الثقيل هذا يقع على عاتقه عملية خرق صفوف القوات المعادية ذلك ان الفارس كان يعتمد على قوة اندفاع حصانه وكان يسلط رمحه بشكل يمكنه من خرق صدور عدد من المقاتلين في دفعة واحدة ، ويمكن تشبيه سلاح الفرسان هذا بدباباتالعصر الحديث ، وكان سلاح الفرسان يحاط من الأمام بقوة من الرماة ومن الخلف والأطراف بقوات الرجّالة « المشاة » لذلك استهدفت خطط العرب في الالتحام هدر قوة اندفاع الفرسان الأولى والقيام بالفصل بين المشاة والفرسان وانفتك بكل منهما على حده ، وغالباً ما كانت عمليات الفصل هذه مربكة دقيقة في غاية الصعوبة إنما على العموم نجح العرب في تنفيذها ، وعندما كان يتم فصل المشاة عن الفرسان كانت جهود العرب تنصرف في الاول نحو الفتك بالمشاة ثم الى انهاك الفرسان ، والذي كان ينهك الفرسان ليس ثقل الحديد من الدروع ولكن طبيعة الحديد كمعدن يتفاعل مع الحرارة ويمنع من التعرق واي جسد يوضع في حال ترتفع فيه الحرارة ويتوقف فيهالتعرق لا بد وأن يصاب بالانهاك في لحظات ، وغالباً ما كان العرب يعمدون الى احداث الحرائق في أماكن تجمع فرسان العدو ، بقصد زيادة الحرارة والاستفادة من الدخان كعازل للرؤية وكخانق ، ولعل هذا يفسر لنا ما

تحويه المصادر العربية من قوائم لغنائم العرب عقب كل نصر ، فيها من كل شيء كثيره اللهم الا الخيول ، ذلك ان الخيول كانت تموت من الاعياء بعد ساعة الفصل ، وبموتها كان يسهل القضاء على الفرسان لانهم كانوا يصبحون بلا سلاح تقريباً ، فالرمح الطويل يمكن القتال به فقط من على ظهر الفرس وبوضع خاص .

وكيما تتضح قواعد هذه العقيدة مع طرق تطبيقها سأقوم باعداد ابحاث ثلاثة اجعلها كنماذج ، وسأتناول الآن في أول هذه الأبحاث الفتوحات العربية الكبرى أيام ابي بكر وعمر بشكل خاص ، ثم سأتناول في البحث الثاني معركة منازكرد التي وقعت سنة ٤٦٣ هـ/١٠٧١ م واخيراً سأبحث في معركة حطين ، وقبل الشروع بهذا كله ارى من المفيد الاشارة الى ان العرب اتقنوا بالاضافة الى فنون الهجوم من القتال فنون الدفاع ، وبرعوا في قتال البحر بالاضافة الى البر ، كما عرفوا انواع الجيوش « والميليشيات » الشعبية ، وابدعوا في التصنيف في العلوم العسكرية وفي صناعات الاسلحة والعتاد ، واجادوا في وضع قواعد للاقتصاد الحربي وحياة الطوارىء وقوانين الحروب ومعاملة الاسرى وغير ذلك مما هو جدير بالدرس والتتبع .

★★★

الفتوحات :

بعدما فرغ الخليفة الأول أبو بكر الصديق من حروب الردة اخذ يوجه قواته وقوات قبائل شبه جزيرة العرب نحو اطراف الجزيرة وما جاورها من دول كفارس وبيزنطة ، ولقد استطاعت هذه القوات في فترة قصيرة من الزمن تحقيق معجزة التاريخ الانساني الكبرى ، ومعضلته المحيرة التي يصعب حل جميع الغازها ، وهي الفتوحات العربية ، وإقامة الدولة العربية العظمى ، وتقوم مشكلة الفتوحات العربية على عدة مسائل اهمها :

١ ــ كيف استطاعت جموع من بدو الصحراء لا تتقن الا مبادىء بدائية في القتال ، وليس لديها الا بعض الاسلحة الخفيفة غير جيدة الصنع ، قهر الجيوش النظامية لأكبر امبراطوريات العالم يومذاك ؟

٢ ــ كيف استطاعت هذه الجموع تحويل الفتح العسكري الى احتلال دائم مزج الأرض ومن عليها ، وغير معالم الانسان في الزمان والمكان ، وجاء بانسان جديد أبدع الحضارة العربية ؟

٣ ــ هل تمت الفتوحات بناء على خطة واضحة وهدف معلوم أم جاء ذلك بمحض الصدفة ونجح وتطور بعامل الزمن ؟

٤ ــ ما هو المحرك الذي دفع الى الفتح وساعد عليه ، وابقى حركته حية فيها حرارة وتدفق مستمران ؟

وفي محاولة للاجابة على مجمل هذه الأسئلة وغيرها نجد أن مؤرخي العصور الوسطى من مسلمين ومسيحيين عزوا امر نجاح العرب في فتوحاتهم وارجعوا سره الى قوى غيبية ، فالمؤرخ المسلم رأى في ذلك تحقيقاً لارادة الله حين بعث نبيه محمداًرحمة للعالمين وهادياً للبشراجمعين من كل جنس ولون في كل بقاع الارض ، فقد وعد الله نبيه وعباده النصر والنجاح ، وحقق هذا الوعد حين نصرهم على كل امم الآرض ، ورأى المؤرخ غير المسلم أن سر النجاح يعود لامتلاك العرب قوة شيطانية ولمساعدة القوى الخفية للشيطان لهم .

واعتقد المؤرخ المسلم للعصور الوسطى أن الذي حرك العرب ودفعهم في سبيل الفتح ومكنهم من تحويل القهر الى احتلال دائم غير الانسان والمكان هو الاسلام ، الرسالة التي بعث الله بها نبيه محمداً ، وعلى هذا كانت اعمال الفتح جهاداً في سبيل الله ، وكان هدف الفتح اعلاء كلمةالله واحلال التوحيد محل الشرك ، والايمان محل الكفر ؛ ويرى هؤلاء ان محمداً وضع خطة واضحة للفتوح ، ويدللون على ذلك بما جاء فيالقرآن

وفي أقواله ثم برسائله لحكام وقته وحملاته ضد بلاد الشام ، وجيش اسامة بن زيد آخر جيوشه الذي انطلق في مهمته بعد وفاة النبي .

ورفض المؤرخ الحديث هذه التعليلات وبات يفتش عن أسباب اخرى، وتمت امور الرفض والتفتيش هذه أول ما تمت في أوربة الغربية وعلى ايدي باحثين غربيين ثم قلدت في المشرق العربي والبلاد الاسلامية ، ولم تعد آراء المشارقة التقليد الممسوخ لما تم في الغرب .

وكانت اعمال البحث في التاريخ الاسلامي قد بدات مع تطور النهضة في أوربة ، ومرت هذه النهضة بمراحل كانت أولاها : أعمال التحرر من الكنيسة مع الرفض للمعتقدات والأديان ، ثم تبع ذلك قيام القوميات الاوربية ، ولحق هذا قيام المشاكل الاجتماعية في أوربة مع مدارس التفسير الاقتصادي والمادي ، لهذا رفضت أول الابحاث الأوربية العامل الديني ، ورفضت معه فكرة عالمية الدعوة الاسلامية . وعزت انتصار العرب الى ضعف بيزنطة وفارس من حروبهما المستمرة ، وجاء بعد هذا من قال بأن الفتوحات الاسلامية وقيام الدولة العربية ما كانت الا ثمرات تحرك القومية العربية على يد محمد موحد العرب الأول وقائدهم الأعلى ، ولحق هؤلاء من قال بأن عرب الجزيرة تحركوا نحو الفتح لضيق الرقعة الجغرافية لبلادهم ، ولعدم مقدرتها على تزويدهم بالطعام ، وإننا لنرى في كتابات كايتاني ثم فلهوزن وبعد ذلك كاهن وكابريلي ولويس وبالييف امثلة شاهدة على هذا التطور .

والعيب المميت في أبحاث كل هؤلاء ــ رغم ملامستها لكثير من جوانب الحقيقة ، هو ان اصحابها بحثوا في تاريخ الفتوحات العربية وتاريخ الاسلام لا لاستكشاف حقيقة ما حصل كما تروي اخباره المادة التاريخية، وانما للبرهنة على صحة صورة مسبقة قامت على عقيدة سائدة من عقائد البحث ؛ ومثل هذا التطبيق هو انحراف عن الواقع وتشويه وتزوير ، فلو جمعنا كل ما لدينا من مواد تاريخية عن أعمال الفتوح العربية لوجدناها

خالية من اخبار تتحدث عن اية ازمات اقتصادية ومجاعات في الجزيرة زمن محمد وزمن ابي بكر ، ثم إن محمداً كان نبياً للاسلام ولم يكن نبياً بعث للعرب فقط ، نبياً وحّد العرب من اجل نشر الاسلام ، واعتبر الجهاد هو العمل المراد فيه وجه الله واعلاء كلمته ، وليس غير ذلك .

ونحن حين نفحص اخبار الفتوح نجدها قد تمت على ايدي بشر ارتبطت مثاليتهم بالواقع لا بالخيال ، فكان كل واحد منهم يقول : « إن لربك عليك حقاً ، وإن لجسمك عليك حقا ، وان لزوجك عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه » ، ولعل سر نجاح العرب العظيم يكمن في العمل على الارض والقلب مشدود الى السماء ، فلقد استطاع عرب الفتوح ان يعملوا في سبيل دنياهم كأنهم يعيشون ابداً ، وكان هذا العمل الدنيوي عملاً في سبيل الآخرة ، كأن صاحبه كان سيموت غدا ، فالاسلام أول عقيدة مزجت المفهوم الدنيوي بالمفهوم الديني ، فكان كل عمل يقوم به الانسان حتى متعته الفردية صار تعبدياً يمكن أن يتقرب به الى الله سبحانه .

على هذا لقد تحرك العرب لفتح العالم تبعثهم عدة بواعث بعضها أعلى من بعض ويتبعون عدة غايات بعضها ارفع من بعض ، باعثهم الاول العقيدة ، وغايتهم المثلى نشرها ، لكن هذا النشر من أجل سعادة الدنيا وهناء الحاضر ، وبسعادة الدنيا وهناء الحاضر يتحقق رضى الله والقرار في الجنة حيث الهناء الأبدي والسعادة السرمدية بلا عناء ولا شقاء .

ولنبدأ الآن بالحديث عن أشهر أعمال الفتوح ، وسنسوق هذه الاخبار جملة لا بتسلسل عهود الخلفاء ، ولما كانت الفتوحات قد تمت في البداية على جبهتين : واحدة شامية والأخرى عراقية ، فاننا سنعالج أخبار كل جبهة على حدة ، وسنبدأ بالحديث أولا عن جبهة العراق لاسباب جغرافية ثم لأن الأعمال العسكرية بدأت فيها أولا .

جبهة العراق :

كانت منطقة العراق خاضعة للامبراطورية الساسانية الفارسية ، وكانت هذه الامبراطورية قد ساعدت في عصور سابقة على قيام إمارة عربية في منطقة الحيرة ؛ لكن عند قيام الفتوحات العربية كانت إمارة

الحيرة ليست موجودة فعلا ، كما ان الامبراطورية الساسانية كانت في القرن السابع للميلاد تعاني من مشاكل داخلية سياسية او اجتماعية واقتصادية خطيرة ، وكانت منطقة وادي الرافدين مرتعا للقبائل العربية منذ فترات طويلة سبقت القرن السابع ، كما ان سكان العراق وخاصة سواد الشعب في الارياف والمدن كانوا من اصل ممتزج بالعرب ، وكانوا يكرهون الفرس وعلى استعداد للتعاون مع اية قوة تنقذهم منه ، ولقد كانت القبائل العربية تعيش في صراع دائم مع جيوش الامبراطورية الفارسية ، وعندما كان محمد يبشر بالاسلام حققت هذه القبائل نصرا كبيرا على الفرس في معركة ذي قار ، وكانت قبائل بكر بن وائل أعظم قبائل العرب المعادية للفرس، وعندما عم الاسلام شبه الجزيرة تأثرت هذه القبائل بالاسلام وتبناه عدد كبير من افرادها .

ومع قيام خلافة ابي بكر كان احد زعماء قبيلة شيبان من بكر بن وائل وهو المثنى بن حارثة قد أخذ لنفسه زمام مبادرة العمل العسكري ضد الفرس، وعندما قضي على حركة الردة أمر ابو بكر خالد بن الوليد بالتوجه نحو العراق والتعاون مع المثنى وكان هذا سنة ١٢ هـ / ٦٣٣ م ، وسبق للمثنى قبل وصول خالد اليه ان زار المدينة واجتمع بابي بكر ، فكتب هذا الخليفة عهداً فوض له بموجبه العمل لصالح المسلمين ضد الاراضي الفارسية .

وفي خلال أقل من عام واحد استطاع خالد بعاونه المثنى تحقيق عدد من الانتصارات على حاميات الحدود الفارسية مع القوات التي جاءت لنجدتها ، وتتوج عملهما بحصار مدينة الحيرة حاضرة المناذرة والاستيلاء عليها صلحا ، وقام أبو بكر بامداد خالد بقوات جديدة ، وجعله قائداً على لجميع القوات العربيةفي جبهة العراق، لكن مكوث خالد لم يطل في العراق حيث جاءته اوامر الخليفة بالتحول الى بلاد الشام حيث سيقوم بجليل أعماله التي ستعطيه شهرته التاريخية الواسعة .

وبعد تحول خالد الى الشام حل المثنى محله في قيادة قوات الجبهة العراقية وبقي المثنى في منصبه حتى توفي ابو بكر، وأثناء ولايته استطاع صد جميع المحاولات الفارسية التي ابتغت استعادة العراق وطرد العرب الى جزيرتهم، وبعد وفاة ابي بكر في سنة ١٣ هـ/ ٦٣٤ـ ٦٣٥ م استخلف عمر بن الخطاب ، وكان اول عمل عسكري قام به هو عزل كل من المثنى عن قيادة الجبهة العراقية ، وخالد بن الوليد عن قيادة جبهة الشام .

وانتدب عمر لقيادة الجبهة العراقية ابا عبيدا الثقفي ، وكانت أول اعمال ابي عبيد انتكاسة كبيرة للعرب كادت تخسرهم جميع ما حصلوا عليه في العراق من انتصارات ، وذلك في معركة الجسر في منطقة قس الناطف على الفرات ، وقتل في هذه المعركة جمع كبير من القوات العربية كان من بينهم ابوعبيدة نفسه، ولقد استطاع المثنى بفضل حنكته واقدامه تخليص العرب من الفناء ، والانسحاب بهم ، وقد أصابت المثنى في هذه المعركة جراحات بالغة .

واثرت هزيمة الجسر تأثيرا كبيراعلى معنويات الجندالعربي، وظهر هذا عندما اخذ عمر يندب الفارس للذهاب الى العراق نجعلوا يتحامونه ويتثاقلون عنه حتى هم أن يغزو بنفسه ثم تمكن من تجنيد قوة صغيرة من قبائل الأزد وقبائل بجيلة ، وعندما وصلت هذه القوات العراق مكنت المثنى من الانتقام لهزيمة الجسر وذلك في معركة البويب، بعد نصر البويب توفي المثنى متأثرا بجراحه التي اصابته في الجسر ، ولقد حدث هذا كله سنة ١٣هـ / ٦٣٤ ـ ٦٣٥ م، وهي السنة الاولى لحكم عمر بن الخطاب، ويعتبر المثنى من أبرز أبطال الفتوحات العربية ، وهو بحق مؤسس العراق العربي وموجده .

وشجع نصر البويب العرب فأخذت قواتهم تتدفق من جديد على الجبهة العراقية ، وأخذت هذه القوات تضغط بشدة على الامبراطورية الساسانية ، مما دفع هذه الامبراطورية الى تجنيد جميع طاقاتها لصد

العرب، فجمعت جيشا لجبا أوكلت قيادته لاعظم قادتها وضباطها، وكان على راسهم رستم ؛ وفعلت فارس ذلك بعد أن حلت معظم مشاكلها السياسية .

واثر زحف القوات الفارسية على القوات العراق العربية فاخذت تنسحب من مواقعها المتقدمة الى مواقع تلتقي فيها ؛ ووصلت عمر اخبار العراق المقلقة ففكر في تجييش قوة يقودهابنفسه، لكنه قرر اخيرا تعيين سعد بن أبي وقاص وتسييره الى العراق، والتقت القواتالعربيةبالقوات الفارسية في ارض القادسية ؛ وكانت أفضل تسليحا حيث اصطحبت عددا كبيرا من الفيلة . واشتبكت قوات الطرفين في معركة ضاريةللغاية استمرت ثلاثة ايام بلياليها ؛ وعندما تمكن العرب من التخلص من سلاح الفيلة انقلبت الموازين لصالحهم ؛ وقد اسفرت المعركة عن سحق القوات الفارسية ؛ وادى هذا الى سحق الامبراطورية الفارسية ومن ثم ازالتها من الوجود ؛ وتمت هذه المعركة على الأرجح سنة ١٥هـ / ٦٣٦ — ٦٣٧ م.

وقد منح انتصار القادسية غنائم كثيرة ؛ كان على راسها العراق ؛ وفتح هذا النصر الطريق امامهم نحو المدائن ؛ فاستولوا عليها ؛ وأخذت بقايا القوات الفارسية تنسحب محاولة تجميع نفسها ؛ ومن ثم ايقاف الزحف العربي الهادف نحو تصفية الامبراطورية الساسانية ؛ واستغرق ذلك عدة سنوات وقعت خلالها معارك عدة كان آخرها وأشهرها واكثرها أهمية معركة نهاوند وذلك سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م .

وتم اثناء عمليات التصفية تنظيم أحوال مقاطعات الامبراطورية المقهورة وتكون ادارة عربية لها ؛ وزاد تدفق العرب من شبه الجزيرة على العراق، وأقام العرب معسكرات دائمة لقواتهم في العراق، كان أبرز هذه المعسكرات اثنين هما البصرة والكوفة ؛ ومع الأيام تحول هذان المعسكران الى مدن ثابتة وكبيرة .

جبهة الشام

وحينما كانت الجيوش العربية نشطة ضد الفرس كانت تعمل ايضا ضد الدولة البيزنطية وقواتها في بلاد الشام والجزيرة ثم في مصر وغيرها من المناطق، ولقد بدات الأعمال العسكرية ضد بلاد الشام منذ عهد الرسول، وكانت آخر قوة جهزها قبل وفاته اراد ارسالها ضد بلاد الشام ثم توفي ؛ فكانت أول الجيوش التي تحركت زمن أبي بكر في مهمة شبه استطلاعية، وعلى الرغم من هذا فان حروب الردة قد عطلت العمل ضد بيزنطية في الشام لفترة وجيزة من الزمن ، وبعد الردة بدات الأعمال العسكرية هناك لكن بعد ان بدات في العراق بعدة اشهر .

ففي سنة ١٣ هـ/ ٦٣٤ م استنفر أبوبكر العرب فيقاء الجزيرة وشكل ثلاثة جيوش ضم كل واحد منها ثلاثة آلاف ثم أمدها الى ان وصلت الى السبعة؛ وجعل على رأس هذه الجيوش: يزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة ، وعمرو بن العاص ، وأرفق هذه الجيوش عددا من مشاهير المسلمين والصحابة ، مثل : أبي عبيدة بن الجراح ، وخالد بن سعد بن العاص ، ويبدو ان مهمة أبا عبيدة كانت العمل كضابط ارتباط لهذه الجيوش الثلاثة وصلة وصل لها بدار الخلافة في المدينة ، ولم تتحرك هذه الجيوش كتلة واحدة ، وانما جاء تحركها على دفعات ، كل دفعة ذهبت في اتجاه معين ، ويرى البعض أن سبب ذلك يعود الى عدم وجود خطة واضحة في ذهن أبي بكر حول مهمة هذه الجيوش : فتح أم اعمال إغارة ؟ وأن أبا بكر كانت تصله قوات قبيلة ما من قلب الجزيرة فيدفعها نحو بلاد الشام تخلصا منها وحتى ترى حظها ، وكان يستجيب لتطورات الأحوال ويتجاوب معها .

والذي يبدو ان واقع الحال لم يكن هكذا ابدا ، فابو بكر مثله مثل القرشيين كان يعرف ديار الشام وبلدانها وأحوالها بشكل جيد ، وكانت لديه معلومات جيدة عنها كما كانت هناك دائما آمال مع خطط لفتح الشام وتحرير اراضيه من سيطرة بيزنطية ، وكان مما يشجع على ذلك أحوال

بلاد الشام البشرية حيث انهاكانت عربية المشاعر، وعربية الجنس الطائفي مع الاعراق ؛ يضاف الى هذا احوالها الاجتماعية والدينية والاقتصادية مع ما كانت تعانيه بيزنطة من مشاكل وانقسامات سياسية وكنسية .

ولم يدفع ابو بكر القوات تخلصا منها انماكان وراء ذلك خطةعسكرية واضحة قامت على العقيدة الحربية لعرب الصحراء، وهذه العقيدةاخذت في اعتباراتها طبيعة المقاتل العربي واحواله من حيث التسليح والتموين والمقدرة على القتال مع طرق القتال ؛ وايضا طبيعة القوات البيزنطية من كافة النواحي .

لقد جند ابو بكر قواته من قبائل الجزيرة ، وكان أفراد هذه القبائل يتقنون من الحروب الأعمال السريعة ، ولا يعرفون الالتزام بقوانين وقواعد للزحف المنظم، وكانت اسلحتهم خفيفة ومؤنهم قليلة للغاية، وبكلمة موجزة كانت قوات ابو بكر قواتا غير نظامية عليها ان تقاتل جيوشا نظاميةلاحدى اعرق الامبراطوريات في معرفة الفنون القتالية ؛ ولذلك كانت أولى مهام القوات العربيةتمزيق تجمع القوات البيزنطيةثم انهاكهذه القوات واضعاف معنوياتها واخيرا انزال ضربة قاصمة وسريعة بها وكان هذا ما حصل .

ارسل ابو بكر قواته على شكل مجموعات صغيرة لتبعث وتدمر كل بقعة ولتجبر قوات بيزنطية على التمزق والملاحقة للعدو بدون فائدة ، واثناء ذلك كانت القوات العربية تتجمع بين آونة وأخرى لتنزل ضربات كبيرة مروعة بالقوات البيزنطية ، وهكذا فقد اصطدمت القوات العربية بقوات بيزنطية في اكثر من معركة كبيرة كلها مقدمة لمعركة فاصلة وقعت في اليرموك .

ويبدو أن جيش عمرو بن العاص توجهمن المدينة سالكا الطريق الموازي لشاطيء البحر الأحمر نحو فلسطين من جنوبها ، بينما سلك الجيشان الآخران طريق المدينة ــ تبوك ــ معان ، فوادي الأردن ، وكانت مهمة شرحبيل العمل في منطقةالاردن، ومهمة يزيد دمشق ومنطقتها، واصطدمت

هذه القوات بجيوش بيزنطية فهزمتها ، وكان الامبراطور البيزنطي هرقل مقيما في حمص ، وعندما جاءته اخبار زحف الجيوش العربية وانباء انتصاراتها ، وهزائم نواته حرك قوات ضخمة بقيادة أخيه تيودور ، ووصلت اخبار التحرك البيزنطي هذه الى العرب ، فكتب ابو عبيدة الى ابي بكر ، فكتب ابو بكر الى خالد بن الوليد : « اما بعد فاذا جاءك كتابي فدع العراق ، وخلف فيه اهله الذين قدموا العراق معك من اليمامة ، وصحبوك من الطريق ، وقدموا عليك من الحجاز ، حتى تأتي الشام فتلقى ابا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين؛ فاذا التقيتم فانت امير الجماعة، والسلام عليك » .

واستجاب خالد للأوامر وتحرك نحو الشام فاجتاز الصحراء بسرعة مدهشة وكان عبوره الى الشام من اعظم الأعمال العسكرية واكثرها مغامرة وشجاعة ، وقد نتج عن هذا العبور نتائج كبيرة ، فقد ظهر بشكل مفاجىء في منطقة دمشق وجنوب بلاد الشام، فهاجم بصرى وهزم حاميتها ثم صالح اهلها فاصبح سيد منطقة حوران واربك ظهور خالد المفاجىء هذا تيودور فكان سبب اخفاق مهمته ، وبعثت اعمال خالد النشاط والحماس بين صفوف القوات العربية ، ومن حوران ارسل خالد امراء الجيوش العربية وطلب منهم ان يلاقوه جميعا في منطقة اجنادين ليس بعيداً عن الرملة .

وفي اجنادين التقت القوات العربية المتحدة التي قاربت الخمس والعشرين الفا مع القوات البيزنطية لفلسطين وجيوش تودور ، وكانت هذه القوات تفوق القوات العربية عددا وعددا ، وهزم خالد البيزنطيين والحق بتيودور العار وجعله يفر نحو اخيه ، فسبب رحيله عن حمص نحو انطاكيا لجمع جيش جديد وارساله ضد العرب لمنعهم من التقدم شمالا .

وسقط حاكم فلسطين البيزنطي بين القتلى في اجنادين ، ولقد حررت هذه المعركة فلسطين من الحكم البيزنطي واعادتها عربية الشعب والحكم والعقيدة، وهذه المعركة تشابه من هذه الزاوية في نتائجها معركة القادسية

بالنسبة للعراق ، وحدثت هذه الاحداث كلها سنة ١٣ هـ/٦٣٤ م في أواخر حياة أبي بكر .

وبعد اجنادين اصبح الطريق مفتوحا امام العرب للتحرك نحو دمشق وقبيل مشارف دمشق هزم العرب النجدات البيزنطية التي ارسلها هرقل في معركتين عنيفتين للغاية في مرج الصفر خارج دمشق وفحل ، وطبقوا فيهما ببراعة عمليات الفصل بين مشاة العدو وفرسانه، ووصلوا بعد هذا اسوار دمشق واخذوا في حصارها .

وفي هـذه الاثناء وصلتهم اخبار وفاة ابـي بكـر واستخلاف عمر ، وافتتح عمر عهده بعزل خالد عن القيادة العامة للقوات العربية في الشام، واحل ابا عبيدة بن الجراح محله ، ولـم يحدث هـذا العزل الذي عزي لاسباب كثيرة شخصية بحتة وعامة تتعلق بمصالح الامة، لم يحدث تأثيرا كبيرا على وضع القوات العربية اذ بقي خالد القائد المؤثر والفعال حيث ان ابا عبيدة كان لايقدم على عمل الا بعد مشورة خالد ثم بعد ذلك كان يوكل اليه تنفيذ مايشير به عليه .

وحاصر العرب دمشق لفترة طويلة سقطت بعدها سنة ١٤ هـ /٦٣٥ م وعقب سقوطها تحركت سراياهم شمالا فتجاوزت منطقة مدينة حماه واستمرت شمالا ، واخذوا يحكمون سيطرتهم على جميع أجـزاء بـلاد الشام ويطهرونها مـن الجيوب البيزنطيـة ، ويعملـون في سبيل اعادة تنظيمها ، لكن بيزنطة ما كانت لتتخلى عن بلاد الشام دون أن تبذل كل ما بقي لديها من طاقات ، فجند هرقل جيشا عظيما للغاية ضم جنسيات الامبراطورية ؛ يونان وسوريين وغساسنـة وارمن ، وزحفت القـوات البيزنطية جنوبا تريد اقتلاع العرب وتحطيمهم ، وصلت اخبار التحرك البيزنطي الى ابي عبيـدة وكان في منطقـة حمص ، فعقد مجلسا حربيا ضم كبار قادة قواته وتباحث معهم في الامر فقرّ رايهم على الانسحاب الى موقع يمكنهم من السيطرة على الشام ومن التراجع نحو شبه الجزيرة ، وقرروا ايضا الكتابة الى عمر بوصف حالهم وبطلب المدد .

وانسحبت القوات العربية جنوبا متخلية عن جميع المدن والأراضي التي اخذتها ، وتجمعت هذه القوات في منطقة اليرموك ، وكان لهذا الانسحاب أثره على القوات البيزنطية ، حيث ولد الغرور في نفوس قادتها ، كما دفعهم الى انزال العقاب بجميع الذين تعاونوا مع العرب ، مما زاد من نفرة السوريين بالقرب من بحيرة طبرية في منطقة يجري بها نهر وادي الرقاد ، وكان ظهر الجيش العربي باتجاه الصحراء وجناحاه يحميهما جوانب وادي الأردن، وفي الامام كان الجيش البيزنطي، ونشط خالد بن الوليد في اعداد خطط العرب نشاطا واسعا تجلت فيه عبقريته العسكرية ، وطبق خالد خططه بوعي وشجاعة ، واستطاع تحطيم أسلحة الجيش البيزنطي بعد فصلها عن بعضها البعض ، فجاء ذلك تحطيما للقوات البيزنطية كلها ، وكان ذلك في صيف سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م ، ولا ريب ان القوات البيزنطية كانت على الاقل ضعفي القوات العربية التي قدرت بخمس وعشرين الفا .

ومما لا شك فيه ان معركة اليرموك كانت احدى معارك التاريخ الانساني الكبرى ، لما نجم عنها من نتائج ، وبعد هذه المعارك عاد العرب فاستعادوا دمشق والمناطق التي استولوا عليها من قبل وتابعوا زحفهم شمالا حتى جبال طوروس ، وفر هرقل نحو القسطنطينية وهو يردد « وداعا ياسورية وداعا لالقاء بعده » ، فقد حررت اليرموك سورية من الحكم البيزنطي ورسخت طابعها العربي .

وبعد اليرموك استولى العرب على القدس ونظفوا جميع الشام من الجيوب البيزنطية واستولوا على قيسارية واخذوا يعدون العدة للتحرك نحو مصر ، وعندما احتل العرب جميع اجزاء بلاد الشام ، وبعد احتلال الجزيرة دخلت القوات العربية ارمينية واستولت على غالبيتها وعندما خضعت الشام والجزيرة للعرب جعلوا الشام ولاية منفردة وجعلوا من الجزيرة ايضا ولاية اخرى ، وقاموا بتقسيم الشام الى اربع مناطق

عسكرية دعيت كل واحدة منها باسم جند وهذه الأقسام هي : جند فلسطين ، جند الأردن ، جند دمشق ، جند حمص .(١)

ولم تكد بلاد الشام تخلص العرب حتى قرر الخليفة عمر بن الخطاب توجيه جيوشه نحو افريقية بدءاً من مصر ، وحرر العرب مصر ثم شمال افريقية وبعد هذا دخلوا أوربة فوصلوا حتى داخل ايطاليا وتوغلوا في اراضي فرنسة وسويسرة .

١ ــ قسم جند حمص في عهد يزيد بن معاوية الى قسمين هما : جند حمص وجند قنسرين .

البندقية والجواد

قصة: رشاد أبوشاور

عند المساء ، زحفت الظلال ، واخذت الشمس تنحدر وراء الافق ، الاغنام تسير بكسل بعد ان ارتوت من ماء البركة . الرعاة يسيرون وراء اغنامهم، وبعضهم يصعد صوب الكهوف في الجبال. اخرج ابو علي المرابع ارغوله ، وبدا يدفع الهواء من رئتيه ، الى حنجرته ، في مبسمي الارغول . كانت اغنامه ترتمي متقاربة الرؤوس ، بطيئة الحركة.

اضرم ابو الهديب النار تحت كومة من الحطب ، واخذ يراقب تأجج النار ، وتبدد دخانها مع الرياح .

الارغول ، المساء الرطب ، النار المتلاطمة ، الاغنام وخلفها رعاتها يتجهون الى الكهوف . قال ابو الهديب : الليلة نوبة الحراسة علي .

نظر المرابع اليه ، ولكنه واصل العزف ، ومد نظرات ارغوله ، كأنه يقول له : ليلتك طويلة ياصاحبي ، استعد .

دخل ابو الهديب الى جوف الكهف ، ثم خرج ومعه بندقيته (الصوارى) ابتسم للمرابع وقال ،

ـ ملعون ابوك ياالذيب ، ما بيجيب الرطل الا الرطل ووقية .

صعد الغبار في الفضاء ، وأطل من بعيد جواد ، قال ابو الهديب ،
ـ اراهن انه الحاج ابو سعيد ـ .

قال أبو علي المرابع ضاحكا ،

ـ كأنه خيال اصلي . اللي بيشوفه بيقول عنه الزير سالم .
استند المرابع الى الصخرة محتضنا ارغوله ، اما ابو الهديب فأخذ ينفخ بين الجمر ، مما جعل الشرر يتطاير ، وشآبيب النار تعنو ، وقف وقال،
ـ احنا بنرعى وابنتعذب ، والحاج اله الأرباح .. دنيا عجيبة ياقرابة .
هز المرابع راسه موافقا . وصل الحاج ، تحسس عشق جواده ، هبط بتثاقل .

ـ عالعافية ياشباب .
رد المرابع ـ أهلا ..
سأله الحاج ، وكان يأنس به ليونة اكثر من ابو الهديب ،
ـ كيف الغنم ؟

رد عليه أبو الهديب بسرعة ،
ـ بتبوس ايدك ياحاج .

غرق المرابع في الضحك ، مما ضاعف غضب الحاج . قال الحاج :
ـ ياولد ما بدك اتبطل المسخرة ؟
اجابه ابو الهديب ،

ـ هيك سؤال بده هيك جواب ، الغنم قدامك ، شو نتصهن . اساسا انت شو هامك من الغنم غير ثمنها ؟ .
دفع المرابع ابريق الشاي المسود من خارجه بين الجمر . اشعل الحاج غليونه بأبهة ،

نفث الدخان بصوت مسموع ، ثم انه استند ، وقال موجها حديثه لابي الهديب .

ـ اذا مش عاجبك هالحال دور على شغل عند غيري ، بيجوز غيري احسن مني . .

ساد الصمت الى أن قطعه المرابع :

ـ ياحاج الدنيا بتمشيش لورا . . مسيرها تتغير .

قال ابو الهديب ،

ـ احنا طول النهار ننتقل من تلة الى تلة، ومن واد لواد، وفي الليل سهر، وتعب ، ومعارك مع الذياب وانت جاي تسال عن الغنم مش عن الرعيان ؟

احضر المرابع صرة الخبز ، ورؤوس البصل ، وبعض حبات البطاطا المشوية . كان الحاج يواصل نفث الدخان ، بينما ابو الهديب والمرابع يمضغان طعامهما .

سأل الحاج ،

ـ قل لي ياابو الهديب ، سمعت ان الذياب كثرت في هالمنطقة . .

توقف ابو الهديب عن المضغ ،

ـ اي والله ياحاج ، كثرت .

اخرج الحاج مبسم الغليون من بين أسنانه وسأل ،

ـ ايش ناوين شو نيتكم ؟

اجابه ابو الهديب ،

ـ اللي بيصير على الرعيان بيصير علينا .

استشاط الحاج غضبا ،

ـ اسمع ياولد انا بتهمني غنمي ، العام اللي فات خسرت عشرين نعجة . . احسبلي قديش كان ثمنهن ، . . لو بقين قديش بيلدن ، قل لي ؟

قال المرابع :

ـ ياحاج الذياب في كل مطرح ، وين انروح ؟ نهرب من المراعي الخصبة، اللي فيها عشب وماء ، وين بنلاقي هل مراعي ؟ . احسن شيء انا نواجه الذياب مش نهرب منها ، ان حطينا ايدينا في ايدين بعض احنا وبقية الرعيان ، بنحمي الغنم ، المهم ندبر سلاح ،

توقف ابو الهديب عن مضغ الطعام ، سال صاحبه المرابع ؛
ـ سامع الذياب ؟

كان القمر يرتفع في الأفق ، وكانت الـدروب الترابية تلـوح شاحبـة ، والاشجار تتمايل بوقار وكان العواء يأتي من بعيد فيسري في الصمت وحشيا ، شرسا ، مما جعل الأغنام تتلاصق ، وتثغو برعـب . اطلقت الكلاب بتفكر ان الذياب بتهـرب مـن نباحها ، .. كثير الناس بيفكروا هيك .

ارسل نظرة باتجاه الحاج ، ثم واصل كلامه ؛
ـ الواويات بتهرب من نباح الكلاب ، لكن الذيب بدها رصاص حتى تلوي وجوهها ..
قال الحاج ؛
ـ الطاقة اللي بيجي منها ريح سدها واستريح .
ساله ابو الهديب ؛
ـ واذا اجتك الريح من كل الطوق ، ومن الباب .. شو بتسوي ؟
لم يجب الحاج ؛ فقال المرابع ؛
ـ بيسـد الطوق على حاله ؛ وبيموت من الخوف ، وقلة التنفس ..
وقف الحاج ، صعد على صهوة جواده ، قال :
ـ لازم تغير المطرح .
قال له ابو الهديب :

ـ احنا أحرص منك على الغنم .

قال له المرابع :

ـ ياحـاج هات بارودتك احنا بحاجتهـا .. انت مـا بتحتاجها ،

قل ابو الهديب سـاخرا :

ـ تعال معنا الليلة ، في معركة مع الذباب ، تعال دافع عن غنمك .

لوى الحاج راس جواده ، ثم هز خاصرتيه ، وانطلق باتجاه القرية .

وضع المرابع عصاه (الدبسة) لصقة ، وحك حد شربيته على حجر أسود كان يحتفظ به لهذه الغاية ، ثم انه اخذ يشرب الشاي ، وقد لف جسده في فروته اتقاء لبرد الليل .

جاء بعض الرعاة من الكهوف المجاورة ، وقد تنكبوا بنادقهم ، وعصيهم وخناجرهم. شربوا الشاي ثم انهم ذهبوا بين شعاب الجبال، والوديان. كان أبو الهديب يسير أمامهم ، وبندقيته بين يديه ، وقد غرس أطراف قمبازه في حزامه . رأى الرعاة بعض الذباب فأخذوا يطلقون الرصاص.

في الخـلاء البعيد ، وراء التلال ، كان العواء الوحشي المذعـور يتصاعد ودوي الرصاص يخترق الليل متجاوبة في الوديان .

قال أبو الهديب :

ـ ياشباب الذياب هربت، ، لازم نرتاح ، الفجر اقترب .

في طريق عودتهم فوجئوا بفرس الحاج ممزقة الوركين ، مبقورة الباطن، في طرف الطريق ، وبعض مزق ملابس الحاج وعمامته مدماة ، وبندقيته مطروحة بالقرب من رأس الجواد . تناول أبو الهديب بندقية الحاج ،ووقف وحوله الرعاة صامتين ، .. حمل بندقية الحاج ، ثم مشي فتبعه الرعاة، قال احدهم ،

ـ لازم أنروح اندور على جثة الحاج ،

ابتسم ابو الهديب بشيء من الحزن وقال :

ـ الحاج راح ، أكلته الذياب ، اعتمد على جواده انه يهرب بيه ، مااعتمد على بارودته .

اخذ الرعاة يصعدون الى كهوفهم ومغاورهم صامتين ، وبنادقهم بين ايديهم .

الرحلة الثانية لسيف الدولة

شعر: خالد محيي الدين البرادعي

– ١ –

يا خولةَ ..
وحدي اركضُ في الصحراءْ
شرّدني الأحبابُ عن السيفِ العاشقِ والمعشوق
وظلَّ معي ، يحلمُ مثلي
وينامُ على الأحزان ، بدون غطاءْ

لا ابصرُ شيئاً
لا اسمعُ شيئاً ،
رغمَ تكاثرِها الأشياءْ
كنتُ وحيداً
لما صادفتُ المقتولينَ من الخلفِ
يجرونَ رؤوسهم للماءْ
رغم الظماءِ القاتلِ يسقونَ الاحلام دماً ،
كفكفَ حرسُ الزورِ سخونتَه
فتسربَ سراً للأطفالِ الظمآى

والأحلامِ الظّمآى
من تحتِ خُطى الخُلفاءْ
كانت تهربُ من أيديهمْ أوراقٌ خُضرٌ
فيها أسماءٌ للعشاقِ
وفيها صُورٌ للشُّهداءْ
وبنادِقُهُمْ ثكلى ،
تسألُ عن موقعِها بينَ الظُّلمةِ والضَّوضاءْ
لما صاروا جُثَثاً

كَتَمتْ أعينَها في الليلْ
قالَ العرّافُ المصلوبُ أمامَ قوافِلِها :
وعدٌ آخرْ
فجرٌ آخرْ
عصرٌ آخرْ
صبراً يا جَيشَ العشاقِ على الظَّلْماءْ

كانتْ فوقَ صليبِ العرّافِ سحابهْ
تكبرُ إذ يَصغرُ ،
واتّسعتْ حينَ تَقلصُ
واتّخذتْ شكلَ بَنفسجةٍ

لمّا اكتملَ نَزيفُ شرايينِ العرّافِ ،
ونامتْ شَفتاهُ على استِحياءْ
وحدي يا خَولةُ وحدي
لا شَيءَ على هذي الصَّحراءْ
إلا أسرابُ الليلِ ، تطيرُ وتَهبطُ ،
تحرسُ أكواخَ الخُلفاءْ

تسترق السمع من الأطفال المذبوحين ،
وكانت تحسبهم احياء
وامرأة سوداء العينين ،
تلوب على عاشقها ليلاً ،
وتخبىء حلماً للمعشوق الضائع ، تحت عصابتها
تحرسه من منقار الريح ، ومن أجنحة الليل ،
وتطعمه أسئلة عمياء
كانت تحمل باقة حب ؛
تتساقط نثرتها في الرمل
تنبت ازهاراً جدداً ؛
تكبر .. تتساقط ثانية ؛
تبلعها اطيار الليل ؛
ويهدأ صوت الحب ، وينقلب الحلم إلى اشلاء

★ ★ ★

وحدي ، يا خولة
تلتف بي الطرقات
ويصغر حجم الأرض
وينمو الدرن اللحمي يسد مسالكها
يملأها اطعمة فاسدة ؛
تسمن اطيار الليل ؛
وتوقظ حجاب الخلفاء

ما زال البحر هو البحر ، كما شاهدناه قديما
والليل هو الليل ، كما شاهدناه قديما

والدُّنيا ما زالت تَصغُرُ
حتى ضاقَتْ عن قبلةِ مَعشوقَيْنِ اثنينْ ،
تَرَكا طِفلَيهما
يَحبو في ارضِ الغُربَةِ ،
تبلعُ عينيهِ رياحُ التزويرِ ،
ـ وقبلَ نُموُّ اغانيهِ الورديّةِ ـ
جَمَّتْ شفتيهِ سكاكينُ الخلفاءْ
وحدي ، يا خَوْلَةُ
اسرَيْتُ بهذا البَحرِ الليليِّ ،
منفصلاً عن ذاكرةٍ دَعجاءَ العَينينْ
تركضُ مثلَ الاطفالِ على اسلاكِ الزمنِ الاسودِ ،
تجتازُ القرنَ وراءَ القرنْ
حاملةً حيطانَ التاريخْ ،
وافواجَ الخلفاءِ على الكتفينْ

يا خَوْلَةُ وَحدي آه ..
لَوْ كُنا إثنَيْنْ

★ ★ ★

وحدي يا خَوْلَةُ ، اركُضُ في الصَّحراءْ
البَحرُ معي يلتفُّ على عُنُقي ،
وانا ابحَثُ عن قَطرةِ ماءْ
تُوحي لي الآفاقُ المُفتوحَةُ ،
انَّ العالَمَ اكبرُ من هَمّي
انَّ العالمَ اوسعُ من حُلمي
واذا ما عانَقَ طولُ الخطوةِ خَصْرَ العَيْنْ
خَلَعَتْ ازهارُ طموحي عن تُربتِها
وتبدّى الكَونْ

دارًا يحرسها الجندُ ،
وتملأها أسلابُ الخلفاءْ

- ٢ -

يا خولةْ
لمّا اكتملتْ دورةُ حزني
وانسدت دائرةُ الزمنِ الأعمى حولي
والحبلُ الأسودُ ـ مشدودًا كان على سيفي ويدي ـ
انفجرَ الحلمُ المسكونُ دمًا
ونمت أوراقُ الحكمةِ تحتَ وسادي
ورأيتُ العالمَ من عينٍ يغسلها الحزنْ
بلا أغطيةٍ كان ،
وكنتُ الأحقَه ،
الحكمة قالتْ :
لا شيءَ وراءَ السيفِ المتمرد
يملأُ كلَّ فراغاتِ الأزمانْ
يا خولةْ
عادتْ صورةُ ذاكَ العرافِ المذبوحِ ،
وعادتْ غيمتُهُ الورديّهْ
دارتْ حولي ،
ملأتْ وحشةَ هذا الأفقِ الناشفِ ،
غنّت أوداجُ العرافِ لعشاقِ العالمْ
والمذبوحونَ من الخلفِ ،
رأيتهمْ أكثرْ
صارت قطراتُ دمائهم أكبرْ
تهتزُّ وتربو في لمحةِ عينْ
تنشرُ رائحةَ الأطفالِ على الدنيا
وتزيحُ الظلمةَ عن وجهِ الكونْ .

تشرين وسينما الحرب

« سجل وثائقي »

حسان أبوغنيمة

مقدمة :

لايمكننا الحديث عن السينما مع عزلها عن الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي العام .. فالسينما ترتبط بهذا الواقع . ولايمكننا دراسة الظواهر السينمائية بمعزل عن تلك الوقائع الحياتية العامة التي ترتبط بها بشكل مباشر وتؤثر في تطوراتها بشكل فعال وظاهر .... وبعيداً عن محاولات تحديد الاتجاهات السينمائية ضمن الاوضاع العالمية السائدة وتقسيمها كما يصطلح العديد من النقاد الى (١) سينما امبريالية وهي سينما تخدم الاهداف الامبريالية الاحتكارية العالمية او بالمعنى المعروف « سينما تخديرية » (٢) وسينما انسانية يدخل في نطاقها كل ما يخدم الاهداف الانسانية سواء تلك الاتجاهات السينمائية النابعة من الالتزام الانساني التقدمي بما فيها السينما الذاتية للفنان والمعبرة عن الواقع كمرآة له ومثالها افلام برغمان اوفيليني اوغيرها . ثم (٣) السينما الثورية او السينما الثالثة وهي التي ترفض كلا الاتجاهين وتحاول شق طريق ثالث بينهما يؤكد التزامه بالثورة سواء في نظرته السياسية للامور التي يعالجها في موضوعات افلامه او في اساليب عملها وتنفيذها والذي يرتبط مباشرة بالقوى الثورية وحركات التحرر العالمية او الحركات السياسية السرية في البلدان الغربية .

بعيداً عن محاولة الخوض في اطار هذه التقسيمات التي لابد من ذكرها فاننا نصل الى نتيجة محددة وهي حتمية التاثيرات السياسية بشكل اساسي في مسيرة السينما بشكل عام وفي الافلام الحربية بشكل خاص .

وهنا لابد لنا من مراجعة سريعة عبر تاريخ السينما العالمية لنحاول تتبع مدىماأثرت الحروب في مسيرة السينما العالمية وفي صنع تطوراتها ونوعياتها . فكما يقول جورج سادول في كتابه تاريخ السينما في العالم « قسمت الحرب العالمية الاولى اوروبا الى ٣ قطع ، في الغرب فرنسا وانكلترا والبلاد اللاتينية التيغزتها اميركا بسرعة ، والشرق وفيه روسيا التي أمسى تموينها بالافلام الاجنبية عن طريق فلاديفوستوك والبلاد الاسكندينافيه واوروبا الوسطى التي عزلتها كتلتا الحلفاء والتي هددت بالحرمان من انواع التمثيل السينمائي والمسرحي وغيره من جراء سيطرة المانيا عليها ، وبدا للالمان في وقت مبكر ان تموين اوروبا الوسطى بالافلام بمثابة واجب قومي . وفي ٤ تموز ١٩١٧ أي في الوقتالذي كان للقتال من اجل المعنويات اهمية اساسية ، اعلم الجنرال لودندورف وزير الحربية بوجوب تكتيل الجهود المعنوية والمادية للسينما الالمانية على اسس منطقية . وهكذابدأت الافلام الحربية تبرز الى الوجود وبدأت السينما ، كوسيلة اعلامية ، تاخذ دورهـا في المجابهة الاعلامية ضمن الحرب التي تندلع على كافة الجبهات وتتخطى الجبهة العسكرية الى الجبهات الاخرى السياسية والدبلوماسية والاقتصادية والاعلامية الخ ... ولكن السينما التي تميزت بكونها الوسيلة الاشد تأثيراً بحكم تكوينهـا ـ السمعي البصري ـ اخذت موقعا استراتيجيا متميزا في الجبهة بشكل خاص والجبهات الحربية بشكل عام، خاصة وان ذهنية المواطن في الداخل وفي الخارج تكون في فترة الحرب مهياة اكثرللتأثر ، حيث تصبح عواطفه هي المتملكة لاحاسيسه وتجعله عرضة سهلة للانصياع للتوجيهالاعلامي وبالتالي لتحديد القناعات فيما يجري وفيما يشاهده . ومع ان الاذاعة والصحافة تتخذ الدور المباشر والآني في المعركة الحربية بحكم تنفيذها الاسهل والاسرع من السينما ، الا ان السينما تظل هي الاكثر فعالية والابعد تأثيرا خاصة بحيث تمهد النفوس لتوقع مايمكن حدوثه وتشحذ الهمم من اجل بذل الاستعدادات لما سيحدث حال اندلاع الحرب بشكل لايدع مجالاً للشك في انها تقوم بدور اعدادي هائل للحرب قبل اندلاعهـا . كمـا انها تقوم بدور تحليلي لابعاد الحرب حال انتهائها ... ومن هنا نجد علينا من السهل الموافقة على ما قاله غوبلز وزير الاعلام النازي لسينمائييه بعد ان عرض عليهم فيلم « المدمرة بوتيمكن » لايزنشتاين وطالبهم بأن يصنعوا افلامامماثلة ليستحقواالثناء والتقديرلخدماتهم الاعلامية للنازية كما أن من السهل علينا تصور الابعاد التي ادت بالسينمائيين الكبار امثال تشابلن في « الديكتاتور » وإيزنشتاين في « الكسندر نيفسكي » الى تحقيق هذه

الافلام ... تشابلن لكي يحذر من الحرب الجنونية المدمرة التي تخوضها النازية ، وإيزنشتاين ليؤكد عظمة الوحدة الوطنية والنضال القومي من اجل سحق الاعداء .

كما انه يصبح من السهل علينا تصور الاسباب التي ادت الى ظهور مجموعة كبيرة من الافلام الحربية في المانيا في فترة تعاظم قوى العسكرية النازية وأثناء الحرب العالمية الثانية وظهور مجموعة الافلام الحربية في امريكا وروسيا واوروبا التي تسجل وقائع الحرب احياناً وتشحذ الهمم في احيان اخرى لتصويرها لبعض المآثر البطولية في الجيوش .

ومثلما اثرت الحرب في تحديد النوعيات الفيلمية اثناء الحرب فقد استمرت تأثيراتها فيما بعد انتهاء الحرب ... ففي ايطاليا مثلاً ظهرت السينما الواقعية بتأثير الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي خلفتها الحرب ، وفي امريكا وبعد بروز القوة العسكرية الامريكية كعامل حاسم في الستينات ظهرت مجموعة افلامها التي تدعو الى تمجيد الجندي الامريكي واظهاره بمظهر بطولي وكرجل لايقهر من اجل التمهيد للحروب العدوانية التي خاضتها الامبريالية الامريكية .

كما لاننسى ان الحرب الفرنسية في الجزائر وفيتنام اسهمت لفترة كبيرة في ظهور مجموعة هامة من الاعمال السينمائية التي تحلل تأثيرات هذا الحرب على المجتمع مثل « موربيل » لا لان رينيه .. او « جول وجيم » لفرانسواتروفو وغيرها .

كما ان الحرب الباردة فيما بين المعسكرين اسهمت كذلك في تعزيز انتاج الافلام

كما ان الحرب الباردة فيما بين المعسكرين اسهمت كذلك في تعزيز انتاج الافلام الحربية التي تصور القوة العسكرية الامريكية التي لاتقهر مثلما اسهمت ايضاً عملية الغزو الفاشلة لكوبا في ظهور سلسلة من الافلام التي تبرر هذه الغزوة او التي تهاجم النظام الاشتراكي في كوبا ... كما ان حروب امريكا العدوانية في كوريا وفيتنام اسهمت ايضاً في ظهور العديد من الافلام التي تحاول تمجيد ذلك التدخل العدواني واعطاء صورة مزيفة عن هذه الحرب .

وفي وطننا العربي ايضاً اسهمت الحرب العربية الاسرائيلية في ظهور سلسلة من الافلام الحربية الدعائية وان لم تكن بمجملها ذات قيمة وفائدة تذكر الا فيما ندر . فقد ظهرت لدينا افلام عن حرب ٤٨ وحرب ٥٦ وحرب ٦٧ وربما كان من اهم تأثيرات حرب حزيران على السينما العربية ، بروز السينما التسجيلية العربية الناضجة وذات

الاهمية الفكرية والفنية الكبيرة ثم ظهور سلسلة الافلام السياسية الهامة التي عالجت اثار هذه الحرب على المجتمع بكافة ابعادها وكان مثالها « العصفور » و « اغنية على الممر » و « حتى الرجل الاخير » وغيرهما ....

وربما يكاد يكون من السابق لاوانه الان الحديث عن تاثيرات حرب تشرين على السينما العربية .... فمن المؤكد انها ستؤثر على مسيرة السينما العربية بحكم الظواهر والتطورات التي ادت اليها نتيجة هذه الحرب التحريرية الا ان محاولة تحديد هذه الاثار في هذه الفترة في وقت لم تظهر به بعد اثار حرب حزيران كاملة على السينما العربية وبشكل فعال يبدو امراً عسيراً ، غير انه ، يمكننا ابداء بعض وجهات النظر حول ذلك وهذا ماسنحاوله فيما بعد .

النوعيات الفيلمية لسينما الحرب :

ان نظرة واحدة على مجموعة الافلام الحربية التي غزت ومازالت تغزو اسواقنا السينمائية تجعلنا ندرك الخطر المحدق الذي ينتظرنا من تاثيرات ما تقوله هذه الافلام وما ترسخه في اذهاننا من قيم فاسدة ومشبوهة ومما لا يتكر في هذا المجال ان النوعيات الفعالة لسينما الحرب تنبع من تاثيراتها على المشاهدين ، السلبية منها والايجابية ، وهذا عائد اصلاً الى طبيعة البنى السياسية التي هي المسؤولة الاولى والاخيرة عن انتاج هذه الافلام بواسطة شركاتها الراسمالية الاحتكارية او المؤسسات الرسمية الاخرى . وهكذا فإن تقسيم هذه النوعيات الفيلمية الحربية الى اتجاهين يبدو هنا اسهل هذه التقسيمات واوضحها وهي كالاتي :

١ ــ الافلام ذات الاتجاهات السلبية : ــ وهي التي تدعو الى تأكيد كافة المبادىء المادية والمشبوهة وتؤثر في مشاهدينا بشكل سلبي خلافاً للتوجه الاعلامي الذي يختطه البلد ومن هذه الافلام ما يدعو الى تمجيد الحروب العدوانية وتكريس الاغتصاب وابراز البطولة الفردية للجندي الاميركي والحض على الجرائم والعنف والابتعاد عن الواقع وتناول الموضوعات الحربية في معزل عن الواقع السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي العام، وتحاول ابراز القوى المعادية لنا بصورة الشيء الذي لايقهر ومثالها « الافلام التي تكرس اسطورة الجندي الاميركي وتمجد حروبه العدوانية وانتصاراته وتزيف تدخلاته اللامشروعة

في حروبه العدوانية ضد الشعوب المدافعة عن استقلالها ومثال هذه الافلام كثير منها ، « القبعات الخضر » لجون واين و « اطول يوم في التاريخ » ... الخ

٢ ـ الافلام ذات الاتجاهات الايجابية وهي الافلام التي تدعو بشكل موضوعي الى إدانة الحروب الاستعمارية وتحلل تاثيرات الحروب على المجتمعات في قالب انساني وتدعو الى الصمود والتكاتف القومي ضد الاعداء وتمجد نضالات الشعوب من اجل تحديد مصيرها ودفاعها عن حرياتها واستقلالها وتفضح كافة الاساليب والاشكال التي تلجا اليها القوى المعادية للتستر وراءها ووراء الشعارات البراقة كالمساعدات الحربية او الدفاع عن العالم الحر ... و .. الخ ومثال هذه الافلام ما شاهدناه ومانشاهده من افلام الدول الاشتراكية مثل « ماس ورماد » لفايد او « انشودة جندي » لتشو خراي و « الطلقة ٤١ » و « التحرير » ليوري اوزيروف و « الكسندر نيفسكي » لايزنشتاين .

وضمن هاتين النوعيتين تبرز افلامنا العربية الحربية ويصبح من السهل علينا الحكم عليها وتقييمها ووصفها في احد هذين الاتجاهين مما لايتسع المجال لنا هنا حالياً لتقييمها.

الافلام العربية الحربية :

بغض النظر عن محاولة تقييم الافلام التي ظهرت لدينا عن الحرب العربية الاسرائيلية فاننا نورد هنا احصائية مجملة للافلام الروائية التي تناولت هذه الموضوعات وكانت كالتالي:

آ ـ افلام عن حرب ٤٨

١ ـ فتاة من فلسطين   اخراج : محمود ذو الفقار   عام ٤٨

٢ ـ رد قلبي

٣ ـ نهر الحب   اخراج : عز الدين ذو الفقار

كان بهما جانب عن حرب ٤٨ وبشكل خاص قضية الاسلحة الفاسدة للجيش المصري فقط وليس افلاما عن الحرب ذاتها .

ب ـ أفلام عن حرب ٥٦

١ ـ أرض السلام اخراج كمال الشيخ ٥٧

٢ ـ وداع في الفجر اخراج حسن الامام ٥٦

٣ ــ شيـاطين الجـو اخراج
٤ ــ بور سعيد اخراج عز الدين ذو الفقار ٥٧
٥ ــ سجين ابو زعبل اخراج نيازي مصطفى ٥٧
٦ ــ حب من نـار اخراج حسن الامام ٥٨
٧ ــ وطني وحبي اخراج حسين صدقي ٦٠
٨ ــ عمالقة البحار اخراج السيد بدير ٦١
٩ ــ طريق الابطال اخراج محمود اسماعيل ٦٢
١٠ ــ صراع الجبابرة اخراج زهير بكير ٦٣
١١ ــ وطني حبيبي اخراج عبد الله كموش ٦٤ ــ الاردن ــ

جـ ــ افلام عن حرب ٦٧*

اغنية على الممر ــ العصفور ــ حتى الرجل الاخير .

افلام عن حرب الاستنزاف في القناة *

وهي بمجملها افلام وثائقية كالتالي :

١ ــ لن نموت مرتين لفؤاد التهامي عام ٧٠
٢ ــ الاعتداءات الاسرائيلية على بحر البقر لسعيد الزيني عام ٧٠
٣ ــ الاعتداءات الاسرائيلية على ابي زعبل لتوفيق زاهر عام ٧٠
٤ ــ بور سعيد لاحمد راشد عام ٧١
٥ ــ ابو زعبل لصلاح التهامي عام ٧١
٦ ــ المدفع رقم ٨ لفؤاد التهامي عام ٧١
٧ ــ بحر البقرلسعدنديم عام ٧١

* سنتنـاول هذه الافلام في الفقرة التالية .
* فيلموغرافيا سمير فريد عن افلام المقاومة .

٨ ـ معركة شدوان لفؤاد التهامي عام ٧٢

٩ ـ والحياة لا تموت لسمير ندا عام ٧٢

١٠ ـ دفاعا عن السلام لسعد نديم عام ٧٢

١١ ـ الرجال والخنادق لفؤاد التهامي عام ٧٢

د ـ أفلام حرب تشرين التحريرية :

وهي التي سنتناولها فيما بعد بشكل واف .

افلام حر ب تشرين

مع ان الافلام التي ظهرت لدينا حتى الآن عن حرب تشرين هي قليلة جدا واغلبها من الافلام الوثائقية القصيرة اذ انها تعتبر من الافلام العربية الجيدة وذلك بغض النظر عن المستويات الفنية المتفاوتة فيما بينها . وقد تميزت بثلاث ظواهر أساسية أولها انها ظهرت نتيجة المعايشة الحقيقية لجو حرب تشرين حيث جرى العمل تحت كافة التأثيرات الحربية المعهودة في اية حرب اخرى وضمن الاجواء الحماسية والقتالية المفعمة والآتية من الجبهتين الداخلية والخارجية ، وثانيها ان هذه الافلام تميزت بالفعل العسكري السياسي القوي الحاسم الذي اظهر وجهة النظر العربية الدبلوماسية بقوة في الاجواء العالمية ونتيجة لهذا الصدى الكبير للفعل العسكري السياسي فقد أعطيت هذه الافلام أيضا اهمية سينمائية نابعة منه . وثالثا تميزت هذه الافلام بدقة اختيار المواد الوثائقية من مصادرها المتنوعة . هذه الظواهر الثلاث هي التي اعطت الاهمية لافلام حرب تشرين والتي سنتناولها في الفقرة التالية بالتفصيل والتحليل الدقيق .

١ ـ تحليل افلام حرب تشرين في القطر العربي السوري :

ان الافلام التي ظهرت حتى الآن عن حرب تشرين التحريرية في القطر العربي السوري

أ ـ افلام انجزت :

الفيلم	النوعية	المخرج	ملاحظات
أهداف استراتيجية	وثائقي قصير	فيصل الياسري	أبيض وأسود
لعب اطفالنا الجديدة	وثائقي قصير	فيصل الياسري	ابيض واسود
القتلـــة	وثائقي قصير		ابيض واسود
الصمـــود	وثائقي قصير	وديع يوسف	ابيض واسود
وجــاء تشريـــن	وثائقي قصير		ابيض واسود
العـــودة	وثائقي قصير	مروان حداد	ابيض واسود
زهـرة الجـولان	وثائقي قصير	صلاح دهني	ابيض واسود
المعركـة والبتـرول	وثائقي قصير	احمدفاروق عبيسي	ابيض واسود
حصـاد تشريـن	وثائقي قصير	منير جبــاوي	ابيض واسود

وجميع هذه الافلام من انتاج المؤسسة العامة للسينما السورية .

اما الافلام التي انجزتها الادارة السياسية فهي :

معرض تشرين	وثائقي قصير	غسان باخوس	ابيض واسود
التحـريـر	وثائقي قصير	سمير ذكرى	ابيض واسود

أما الافلام التي انتجتها دائرة الانتاج السينمائي في التلفزيون العربي السوري فهي:

الفيلم	النوعية	المخرج	ملاحظات
دروس في الحضارة	وثائقي قصير	امين البني	ابيض واسود
التحويـل	تسجيلي قصير	هيثم حقي	ابيض واسود
مهمـة خاصـة	تسجيلي قصير	هيثم حقي	ابيض واسود
القنيطرة ٧٤	روائي قصير	محمد ملص	ابيض واسود
صفحات من الجولان	تسجيلي قصير	بشار عقاد	ابيض واسود
تحية من القنيطرة	تسجيلي قصير	وديع يوسف	ابيض واسود
القنيطرة حبيبتي	تسجيلي قصير	امين البني	ابيض واسود

ب ـ افلام قيـد الانجاز :

رسالة الى الجبهة	المؤسسة العامة للسينما	نبيل المالح	وثائقي قصير	ابيض واسود
كيف تقتل ناطقا رسميا	المؤسسة العامة للسينما	نبيل المالح	وثائقي قصير	ابيض واسود
دمشق ترحب بكم	الادارة السياسية	ممدوح عدوان	وثائقي قصير	ابيض واسود
اللحـن الحزين	التلفزيون العربي السوري	لطفي لطفي	وثائقي قصير	ابيض واسود
الاختـراق	التلفزيون العربي السوري	غنام غنـام	روائي طويل	ابيض واسود

أهداف استراتيجية :

□ يقدم فيلم أهداف استراتيجية بدقائقه القصيرة وباسلوب سينمائي مقنع وجذاب صورة واضحة جدا للاعلام العربي اثناء حرب تشرين كاعلام علمي وجاد ومقنع وبعيد عن الانفعال والمغالاة كما يوجه الفيلم ادانة وثيقة تكشف زيف الاعلام الصهيوني والعسكرية الصهيونية ويقسم الفيلم موضوعه الى مجموعة من الوثائق الاساسية هي كالتالي :

١ ـ وثيقة صوتية لاذاعة اسرائيل وهي تعلن بيانها عن ضرب الاهداف الاستراتيجيـة والعسكرية في دمشق والتي يناقضها الفيلم بوثيقة صورية دامغة تكشف بوضوح كـذب الاعلام الصهيوني اذ تظهر الاماكن المقصوفة والضحايا بتفصيلات هامة « صور البيوت ـ معهد الصم والبكم ـ نقابة الاطباء ـ المركز الثقافي السـوفياتي ... الخ » .

٢ ـ ذات الوثيقة الصوتية بتفصيل يقول « ويقول الطيارون انهم اصابوا جميع تلك الاهداف ... الخ » . ويناقضه الفيلم بذكاء تجلى في اختيار هذه الجملة الوثيقة التي تكشف بصور الاماكن المدنية المقصوفة ، كذب العسكرية الصهيونية ايضا .

٣ ـ الوثيقة الريبورتاجية للمقابلة مع أحد المواطنين الذين قصفتهم الطائرات الصهيونية عمدا وفيها تحديد للفترة الزمنية للاعتداء الوحشي الغاشم يوم الثلاثاء ٩ تشرين اول ١٩٧٢.

** لم ينجز الفيلمين ولم يصور اي مشهد منهما حتى الآن بعكس الفيلمين التـاليين اللذين صورا ولكن لم ينته بعد انجازهما كاملا .

تشرين اول ١٩٧٢ .

٤ ـ وثيقتان صوتيتان يناقضهما بالوثائق المصورة لاماكن القصف الوحشي الغادر بتفصيلات للاماكن التالية « نقابة الاطباء ـ المركز الثقافي ـ نقابة المعلمين ـ المعهد الصحي الفني ـ ثانوية دمشق العربية ـ مركز المشاريع العقارية ـ دوحة الطفولة ـ نقابةالصحافة الضحايا من الدبلوماسيين .. الخ » . وتشكل الوثيقتان ادانة عميقة للاكاذيب الاعلامية الصهيونية وتكشفان عن الارتباط الامبريالي الصهيوني .

٥ ـ وثائق مصورة مع وثيقة صوتية باقوال الطيار الاسرائيلي الاسير لاماكن القصف في الاحياء الدبلوماسية وغيرها وتفصيلات ذكية في « معهد موسيقي ـ العاب اطفال ـ أدوات مطبخ ـ كتاب مصور للاطفال ـ صورة كتب مدرسية ـ كتب علمية ـ صورة نقية محترقات نظارات محطمة ـ ساعات » الخ .. مما يؤكد التفسير الحقيقي للصهيونية كفلسفة بربرية وحشية ويكشف بوضوح حقيقة « الحضارة الصهيونية » المزعومة .

٦ ـ وثيقة مصورة مع وثيقة صوتية تؤكداستمرار الوحشية الصهيونية فيقصفالاماكن والمنشآت المدنية بحمص .

٧ ـ وثائق مصورة مع وثائق صوتية تؤكد الرد العربي الحازم وصدق الاعلام العربي بتفصيلات ذكية = لصواريخ تصطاد طائرات العدو + اذاعة البلاغ العسكري عن تصدي طائراتنا لطائرات العدو .

٨ ـ وثيقة اذاعية تؤكد ان الحقيقة لا يمكن تزييفها والوثيقة منقولة عن مراسل اذاعة لندن الذي اضطر للاعتراف بخلو المناطق المقصوفة من الاهداف العسكرية .

٩ ـ وثائق مصورة وصوتية متنوعة من « لندن عن الحالة في دمشق وهدوء المواطنين من مراسلها فيليب شورت ـ صور للمواطنين في حالتهم اليومية المعتادة ـ صور للمعارك الجوية وصواريخ سام تطارد طائرات العدو وتسقطها .. الخ . وتؤكد هذه الوثائق الصمود الجماهيري الباهر في الجبهتين الداخلية والعسكرية .

١٠ ـ وثيقة ريبورتاجية « صورة وتعليق » تؤكدان أهمية الصمود واستمرار الحرب كما تؤكد على ان النصر لنا لاننا نقاتل من أجل امتنا واسترداد حرياتنا وطمانينة اطفالنا ـ النهاية ـ .

لعب أطفالنا الجديدة :

يحكي الفيلم عبر الوثائق المختارة عن الصمود الجماهيري الباسل للمواطنين في الجبهة الداخلية كما هو الحال عليه في الجبهة العسكرية وذلك من خلال تصويره المتتبع لاطفال دمشق وطائرات الفانتوم التي اسقطت وتحولت اجزاؤها الى العاب بأيديهم . ويختم الفيلم بدعوة للاستمرار والصمود والثقة بقواتنا المسلحة وتجهيزاتها المنيعة واهمها صواريخ سام حيث يخط أحد الاطفال على احدى أجزاء فانتوم اسقطت عبارة « يعيش صاروخ سام يسقط العم سام » .

الصمـود :

□ يحكي فيلم « الصمود » عن صمود الجبهة الداخلية في القطر العربي السوري النابعة من صمود الجبهة العسكرية لقواتنا وثقة مواطنينا بعدالة قضيتنا التي نحارب من اجلها وبقيادته السياسية العسكرية . ويقسم الفيلم الى مجموعة وثائق هي كالتالي :

١ ـ وثائق صوتية تظهر التلاحم العربي المصري ـ البيان العسكري المصري عن دخول الحرب الى جانب سورية .. الخ » .

٢ ـ الاستعدادات الشعبية الكبيرة من اجل المعركة وتظهرها وثائق عن نشاطات الفتوة واعمالها كدفاع مدني .. الخ

٤ ـ الصمود الداخلي والتفاف الشعب حول قيادته وثقته بالاعلام العربي ويظهر هذا المجموعة من الوثائق المصورة والصوتية للعمال في مصانعهم ـ المواطنين حول الراديو يستمعون ـ العمال يساهمون بزيادة الانتاج .. الخ .

٥ ـ الانتصارات العربية وتظهرها مجموعة وثائق عن تحرير جبل الشيخ .. الخ .

٦ ـ هدوء المواطنين وثقتهم بالنصر وشعورهم بالاطمئنان بحماية قواتهم المسلحة للقطر وتظهرها مجموعة من الوثائق لصواريخ سام تسقط الطائرات المعادية ووثائق مصورة على الجبهة السورية تظهر انتصارات قواتنا .

٧ ـ تلاحم الشعب والقوات المسلحة وتظهره وثائق الزيارات الشعبية للقوات على الجبهـة ...

القتلـة :

□ يتناول فيلم « القتلة » من خلال حوار مع احد الطيارين الاسرائيليين الاسـرى موضوعة المبادىء الوحشية الصهيونية التي تؤكدها وثائق مصورة لاماكن القصف الوحشي للاماكن المدنية في القطر . ويؤكد الفيلم على ان وراء هذا الطيار المقاتل نظاما كاملا يعـد القتلة كما ان هناك نظاما امبرياليا يؤيد نظام اعداد امثال هؤلاء القتلة وخلقهم .

والفيلم تتناوبه مجموعة من الوثائق ـ الريبورتاج مع الطيار الاسير ـ وثائق صوتية للحوار ـ وثائق مصورة للاماكن المدنية التي تعرضت للقصف ـ وثائق تؤكد الشجاعـة والطمانينة الجماهيرية بقوة سلاحنا وايماننا بالنصر وهي ماخوذة من وثائق صورت أثنـاء الغارات ـ الشعب واستقباله للغارة ومراقبة الصواريخ وهي تسقط الطائرات العدوة .. كما تكشف هذه الوثائق ايضا طبيعة تفكير واخلاقية وكذب العسكرية الصهيونية .

وجاء تشرين :

يؤكد فيلم « وجاء تشرين » تحرير الارادة العربية وانتصارات قواتنا المسلحة عـلى الجبهتين السورية والمصرية عبر تفصيلات عديدة ضمنتها الوثائق المصورة المراقبة والماخوذة من ارشيف المؤسسة العامة للسينما وارشيف الادارة السياسية للجيش والقوات المسلحة وارشيف التلفزيون العربي السوري وهي كالآتي :

١ ـ وثائق عن الحرب في الجبهة العربية الواحدة « المصرية ـ السورية » وتؤكد هذه الوثائق الوحدة العربية والتضامن العربي في معركة المصير الواحدة .

٢ ـ وثائق عن الانتصارات العربية « عبـور قناة السويس ـ انتصارات قواتنـا في الجـولان » .

٣ ـ السيطرة العربية على اجواء المعركة وتؤكدها وثائق طائراتنا المقاتلة وصواريخنا تسقط طائرات العدو .

٤ ـ تفسير لنفسية الجندي الاسرائيلي ورعبه وتؤكدها وثائق اخذت من الارشيف عن بعض جنود العدو يحتمون بخوف واضح من طائراتنا وهي تدك مواقعهم .

٥ ـ وثائق تؤكد هزائم العدو « الجرحى ـ تراجع القوات ـ القتلى » .

٦ ـ وثيقة وضعها وديع يوسف المخرج بذكاء كبير لتعطي قيمة سياسية كبيرة وواضحة وهي صورة لصاروخ سام يطارد احدى طائرات الفانتوم وقبل ان يلمسها بقليل يثبت الكادر ويخرج في أسفله عبارة « قرار وقف اطلاق النار في ... الخ » . وهذه اللفتة الاخراجية الذكية أكدت باننا نقف موقف القوة وبان توقيت المعركة ما زال بأيدينا لكي تستمرصواريخنا في اسقاط طائرات العدو وقواتنا في تحرير بقية الاراضي المحتلة .

المعركة والبترول :

يحكي هذا الفيلم الوثائقي القصير عن مدى اسهام البترول في خدمة معارك التحرير العربية من خلال متابعته لحرب تشرين التحريرية على الجبهتين السورية والمصرية وما ادت اليه من هزات عميقة في كيان العدو الصهيوني ابرزها الفيلم بذكاء من خلال مونتاج دقيق يظهر تأثيرات الهزيمة على وجوه قادة العدو الصهيوني وعلى وجوه اهالي القتلى والاسرى الصهاينة قاطعا المشهد بذكاء الى صورة ثانية للبترول تتحرك الكاميرا خلالها لتعطي ايحاءا أكبر بمدى وطأة الهزيمة عليهم . ويتحدث الفيلم ايضا عن تأثيرات قطع البترول عن الدول الاوروبية مستغلا الموسيقى بذكاء للعب الدور المهم في زيادة الايحاء بايصال التأثير المراد بكل قوة ، كما يؤكد استمرارية معارك التحرير بموسيقاه الحماسية المعبرة التي يختمها بدوي انفجارات شديدة وكادر ثابت بعنوان « الفلسطينيون » تعبيرا عن اهمية النضال المسلح واستمراريته للشعب العربي الفلسطيني .

دروس في الحضارة :

لا يتناول هذا الفيلم « حرب تشرين التحريرية » بشكل مباشر ولكن العديد من النقاد يعتبرونه عملا تشرينيا هاما اذ يتناول هذا الفيلم طبيعة الكيان الصهيوني واكاذيبه فاضحا اياها بالاعتماد على مجموعة من الوثائق الصوتية والسينمائية التي تثبت زيف ووحشية المبادىء والشعارات اللاانسانية التي يقوم عليها الكيان الصهيوني . وهو من هذه الناحية يقوم بعمل هام يفضح فيه العدو بشكل علمي وتاريخي مقنع وعظيم الدلالات . ويؤدي ايضا دوره الاساسي كسلاح في خدمة القضية العربية تماما كما فعلت افلام حرب تشرين التحريرية .

ويبدأ الفيلم بالاعتماد على وثيقة هي :
مقدمة تاريخية عن احتفال تأسيس « اسرائيل » عام ١٩٤٨ والكلمة التي القاها بن غوريون بذلك الاحتفال والتي يشير فيها الى ان « اسرائيل » ستبنى على مبادىء الحرية والعدالة والسلام والانسانية والاحترام للقوانين الدولية وميثاق الامم المتحدة .. الخ ثم يبدأ بتحليل هذه المبادىء المزعومة وبكشف زيفها اولا فاول حين يقسم المخرج الفيلم الى ٨ دروس رئيسية هي .

١ ــ الحق التاريخي :
٢ ــ السلام :
٣ ــ الامم المتحدة :
٤ ــ حسن الجوار :
٥ ــ الانسانية :
٦ ــ الاماكن المقدسة :
٧ ــ مكافحة الارهاب :
٨ ــ القانون الدولي :

وفي الختام يجري المخرج خلاصة بين التصريحات « الجميلة البراقة » الكاذبة في ميثاق اسرائيل ضمن هذه الموضوعات الثمانية وبين اعادة لمختصر اللقطات التي تفند هذه الادعاءات المخادعة والمزيفة منذ عام ٤٨ حتى الآن .

معرض تشرين

يؤكد الفيلم بمجموعة من الوثائق السينمائية التي تؤكد هزيمة العدو عبر صور اسلحته المدمرة ودباباته المعطوبة واسراه ، كما يؤكد انتصار قواتنا وعدالة القضية التي تحارب من اجلها .

التحرير

يتناول الفيلم قصة القنيطرة مع خلفية تاريخية للغزوات الاستعمارية على الوطن العربي وصمود هذا الوطن امام هذه الغزوات ثم يظهر الفيلم همجية العدو الصهيوني وتدميره لمدينة القنيطرة قبل تحريرها .

الاسرى

لم اشاهد هذا الفيلم بعد .

زهرة الجولان

يتناول الفيلم باسلوب شاعري مدينة القنيطرة التي دمرها العدو الصهيوني قبل تحريرها ويتجول بنا في ارجائها مظهراً لنا مدى الدمار البشع الذي تعرضت له المدينة مؤكدا على ان كل همجية العدو ووحشيته لن تقتل ارادة الحياة للشعب العربي تماما مثلما فشلت بلدوزرات العدو ومتفجراته في سحق ازهار مدينة القنيطرة التي ظلت تنمو وتترعرع رغم الخراب الذي حاق بالمدينة .

حصاد تشرين

يتناول المخرج في الفيلم موضوعة الصمود العربي والثقة بالنصر الاكيد من خلال مقابلات مع الفلاحين العرب السوريين الذين بقوا يزرعون اراضيهم في قرى الحدود رغم كل الاعتداءات الصهيونية الوحشية عليهم والفيلم كما يقول مخرجه منير جباوي « هو محاولة لتجسيد معنى نضالنا القومي في حربنا التحريرية المجيدة في ٦ تشرين » .

القنيطرة حبيبتي

يتحدث الفيلم عما جرى في مدينة القنيطرة خلال ٧ سنين من الاحتلال من خلال المقابلات مع بعض المواطنين العرب السوريين الذين بقوا في المدينة خلال فترة الاحتلال ودمج هذه المقابلات باشرطة صوتية تاتي كوثيقة تحكي عن « دخول قوات الاحتلال للمدينة ـ طرد المواطنين من منازلهم ـ سرقة ونهب هذه المنازل وتدمير الجزء الاول من المدينة عام ٦٧ لاستخدام حجارتها السوداء في بناء الدشم العسكرية ـ سرقة المدافن .. الخ » ثم يجري المخرج مقارنة بين واقع المدينة قبل الاحتلال وواقعها بعد التحرير مركزاً على الهمجية الصهيونية التي تجلت في تدمير « المساجد ـ الكنائس ـ المدارس ـ المستشفيات»

القنيطرة ٧٤

فيلم روائي قصير يتحدث من خلال فتاة شابة تعود الى القنيطرة وتصر على البقاء فيها رغم كل الاخطار والتحديات عن ضرورة الصمود العربي امام الخطر الصهيوني الماثل على الحدود ....

صفحات من الجولان

يسجل الفيلم مجموعة من اللقطات التسجيلية لعودة الاهالي العرب السوريين الى المناطق المحررة وقد صور الفيلم حازم بياعة وولفته عناية طرابلسي ويؤكد الفيلم على ان عودة المناطق المحررة هذه ٠٠ هي الا بداية طريق التحرير العربي الكبير والشامل .

تحية من القنيطرة

يبحث الفيلم عن اصل وتاريخ مدينة القنيطرة بشرياً واقتصادياً وجغرافياً من خلال دليل سياحي يروي القصة لمجموعة من السواح وقد كتب المادة العلمية للفيلم عبد العزيز علون وصوره محي الدين سكحل .

مهمة خاصة

يعتبر هذا الفيلم من انضج الاعمال السينمائية التي قدمتها دائرة الانتاج السينمائي في التلفزيون عن جوانب حرب تشرين التحريرية وفيه يتابع مخرجه هيثم حقي ستة سكاكين من الذين اشتركوا في اقتحام مرصد جبل الشيخ العادي حيث اسندت اليهم مهمة خاصة للعمل خلف خطوط العدو واثناء المهمة يعود بنا المخرج الى بيوتهم وقراهم لاستعراض حياتهم الشخصية وانتمائهم الاجتماعي ضمن اطار من التحليل السياسي الواعي والفهم الناضج لما يقدمه في فيلمه من دلالات وابعاد سياسية وفكرية هامة ثم ينتقل بنا الى التدريب الذي تلقوه والاعمال البطولية التي قاموا بها اثناء حرب تشرين التحريرية وحرب الاستنزاف وقد صور الفيلم محي الدين سكحل وولفه زياد معدني وعناية طرابلسي ووضع موسيقاه سهيل عرفة كما انه تضمن مجموعة من الوثائق السينمائية النادرة التي صورها المصور السينمائي سمير جبر اثناء تحرير جبل الشيخ .

العـودة

يعتبر فيلم المخرج مروان حداد الذي انتجته المؤسسة العامة للسينما من انضجواهم الاعمال السينمائية العربية التي ظهرت عن جوانب حرب تشرين التحريرية وذلك للجوانب الانسانية الفائقة الاهمية التي تناولها الفيلم باطار سينمائي مصنع وبفهم واع لماهية

السينما الوثائقية الحقيقية ويتناول الفيلم تدمير مدينة القنيطرة قبل تحريرها مدينا هذا العمل الغادر الذي قامت به العسكرية الصهيونية ومؤكداً على الصمود الجماهيري العربي وتصميم اهالي المدينة على اعادة بنائها والتمسك باراضيهم حتى النهاية .

ولقد اعتمد الفيلم في ابراز ذلك على بناء سينمائي شاعري الدلالات وانساني النظرة حيث ابتدأ الفيلم بمجموعات الاهالي العائدة الى المدينة بعد تحريرها مركزاً على بضعة نماذج انسانية جعلها تقف امام الكاميرا وتتكلم عن الشوق لرؤية مدينتها وتعبر عن الفرحة الغامرة بالعودة اليها ثم ينقلنا فجأة الى المدينة موثقاً آثار الصدمة الاولى على هذه النماذج قبل ان يعود مرة اخرى اليها واحداً تلو الاخر وبتقطيع متناسق ليسجل لنا شهادات حية ووثائقية عبرت عنها اراؤهم في هذا العمل الغادر الذي قامت به العسكرية الصهيونية وظروف نزوحهم القسرية عن المدينة وتصميمهم على البناء والتمسك بالارض منهياً الفيلم بلقطة انسانية معبرة لطفلة من القنيطرة بعد ان تؤكد وهي تكفكف دموعها وبكلمات بريئة وعفوية تحمل الكثير من الابعاد الانسانية ودها على وحشية العدو هذه باصرارها على ملء طريق العودة بالياسمين والورود رغم كل شيء حينما تعود ثم ينتهي الفيلم بتثبيت الكادر على لقطة للطفلة وقد امتلأت عيناها البريئتان بتساؤل مرير وبتحد صامد لايتزعزع ازاء ما رأته من آثار لوحشية العدو .

التحويل

لم اشاهد هذا الفيلم التلفزيوني . ولكن كما سمعت يتناول ايضاً عبر الوثائق انتصارات جيوشنا العربية وصمود الجبهة الداخلية .

٢ ــ عن افلام حرب تشرين في القطر المصري الشقيق

لم تتح لي الظروف لمشاهدة الافلام الوثائقية التي قدمت في الشقيقة مصر عن حرب تشرين وكانت كالتالي :

١ ــ الارادة : اخراج محمد نبيه .

٢ ــ في ست ساعات : ويصور عبور القناة العظيم على الجبهة المصرية .

٣ ــ عن الذين عبروا : اخراج شادي عبد السلام .

٤ ــ مسافر للشمال والجنوب : اخراج سمير عوف
٥ ــ المقاتل سيد : اخراج صلاح التهامي
٦ ــ تحطيم خط بارليف : اخراج عبد القادر التلمساني
٧ ــ ابطال من مصر : اخراج احمد راشد .

انتاج المركز التجريبي والمركز القومي للصور المرئية

٨ ــ صائد الدبابات : اخراج خيري بشارة الذي يقول عن فيلمه « لقد حاولت فيه تجربة اسلوب الريبورتاج وكان هدفي ان اجعل الناس تقترب من المقاتلين وتحبهم اكثر فاكثر من خلال التعرف على جانب الانسان في كل جندي وليس المقاتل فقط . انه فيلم عن الجندي عبد العاطي وزملائه الذي دمر اكثر من ٢٣ دبابة اثناء الحرب التحريرية .

اما هيئة السينما في مصر فستقوم بانجاز ٣ افلام جديدة عن حرب تشرين وهي :

١ ــ مدينة لن تموت : اخراج حسين الطيب .
٢ ــ حصـــاد : اخراج حسام علي .
٣ ــ مبكى بلا حائط : اخراج هاشم النحاس .

اما في الشؤون العامة بالقوات المسلحة فقد انجز نبيل البيه فيلمه « صمود » . اما في البرامج السينمائية بالتلفزيون فقد تم انتاج فيلمي :

١ ــ اكتوبر المجيد : اخراج عبد الحميد الشاذلي
٢ ــ اغلى من الحياة : اخراج سعدية غنيم .

اما القطاع الخاص في مصر فهو يحاول تقديم مجموعة كبيرة من الافلام التي تستغل هذه المناسبة ومنها : الرصاصة مازالت في جيبي لحسام الدين مصطفى . و « ابناء الصمت » لمحمد راضي . وكما يقول سمير زيد في حديثه عن هذا الفيلم فإن تاريخ قصة مجيد طوبيا « ابناء الصمت » يرجع الى عام ٧١ وقد كتبت لينتجها القطاع العام الذي توقف عن ذلك فاسس محمد راضي المخرج شركة خاصة لانتاجه : ويقول مجيد طوبيا عن فيلمه كتبت السيناريو اثناء حرب الاستنزاف وعبرت فيه عن احدى عمليات العبور الصغيرة اثناء تلك الحرب . كان في ذهني العبور الكبير ولذلك لم يصدق احد من الذين قرأوا السيناريو عند الشروع في تنفيذه هذا العام انه كتب قبل حرب اكتوبر » .

الجولان

في الممالك العربية قبل الإسلام وبعده

والمعارك الكبرى الثلاث

هشام شيشكلي

اخترنا هذه الفترة من تاريخ الجولان على الرغم من كونه تاريخا حافلا منذ الالف الثانية قبل الميلاد لمناسبة حرب تشرين والجولان وجبل الشيخ ومعاركها المجيدة ولأن هذه الحقبة من تاريخ الجولان شهدت ثلاثاً من كبرى معارك العرب ، اليرموك وحطين وعين جالوت .

يميز الجولان في هذه الحقبة التاريخية السابقة للاسلام انه في الوقت الذي كان فيه الوطن العربي يعاني الاحتلال الروماني ، كان يقوم في الجولان حكم عربي صرف هو حكم الانباط ، وقد ساعد في الابقاء على حكمهم وحكم بقية الممالك العربية في سورية الموافع الحصينة وعوامل الجغرافيا السياسية « الجيوبوبوليتيك » لجنوبي غربي سورية أو بحرها الصحراوي في تدمر ...

وفي الوقت الذي وقعت فيه سورية تحت الاحتلال الروماني عام (٦٤) ق . م سيطر العرب الانباط على بعض المناطق التي كان يسيطر عليها الاموريون والآراميون من قبل ، وقد امتد نفوذ الانباط على كل سورية الجنوبية من سيناء الى دمشق ، بينما سيطر عرب آخرون على سورية الوسطى والشمالية (التدمريون) وقامت مملكة عربية في منطقة الليطاني والبقاع وشمالي فلسطين شملت حرمون وبعض مناطق الجولان بنفوذها وهي مملكة (الأتيوريين) وينسبون الى (يطور) من ابناء اسماعيل اي من القبائل العربية وكانوا يتجولون أولا في بادية الشام وربما كان مصدرهم من حجر الجزيرة العربية الى أن استقروا في سورية المجوفة واطراف الجولان (١) .

وفي العهد البيزنطي كان في الجولان (الحارث الاعرج) من ملوك الغساسنة (٥٣٠ — ٥٧٢) ميلادية ، ويسميه الرومان (اريكاس) ، وكان بتأييد الامبراطور جوستنيان رئيسا على العرب المتنصرة في حوران ودمشق وشرق الاردن وفي زمن اسلافه (الامير عمرو الاول سنة ٢٤٨—٢٦٣م) وزمن (جبلة الاول ٣٢٠ — ٣٢٠ م) و (الحارث الثاني ٣٦٠ — ٣٧٣ م) . قطن الغساسنة شرق الاردن وانشأوا الاديرة في الجولان وحوران ، وقد خربت تلك الاديرة سنة ٦١٤ م من قبل كسرى ملك الفرس قبل الفتح الاسلامي لهذه البلاد حيث حدث تغير كبير في هذه المنطقة (٢) وقد أطلق العرب القدماء على المنطقة اسم (حارث الجولان) واسم الجولان فقط ، ويبدو ان هذا الاسم اشتق من طبيعة الارض المرتفعة ، وقد ورد اسم الجولان في اشعار فترة ما قبل الاسلام مثل شعر النابغة الذبياني في قوله :

بكى حارث الجولان من فقد ربه
وحوران منه موحش متضائل

ومثل شعر حسان بن ثابت في قوله :

قد عفا جاسم الى بيت راس
فالجوابي فحارث الجولان

---

١ — دوسو ، العرب في سورية قبل الاسلام ص ٦ .

٢ — صحيفة الرأي الاردنية ١٩٧٤/٢/٢٨

ومنطقة الجولان عند العرب تمتد حتى شواطىء طبرية وواديها ، وقد سكنتها القبائل العربية منذ فترات سحيقة في التاريخ .

وعند استعراض الكتاب المقدس مع تاريخ (يوسفيوس اليهودي) الذي كان في الفترة التي ولد فيها المسيح نجد أن منطقة الجولان منطقة عربية قامت فيها للعرب مراكز وامارات ، وان يهود فلسطين لم توجد لهم فيها اية مراكز نفوذ واستقرار ، بل اكثر من هذا ، لم يعش فيها يهود قط ، وكان النزاع الذي يحدث حول المنطقة وفيها يحدث بين القوى العربية (١) .

وفي الفترة البيزنطية كانت القبائل العربية التي تسكن منطقة الجولان هي نفس قبائل حوران ومنطقة دمشق ، وكانت قبائل لخم اهم قبائل الجولان . خالط لخم في مساكنها قبائل (وجينة وذبيان) وجماعات من القينن ومن كلب والرباب .

وكان تجار قريش في فترة ما قبل الاسلام يرتادون منطقة الجولان الذين دان معظمهم بالطاعة لدولة غسان ، وكان بعض امراء دولة غسان يقضون اوقات الشتاء والربيع في منطقة الجولان ، ويبدو انهم قد عمروا فيها بعض القصور والمنازل الكبيرة .

وفي القرن السابع عندما قامت الفتوحات العربية الكبرى ، أصبحت منطقة الجولان مسرحا للعمليات العسكرية التي سبقت معركة اليرموك ثم عمليات اليرموك ذاتها .

وقد اتخذ الرومان معركة اليرموك في الطرف الجنوبي للجولان على السفح المطل على وادي اليرموك ليحمي الجبل ظهر الجيوش ولما لهذه المنطقة من مكانة استراتيجية وحربية وعندما انتصر العرب في معركة اليرموك ووقعت الجولان في ايديهم سهلت السيطرة على دمشق وجنوب سوريا ومن ثم على باقي البلاد وذلك عام ٦٣٦ م حيث اعاد العرب للجولان طابعها العربي بعد أن خرج البيزنطيون نهائيا .

ونقف عند معركة اليرموك ، لانها تجسد مع معركة حطين وعين جالوت — أهمية الجولان الذي انفرد بين سائر اجزاء الوطن العربي بشرف ثلاث من أكبر المعارك الامة العربية .

ولا يعود السبب الى موقع الجولان على الطريق بين سورية وفلسطين وحسب ، بل يعود ايضا الى اهمية المنطقة عسكريا بوجود الجبال والتلال الحصينة التي تتاخمها الوديان السحيقة ، ثم وعورة المنطقة التي تعيق حركة الجيش الذي يحاصر وتعرض عليه أرض المعركة وأخيرا امكانية التحكم بمصادر المياه .

١ — فئة من أساتذة قسم التاريخ بجامعة دمشق .

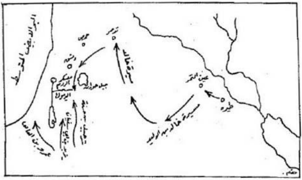
معركة اليرموك عام ١٣ هـ

ارسل ابو بكر خالد بن الوليد الى العراق لفتحه ، وسير خالد سعيد بن العاص الى حدود الشام لمراقبتها وتسقط اخبار الرومان فيها دون ان يورط نفسه في اي صدام مع العدو غير محسوب ، ولكن الروم جروا خالد بن سعيد الى دخول المعركة ، ففرضت عليه الهزيمة وكان ذلك حافزا قويا لتقديم موعد القتال ، فارسل ابو بكر اربعة جيوش عهد بقيادتها الى اربعة من ابطال العرب هم : يزيد بن ابي سفيان الذي اسند اليه امر فتح دمشق عن طريق دمشق فالبلقاء ، وشرحبيل ابن حسنة الذي كلف باحتلال بصرى على ان يتبع نفس الطريق . وسلم « ابو عبيدة بن الجراح » الجيش الرابع وقد اتخذ طريق الغرب الى العقبة واضعا نصب عينيه تحرير فلسطين .

وكان قصد ابي بكر في تباعد هذه الاتجاهات احداث ثغرات في دفاعات الروم لتنفذ منها الجيوش والاندفاع في اربع شعب نحو بلاد الشام .

ولكن هرقل حين علم بقلة عدد الجيوش العربية وتفرقها بين الاتجاهات والقواد الاربعة رسم خطة مضادة مستغلا تفوقه العدديفوضع امام كل جيش قوة تفوقه عددا وعدة .

وقد ادت خطة هرقل هذه الى عرقلة التحرك العربي وعجزها عن القيام بعمليات التطويق الواسعة التي رسمها ابو بكر ، ووقف كل جيش في موضعه عاجزا عن التقدم .



معركة اليرموك

ولكن عبقرية عمرو بن العاص انتشلت العرب من هذا المأزق ، حين اشار عليهم بالاجتماع في اليرموك ، الامر الذي اربك خطة هرقل فكتب الى قادته يأمرهم بحشد جميع القوات الموجودة في جنوب الشام ، وأوصى القادة وبان ينزلوا في مكان متسع المواجهة لضيق المخرج حتى لا يسهل الانسحاب منه.

وقد نفذ قادة الروم رأي هرقل ، فنزلوا بجنودهم عند قرية (الواقوصة والنهر لايصلح للانسحاب) .

ولما راى المسلمون موضع الروم نزلوا بالقرب من اليرموك امام الخندق على طريق وعند المخرج منتظرون خروجهم . وقد أدرك عمرو بن العاص سوء المصير بالنسبة للرومان فقال : ايها الناس ابشروا ، حصرت الروم، وقلما جاء محصور بخير ، ولما ادرك المسلمون ان قوة حصارهم للروم ستطول ، كتبوا الى ابي بكر يطلبون المزيد من الامدادات ، فلباهم بخالد بن الوليد الذي جاء مسرعا وقطع المسافة من العراق الى الشام في ثمانية عشر يوما والتحق ببقية الجيوش في اليرموك فاصبح تعدادها اربعين الفا مقابل قوة الروم التي كانت مائتان واربعون الفا .

وجمع خالد القادة ليحدد الخطةوالموقف فقال : « هذا يوم من أيام الله لا ينبغيفيه الفخر ولا البغي ، فان هذا اليوم له مابعده، لا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وانتم متساندون وان من ورائكم من لو يعلم عملكم حال بينكم وبينه ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون انه الرأي .

وحدد تعبئة جيش العرب بما لم يشهدوه من قبل فكون من الرماة والفرسان وحدات قوية متجانسة والف منهم ثمانية وثلاثين كتيبة متساوية في القوى يرأسها قادة لهم شهرتهم الحربية مثل القعقاع بن عمرو وعكرمة بن ابي جهل وغيرهما ، وولي ابا عبيدة قيادة القلب وعمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة الجناح الايمن ، ويزيد بن ابي سفيان الجناح الايسر ، ثم بدأالزحف العام ، ومضت المعركة بين مد وجزر وصل فرسان الروم عبره الى خيمة خالد بعد ان ازالوا العرب عن مواقعهم ، ولكن عكرمة رص الصفوف امام فسطاط خالد وشكلوا درعا . الى ان ابتعد فرسان الروم عن مشاتهم خاصة بعد ان أسكرهم تراجع المسلمين وفي تلك اللحظة اندفع خالد على رأس القلب وانقض على فرسان الروم وحصرهم بينه وبين عكرمة ، واستمر تراجع الروم الى الواقوصة وحصروا في الممر الضيق الذي يجاورها وهوىمعظمهم في الهاوية ، واسفرت المعركة في صباح اليوم التالي عن نصر العرب وتكبيد الروم عشرين الف بينما سقط من المسلمين ثلاثة آلاف شهيد .

وقد ادت هذه العمليات الى سحق القوة العسكرية البيزنطية في سورية ، وبالتالي الى فتح مدينة دمشق ، وكانت عروبة منطقة الجولان ومعرفة كثير من رجالات الجيش الاسلامي بالمنطقة من قبل من الاسباب الرئيسية التي مكنت المسلمين من سحق قوات بيزنطة وتحرير بلاد الشام .

وبعدما فتح المسلمون بلاد الشام قاموا بتقسيمها الى خمسة اقسام دعي كل قسم منها باسم جند ، وهي : جند الاردن ، جند فلسطين ، جند حمص وجند قنسرين ، وتبعا لهذا التقسيم اصبحت منطقة الجولان احدى مناطق جند دمشق ، وعلى هذا فان تاريخ الجولان في الاسلام جزء من تاريخ دمشق لا يتجزأ عنه .

وقد كان الوجود لعربي في سورية وطيدا وفي وقت مبكر كانت المنطقة تسهم في تطور البلاد الثقافي ، وهناك امثلة على اسماء رجال من سورية كانوا يحملون اسماء اغريقية منهم (فيلفير) الشاعر من (جاورا) أي أم قيس (الحمة) من القرن الثاني الميلادي ، فقد كان سوريا يتكلم الآرامية وعرف الفينقية ونظم الشعر باليونانية .

والشاعر فيلوديموس من عنجر (خاكليس) كان يقيم في الحمة (٢٢٠ م) ومن العلماء (بورفيوس) من حوران ، وكان فيلسوفا لغويا وعلى العموم كانت للجولان زمن الرومان اهمية عظيمة ، فانشاوا مدينة بانياس وكان لهم فيها معهد عظيم (نقلت الدولة الصهيونية مذبحة من موقعه بعد عام ١٩٦٧ وقد قدمت سوريا احتجاجا على ذلك الى منظمة اليونسكو عام ١٩٦٩) .

وقد اشتهرت مناطق عدة في الجولان بعد الفتح الاسلامي ، ومن اشهر مدنها فيق أو (أفيق) وتقع بالقرب من ممر مشهور يشكل عقبة على الطريق الرئيسية بين دمشق والقدس .

ذكرها اليعقوبي وياقوت صاحب (المرآة) فقال ان فيق احدى قرى حوران الواقعة على الطريق المؤدية الى الغور وهي تقع على مدخل (فيق) المشهور الذي يبلغ طوله نحو الميلين وهي تشرف على بحيرة طبريا ومن مدنها جاسم وتقع بين دمشق والاردن في اقليم الجولان ، كما ذكرها ياقوت والمسعودي وقال انها قرية تبعد عن دمشق مسافة (٢٤) ميلا عن يمين الطريق العام بين دمشق وطبريا وهي تبعد عن فيق مرحلة قصيرة .

ومن المدن الهامة (دير فيق) ويقع وراء عقبة فيق الممر الذي يتصل بين الجولان وغور الاردن ويشرف على بحيرة طبريا .

ويقوم الدير في مكان مشرف على شمال فلسطين ، نحت في الصخر وما يزال ماهولا.

ذكره الشاعر ابو نواس في اشعاره ، كما ذكره (شوماخر) الرحالة الالماني في كتابه عن الجولان (١٨٨٨) كما ذكره ياقوت وصاحب المراصد .

ومن المدن الاثرية (سوسية) التي كان اسمها قديما (هبوس) وتقع على مقربة من جنوب فيق والى الشرق من بحيرة طبريا ، وتقع قرية (الصنبرة) في منطقة الاردن مقابل عقبة فيق على بعد ثلاثة اميال من طبريا وكانت مشتى الخليفة معاوية الاموي . ومن مدنها ايضا (بيت جنا) على بعد أميال شمال شرقي بانياس ومسعدة .

عندما غزا الصليبيون سنة (١١١٨) الجولان ضموها اليهم ما عدا قلعة (الصبيبة) الحصنية قرب بانياس التي شكلت في فترة الحروب الصليبية خط الدفاع الاول عن دمشق .

وقد بقيت هذه القلعة مع منطقة الجولان في أيدي العرب طيلة فترة الحروب الصليبية الا لفترة تقل عن الخمس سنوات .. ففي سنة (٥٢٠ هـ ـ ١١٢٧ م) اقطع (طغتكين) حاكم دمشق (ثغر بانياس) الى (بهرام) داعي دعاة جماعة الاسماعيلية في بلاد الشام . وفي سنة (٥٢٢ هـ ـ ١١٢٨ م) حدثت في دمشق فتنة ادت الى مذابح كبيرة ، فاضطر هذا حامية بانياس الى الهرب الى داخل الاراضي المحتلة من قبل الفرنجة ومكن هذا الصليبيين من الاستيلاء على بانياس ، وهناك حشدوا قواتهم وجربوا منازلة دمشق واحتلالها لكنهم اخفقوا وكان ان قام (بوري) حاكم دمشق سنة (٥٢٧ هـ ـ ١١٣٢) بالهجوم على بانياس ، فاستطاع استردادها من الفرنجة وعادت بانياس لتقوم بوظيفة الخط الاول لحماية دمشق ، نقطة تجمع وحشد الجيوش العربية في عمليات تحرير فلسطين من الصليبيين مع عمليات انجاد مدن الساحل اللبناني .

وكانت طبرية أهم مدن اطراف الجولان ارتبط تاريخ طبرية دائما بتاريخ منطقة الجولان في فترة ما قبل الاسلام .

وأثناء العصور الاسلامية صارت طبرية مثلها مثل بقية منطقة الجولان احدى مناطق جند دمشق كما ذكرنا ، وكان هناك طريق خاص يربط دمشق بطبرية يمر بالكسوة فبلدة جاسم فبلدة فيق ثم الى طبرية .

وكانت طبرية احد مراكز النشاط الثقافي في الشام ، واليها ينتسب عدد من العلماء ، خاصة في ميدان الحديث النبوي .

تم تحرير الجولان من الصليبيين على يد صلاح الدين الايوبي الذي سارع الى استردادها قبل موقعة حطين . وأمر ببناء قلعة (الربض) وبعد أن حصن طريق المنطقة وامن طرق

المواصلات الى دمشق وبين شرقي الاردن وطريق الحج ، خطط لمعركة حطين في وادي حطين بالقرب من طبريا .

معركة حطين عام ١١٨٧ م

نذكر معركة حطين بشيء من التفصيل لنفس الاسباب التي ذكرناها فيما يتعلق بمعركة اليرموك وابرزها اهمية الجولان الستراتيجية والعسكرية .

خطة المعركة : بدأ صلاح الدين خطته بتحديد مركزي حشد قواته :

الاول في بصرى جنوبي شرقي الجولان (حوران) وكانت خطته الاسلامية تغطية الحشد بحجة حماية قوافل الحجاج من تعرض الصليبيين لها .

والمركز الثاني في منطقة قرية كفر سبت المنيعة والمسيطرة على منابع المياه .

هناك يمكث مترقبا خروج الصليبيين من مدنهم وهجومهم على قواته المتمركزة في أرض حصينة وبعد ان يتكبد الصليبيون خسائر

معركة حطين - ساحة المعركة



فادحة لوعورة الارض وقلة المياه . يشن بقطعاته (الهجوم المعاكس) فيقضي على الصليبيين وينهي الحرب موفرا على قواته خسائر الهجوم على صفورية وطبرية المحصنتين.

وقد نفذ صلاح الدين الخطة بعبوره مع قواته نهر الاردن جنوب طبرية تحت ستار الليل وعسكر في منطقة سبت وانتخب موقعا صالحا للدفاع ، ثم قام بتدمير جميع آبار المياه التي يمكن للعدو الاستفادة منها ، وأخذ ينتظر خروج الاعداء .

فلما طال انتظاره دون ان يفلح في جر الصليبيين الى المعركة لجأ الى الخديعة الحربية فقسم جيشه الى قسمين ، قسم صغير تركه في كفر سبت وكلفه بمراقبة الطرق المؤدية الى صفورية وطبرية ، وقسم قادة بنفسه وحاصر به مدينة طبرية دون الاشتباك مع حامية المدينة في معركة فاصلة ، وكان قصده من ذلك دفع جيش صفورية لانقاذ بلدة طبرية حيث توجد زوجة القائد الفرنسي (ريموند) وأولاده ، فاذا ما خرج الصليبيون من صفورية لانقاذ طبرية يعود صلاح الدين بقواته حالا الى كفر سبت فاذا هاجموها فيها يكون قد جرهم للقتال في ارض وعرة وفق خطته واذا ما استمروا بالسير الى طبرية ولم يشعروا بوجوده في كفر سبت يتقدم هو لمهاجمتهم ويباغتهم وهم في رتل السير على الطريق فيرميهم في التلال حضين الوعر ويحصرهم بلا ماء ويقضي عليهم ، وبالفعل طلبت زوجة ريموند المحاصرة في طبرية النجدة من زوجها فتحركت قوات الصليبيين من صفورية باتجاه طبرية في الثالث من تموز عام ١١٨٧ م وعلى الفور عاد صلاح الدين الى كفرسبت استعدادا للمعركة الفاصلة ، ووصلت قوات الصليبيين الى ما بين لوبيه وحطين وهي تظن ان صلاح الدين ما يزال محاصرا طبريا ، ولكنها فوجئت بالجيش العربي يفاجئها من اليمين من جهة كفر سبت وهي في حالة المسير وعلى غير استعداد للقتال منهكة القوى بفعل الحر والظما .

فاضطرت الى التوقف والدفاع بعد ان التجات الى التلال الواقعة على يسار الطريق بعد ان تكبد خسائر جمة، وفي الليل في الوقت الذي رقدت عطشى كانت القوات العربية تطوق التلال وتنتشر خلف الصخور والادغال، وفي الصباح وجد الصليبيون انفسهم عاجزين عن القتال لعدم امكانية تحرك الخيالة والمشاة في الارض الوعرة . . ومع اشتداد حرارة الشمس في الظهيرة أمر صلاح الدين باحراق الاشجار والاعشاب اليابسة ، فتضعضعت معنويات العدو وقرر الاستماتة للوصول الى البحيرة تجاه ذلك أمر صلاح الدين قائده

---

(١) معارك عربية - الادارة السياسية للجيش العربي السوري ص ٤٢ .

هناك بان يتظاهر بفك الحصار ، وانطلت الخدعة عليهم فاندفعت خيالتهم في ذلك الشق فاغلق العرب الطوق من جديد وشطروا جبهة العدو وعزلوا المشاة عن الخيالة ، وقرر صلاح الدين مشاغلة الخيالة والانقضاض على القسم الاخر حيث الملك والامراء والمشاة ولما أسر الملك وكبار القواد سارعت الخيالة الى الاستسلام وانجلت المعركة عن فوز الجيش العربي ، الذي تابع زحفه الى القدس لحسم الحرب نهائيا ، فدخلها مضطرا كريما في معاملته بعكس الصليبيين .

بعد حطين كان هدف خلفاء وملوك بني أيوب والمماليك المحافظة على الجولان والسيطرة عليها لانها اقرب واقصر طريق بين شمال فلسطين ودمشق .

وذكر الجولان أيضا من المؤرخين العرب القدماء المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) فقال عنها :

انها مرتفع يقع عند حدود الحولة عند سفح جبل الشيخ ، وقد رحل اليها معظم سكان مناطق الحدود المسلمين بعد سقوط طرسوس بيد البيزنطيين عام ٩٦٥ م (عاش المقدسي حتى عام ٩٨٥) .

وتحدث الرحالة ابن جبير عن المنطقة بعد أن زارها عام ١١٨٥ م وكتب عن بلدة بانياس أنها بلدة صغيرة لها قلعة تحيط بها الاسوار التي يجري نهر بانياس حولها ، ويخرج النهر من أحد أبواب المدينة ويدير طواحينها ، وقد كانت بانياس بيد الافرنج مدة قصيرة ، فاسترجعها السلطان نور الدين زنكي سنة ١١٦٥ م ، وتشرف قلعة (هوتين) على بانياس وهي قلعة صليبية حصينة ونصف أراضيها الزراعية بايدي المسلمين ونصفها الاخر بأيدي الافرنج ، ويقول مؤلف المراصد بان بانياس تقع على نهر ما يدعى (باليا) قرب سفح جبل الشيخ ووصفها المؤرخ (أبو الفداء) بانها « بلدة صغيرة تكثر حولها الشجيرات التريبنية وينابيع المياه وهي تقع على مسيرة يوم ونصف جنوبي غربي دمشق وهي منيعة وحصينة ، وتقع على قمة جبل حرمون منطقة تدعى (سودة) والمسافة بينها وبين منطقة (كفركلا) الواقعة في وادي كنعان ١٨ ميلا من كفركلا الى (جب يوسف) ١٢ ميلا ومن بانياس الى بيت سابر الواقعة في بيت جن ١٨ ميلا ومنها الى داريا قرب دمشق (١٥) ميلا ومنها الى دمشق نفسها ثلاثة أميال »

معركة عين جالوت ١٢٦٠ هـ

وقد شهدت الجولان معركة ثالثة تعد من أبرز المعارك في التاريخ العربي وهي معركة عين جالوت التي قضي فيها على المغول الذين احتلوا بغداد عام ١٢٥٨ م واتلفوا جزءا منها التراث الحضاري العربي المكتوب بعد ان اباح هولاكو المدينة أربعين يوما لجنده .

ثم اتجهوا لاكتساح فلسطين ، ولكن الجيش العربي في سورية تصدى لهم في عين جالوت عام ١٢٦٠ م الذي بدأ بعرقلة تقدمهم بانتظار وصول طلائع الجيش العربي مصر بقيادة الظاهر بيبرس حيث غدا تعداد الجيشين ٤٤٧ الف مقاتل بعد أن عسكرا في عكا .



ترك الجيش العربي مستنقعات عين جالوت ونهر الاردن لحماية جناحيه الايمن والايسر وكذلك ظهره الممتد بين القلب والجناح الايسر تاركا فراغا في الفرجة الضيقة الخالية من المستنقعات يمكن ان يدفع منها خيالة التتار، وخلف هذه البقعة اقيمت مراكز استناد محكمة على شكل جيب احاطة رماة النبال في الجيش المصري بحيث تغطي سهامهم ساحة الجيب تماما ، وخلف مراكز الاستناد هذه حشدت تشكيلات كبيرة من مشاة الجيش السوري وذلك استعدادا للانقضاض على خيالة التتار، اما خيالة الظاهر بيبرس فقد حشدت خلف الجيش السوري بحيث تستطيع التجمع بسرعة لنجدة اية بقعة يمكن أن يخترقها العدو .

وفي صباح الثالث من ايلول عام ١٢٦٠ م بدأت المعركة بهجوم التتار على يسار الجيش العربي فتظاهر المشاة بالانكسار محدثين ثغرة اندفع التتار فيها، وحين وصلوا عمق الجيب اطبقوا عليهم فقتل القائد المغولي (بغا) واستمرت المذبحة من الصباح الى الظهر فر فيها من فر من التتار ليقعوا في مطاردة الشعب لهم حتى العراق عند (هيت وعانات) حيث توقفت القوات العربية هناك مخافة انقضاض الصليبيين عليهم من الخلف ، وليصونوا قدرتهم القتالية لتصفية الصليبيين نهائيا .

رسالة بيروت الثقافية

يكتبها : ياسين رفاعية

هل يموت الشعر ؟

الناقد عصام محفوظ وجه سؤالا واحدا الى مجموعة من الشعراء هو : هل يموت الشعر الآن في لبنان ? وجاءت الاجابات في الصفحة الثقافية لصحيفة « النهار » التي نرى من الواجب نقلها في هذه الرسالة ، كاساس لفهم مناخ الشعر العربي حيث يشمو فوق الارض التي يعيش فيها .

من الاجابات ، نزار قباني الذي قال « موت الشعر كان دائما نكرة افتراضية نلجأ اليها في زمن الحزن واليأس والخراب لادانة سلوك عصرلم يعد منسجما معنا تكرياوثقفيا واقتصاديا واجتماعيا وتاريخيا .

كلما غرقنا في مستنقع المادة والابتزاز والجريمة صرخنا « مات الشعر » وفي النهاية نكتشف ان الذي مات هو نحن لاالشعر .

لكن وفاة الشعر لم تحدث ابدا رغم تقارير كل الاطباء الذين اعطوا شهادة الوفاة.

ثم انموت الشعرهو موت نسبي .بمعنى انه يتعلق « بمن » يكتبه . ويتعلق بما يكتبه و « كيف » يكتبه . فهناك قصائد تكونشهادة ميلادها وشهادة وفاتها ذات شكل واحد وتاريخ واحد .

ان الشعر مطلب أساسي من مطالبالانسان سواء انتمى هذا الانسان الى عصر الحجر والنحاس ام انتمى الى عصر الالكترون والكومبيوتر ؟ سواء سقط هذا الانسان بين اسنان القطاع الصناعي والمصرفي أم سقطبين اسنان الاقطاع الزراعي والقبلي ؟ وسواء كان من استوكهولم أو من بنغلادش .

انني اعتقد انبداخل الانسان غدة ممتازة تقوم بافراز الشعر في كل الظروف اللائمة وفي كل الازمنة الجيدة او الرديئة .

هذه « الغدة الشعرية » لا يمكن احد ان يستاصلها احد على طريقة الزائدة الدودية لانها هي التي تنظم دورة الحضارة وهي التي تحفظ نوع الانسان وتميزه عن بقية الدواب.

أما الشاعر يوسف الخال ، فقال« لايموت الشعر في لبنان . ولا في ايمكان،لايموتمادام في الارض الانسان . فبعد الكلمة كان الشعر سبيل العقل الى القلب وسبيل القلب الى

الله. كذلك الفنون جميعا باقيةالى المنتهى، فهل كان الانسان من البدء وهل يكون الى الابد الامغنيا ، راقصا ، منشدا ، بانيا ،راسماً.

فلا أظن اذن الا انك تعني بسؤالك رقاد الشعر في لبنان ، لامونه ، وهذا صحيح الى حد. فبعد جهاد ربع قرنألا يحق لذلك فهل يبقى لنا غير الرجاء بيقظة الشعر عاجلا الى مغامرة جديدة ، تكون ثمرتها التعبير الحر الصادق عن قلقنا نحن ، وعن قلق الانسان المعاصر ، هذا القلق الذي يفتح دونسواه نافذة الرجاء على عالم أفضل من عالمنا . عالم يتجدد فيه الحلم بالخلاص . »

وقال ادونيس « الشعر هو من الانسان جنسه الآخر ، يشهد به ؛ يشهد عليهويشهد له . لذلك لايموت ، لانه هو أحد الينابيع الحية التي نواجه بها الموت وجفافه . غير ان حضوره قد يضعف بمن يمارسونه كتابة أو تذوقا فيخيل الينا أنه يكاد أن يختنق تحت أثقالهم . لكنه لضعف نفسه يظل قوة الانبجاس وتفجر ، ويتغلب على الموت .

حتى حين يتورم هذا الحضور كميا بمن لايعرفون من الشعر الا أن يتسلقوا عليه وينتسبوا اليه فان الشعر يصفو ويتلألأنوعيا.

لذلك لم يكن الشعر العربي في أيةمرحلة اعمق واغنى منه اليوم .

ونرى الشاعر ميشال سليمان يقول : « قلتها منذ زمن طويل .. الشعر ضد الموت » بمعنى انه حركة التطلع البشري صعدت فنيا ؟! فجاءت من وجهة جمالية اثرا ابداعيا لايكرر نفسه .

والواقع ان الشعر عنيت عمارته الكبرى ، يحمل في غضونه مبدا الصراع الازلي ، مبدا المأساةالقائمةبين الذاتالبشرية وحلمها الاستكشافي في نطاق الوجود ، مع مايستبطن هذا الحلم من توجس خلال طوافه وما يمارس من تفكيك وتفتيق لرموز وأسرار هي في ذاتها ضرب من السيطرة على الواقع بغية تبديله .

من هنا . الشعر لايموت الآن ، ولا في أي اوان . فيوم يموت الشعر تموت الحياة . وهذا مستحيل . »

أما الشاعر انسي الحاج فقد اقتصرجوابه على قوله « لا .. وغالبا ما كانوا يطرحون هذا السؤال والشعر في أوجه وهم غير عارفين » .

فؤاد رفقه الذي صدر له هذه الايام ديوانه الشعري الخامس « علامات الزمن الاخير » نراه يقول : السؤال يدور حول الشعر . السؤال يسأل : هل الشعر يموت الآن ؟ ان كلمة « الآن » في هذا السؤال تشير الى اللحظة الراهنة وحدها . بل الى تاريخ الانسان المعاصر . كذلك السؤال حول دور القصيدة في المرحلة الحاضرة ليس صدفة: انه صادر عن الشعور العميق بأن الكلمة الشعرية في ازمة هذه الايام . وهذا صحيح ولكن ما مصدر هذه الازمة ؟

عندما نلاحق الازمة الشعرية المانحاول ان نتجه صوب جذورها الانتولوجية . قد يبدو اول الامر ان جذورها هذه ترسو في الضيق الاقتصادي او التوتر السياسي او التفاوت الطبقي او ربما في سيطرة عقيدة ما على سواها. ان الازمة الشعرية الحالية غريبة عن هذه القناعات التي تجتاح انسان عصرنا . والحقيقة هي ان العكس قد يكون الصحيح فالازمة الاقتصادية او السياسية او الاجتماعية اي هذا الضيق الذي يطبق على عالم هذا العصر ، انما يعود في الاخير الاخير الى واقع القصيدة المظلم . اذا صح هذا ، يكون السؤال : ما مصدر هذه الظلمة ؟ من اية جهة تفاجئنا ؟ .

جواب : ان الجهة التي منها تهاجمنا هذه الظلمة انما هي جهة النسيان . نسيان اي شيء ، نسيان افق الوجود . ومن الذي يغوص في النسيان ؟ جواب : الانسان المعاصر ، وفي صورة خاصة . ذلك الذي وجوده حوار مع افق الوجود ، ولكن من هو؟ انه الشاعر .

شاعر هذا العصر نهاري ، ان نهاريته اساس وجوده . شاعر هذا العصر نهاري لا لانه ، في الدرجة الاولى ، يغرق في شؤون حياته اليومية لتأمين معيشته بل لانه يضيع بالعقالدية التي تموضع الشعر وتجعله شيئاً على مستوى بقية الجوانب الحضارية ، ان لم يكن اقلها قيمة. بهذا التموضع الشعري، تسقط القصيدة الى المستوى الصحافي الجماهيري . الى الفوغائية وديمقراطية الذوق . من هنا كان رحيل القصيدة المعاصرة من تخوم الرؤيا وانزلاقها الى حضيض الازمة محتماً .

القصيدة المعاصرة في ازمة ، وهذا يعني ان الوجود الانساني المعاصر ، وخصوصاً وجود الشاعر في ازمة ، واخطر ما في هذه الازمة ان الانسان المعاصر لايعيها ، حتى أن وعي حضورها ، فانه يلتفت الى غير الجهة التي منها تجيء . الانسان المعاصر في أزمة لانه يغوص في النسيان . نسيان المنبع الاول : الافق الذي يضيء في استمرار: افق الوجود..»

ومن بين الشعراء الذين اجابوا ايضا الشاعر جورج غانم بقوله : « الشعر ؟ انه راقد منذ سنوات ، لكنه مثل اليعازر ، ينتظر مسيحاً يصرخ به بصوت عظيم : ايها الشعر استيقظ . فهل يستيقظ الراقد ويستقيم ويفيض حياة وبهاء ؟

الاجابة صعبة يكتنفها ضباب الانسان . ورغم تفاؤلي القديم بأن الشعر اذا ما غافله النعاس فانما ينام بالعافية وليس مريضاً . يلح علي التساؤل : لماذا يطول صمت الشعراء ولا ينشدون . الم تهزهم احداث ؟ الم يتمزقوا ؟ الم يراود قلوبهم السلام والمحبة؟ الم يتنطوا من الصمت ؟

انهم نيام على العاقبة والاسى ويترقبون ، لعلها في الغفوة تختمر المراهب التي دفنت لتنفتح وتثمر متى آن الاوان .

وبالتالي ، فان كل ادب كبير ، اكان شعرا ام غيره ، لايستيقظ في الازمات ، يكون سابقا لها او لاحقا بها ، وقد يصبح الزعم انه من مستلزمات الابداع ان يعيش المبدع في مناخات الترقب او الهدوء والطمانينة لتتوافر له شروط العطاء . يوحي من ذلك كله تنتظر القيامة .

وليد غلمية والنقد الموسيقي

صرخة الموسيقار وليد غلمية عن مأساة النقد وازمة الموسيقى العربية ، جاءت على شكل بحث علمي بالنسبة للتخبط المؤسف الذي تتخبط فيه الموسيقى العربية « النقد الموسيقي في لبنان كارثة ، ربما في المواضيع التالهة التي تنقصها ركيزة معرفة . لكنها في التاكيد تنقصها الممارسة الموسيقية سمعيا وتنفيذيا . واقصد بالناحية السمعية ان الذين يكتبون في النقد الموسيقى هم ممارسو سماع اغان فقط تموت بعد اطلالتها بوقت قصير . واقصد بالناحية التنفيذية انهم لا يملكون القدرة على عزف آلة ولو كانت دربكة . ليس ضروريا ان يكون الناقد الموسيقي عالما في الموسيقى ، ولكن هناك بديهيات لا بد من معرفتها مثل الموازين والمقامات والآلة والتوزيع والتعبير الموسيقي . وهذه يمكن ادراكها بقراءة او مطالعة الكتب والمقالات حول الموسيقى تقرب القارىء نحو الاجواء الموسيقية . او ان يكون « ناقدنا » المحترم مارس التفهم الموسيقي من خلال دراسته المدرسية وهو غير موجود على الصعيد التربوي عموما ، او ليس بالموضوع الاجباري في معاهدنا وكلياتنا .

ان الزعيق والصياح المنبعثين من الوسائل السمعية او السمعية البصرية تصل الى حد الاصرار على الرقابة واصرار في تمزيق وضع السامع في موضع الانتقاء للاعتبار . ان هكذا اصرارا يعزل السامع من قدرة الانتقاء فيصير مسيرا لا مخيرا ومجبرا وليس حرا . ومن يرد أن يخرج من هذا الجو القاتل يصبح في ما بعد شاذا مكروها .

كل يوم تطالعنا صحف لبنان الكثيرة وصفحاتها الثقافية او الفنية بتفسيرات وانتقادات موسيقية ليست لها ادنى علاقة بالموسيقى . فلا اللغة التي يكتب بها تتضمن كلمة واحدة لها علاقة بالموسيقى ، مثلا نقد الفن التشكيلي يتضمن تعابير ومصطلحات لها صلة مباشرة بالفن التشكيلي كالخط واللون والبعد .. الخ . او نقد الفن السينمائي الذي يتضمن تعابير ومصطلحات سينمائية بحتة . بينما يكتب النقد عن العمل الموسيقي وكانه اشعار بحجز او كانه

بيان (طابو) او ملكية . وهكذا مقال يمكنه ان يكون لاي موضوع وغرض اذا حذفت منه كلمة موسيقى . وحدث من تطور النقد في الفن التشكيلي او السينمائي ان كل المصطلحات في هذين الفنين وللممارسة في استعمالها حفظت وفي وضوح لدى كل قراء هذه المقالات او الصفحات . اذن فالصفحات الفنية او الثقافية ادخلت على القارىء مصطلحات جديدة وتعابير لم يكن ليعرف عنها شيئا قبل الاهتمام بالصفحات الثقافية من قبل دور الصحف ومن قبل القارىء اللبناني اصبح في موضع انتقائي الى حد ما للفن التشكيلي والفن السينمائي . تطور ذوقه وحسه وقياساته وتقبله او رفضه لاعمال مختلفة من هذين الفنين ، وذلك يعود الى مساهمة النقاد التشكيليين والسينمائيين في عدم (مسح دماغ) القارىء .

الناقد الذي يكتب في النقد الموسيقي لا يعرف كيف يستعير لغته ويحشرها لتشكل نقدا موسيقيا . فكم من مقالات في النقد الموسيقي هي في الواقع تصلح لنقد عمل فني آخر غير الموسيقى ، وهذا لانهم يستبدلون بكلمة الرسم مثلا كلمة موسيقى ، او بسينما كلمة موسيقى . والناقد الذي يكتب في النقد الموسيقي يكتب كانه ينتقد حبيبته لانها اخلت بموعد . او ابنه لانه تشيطن في المدرسة فيستعمل لغة التأنيب لانه يعتقد (اي الناقد) انه سلطة ذات منزلة رفيعة يحق لها « هز العصا » متى شاءت .

وبعد ان يرد شلمية على احد محرري الصحف بالاسم حول تلحينه لاغاني مسرحية « محاكمة بياع اللوز » لجاد الحاج يختم صرخته : الحقيقة ان التطور الموسيقي في لبنان تعدى النقد الموسيقي ، والذي يكتب حول الموسيقى في لبنان انما من خلال اللوق الشخصي السريع والتقبل الشخصي السريع المبني على سماع الاذاعات وما يقدمه التلفزيون هو ضمن ازمنة قصيرة جدا ولغاية اذاعية او تلفزيونية بحتة . فالناقد الموسيقي هو من يعايش الموسيقى في كل لحظة من حياته ، وهو مستمع الى كل الموسيقى وليس الى بعض الاغاني فقط اضافة الى معرفة ما للغة الموسيقى اذ ان للموسيقى لغة .

البحث عن توفيق صايغ

اصدر الشاعر رياض نجيب الريس مجموعة شعرية جديدة تحت عنوان « البحث عن توفيق صايغ » ، الشاعر الذي توفي قبل خمس سنوات . وكانت هذه لفتة وفاء من صديق عمره رياض الريس ، والمجموعة ، اخراجها جديد من نوعه للفنان الكبير وضاح فارس .

اعتمد فيها شكل الدفتر الذي يستخدمه الشاعر لكتابة قصائده واعادة صياغتها ، مع تلك الرسوم المخربطة التي تملأ جوانب النقد ، فجاء انيقا وجميلا وأخاذا .

وكتب رياض الريس مدخلا لمجموعته جاء فيها « كانت بين توفيق صايغ والغربة مسافة وطن . الوطن الذي شاع ، والوطن الذي رفضه ، والوطن الذي لم يعترف به . لم تكن الغربة ملجأ ، كانت قرارا ، وقضى عمره راكضا .

اراد ان يستبدل الحبيبة بالوطن . فكان التيه التاريخي . واراد العزاء بضياع الوطن في حبيبته فكانت الفاجعة الكبرى . وادرك أن هناك سيفا يرتفع فوق رأسه ، تحمله ذراع واهنة ، لا بد من ان يسقط عليه ، ويكون سقوطه عظيما .

يوم ترك الديار ، عرف ان عهد التيه قد بدأ . ويوم ترك الحبيبة ، عرف ان عهد الموت وصل ، فطالب الموت بأن يرجع اليه سيفيه : حبيبته ووطنه .

ولما يئس من الحبيبة ، استبدلها بالموت واصبح الموت عنده خصبا كالفينيق ، كالمهرة البيضاء ، تحمل اليه موتا يفتح له ذراعيه ولما يئس من الوطن ، استبدله بالمنفى ، واصبح المنفى الوطن عنده . وطن الذكريات والمخاوف ، يصطرع في داخله ويستنفدقواه .

وكانت المرأة ، المرأة البديلة لحبيبته ، المرأة التي كان يعود توفيق صايغ معها في آخر الليل ، في القطار الهرم متلمسا طريقه مفتقدا جنونه ، لا هو يصل ولا القطار يشق سكون الليل ، ويموت عواؤه مع ضباب الطريق الذي يضله في استمرار المرأة التي تصاعد هو من بحيرتها غيمة ، حطل بها على الاودية ، عندما قالت « بلى » منذ بطش الضوء بالعتمة الحنون ، وعندما قالت «لا» طوال عهد الضياء الضرير .

★ ★ ★